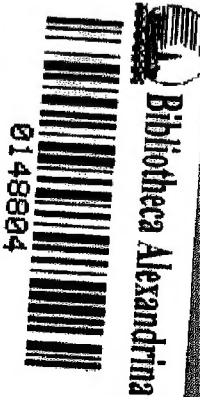


الدكتور صلاح الدين الهادي

الأدب في عصر النبوة والاشهاد

الناشر مكتبة الخانجي بالناصرة



الأدب في عصر النبوة والسَّيِّدَيْنِ

تأليف

الدكتور صلاح الدين الهادى
أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م



الناشر

مكتبة النخاسى بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجي

رقم الإيداع ١٩٨٧/٧٨٢٣ م

الترقيم الدولي ٤ - ٠٢٩ - ٥٠٥ - ٩٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

(قرآن کریم)

مقدمة

يعد بعض مؤرخي الأدب المحدثين ، الفترة الممتدة من مبعث النبي ﷺ ، إلى سقوط دولة بني أمية (١٣٢ هـ) عصراً أديباً واحداً يطلق عليه بعضهم اسم « عصر صدر الإسلام »^(١) ، ويسميه الآخرون « العصر الإسلامي »^(٢) .

غير أني أؤثر ما اصطلاح عليه كثير من مؤرخي الأدب ، من تحديد عصر صدر الإسلام ، بدءاً ، بالبعثة النبوية ، ونهاية بتنازل الحسن بن علي ابن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ ، أي أن هذا العصر يشغل نصف قرن من الزمان تقريباً^(٣) .

وإنما آثرت فصل هذه الفترة عن العصر الأموي ؛ للخلاف الواضح بين هذين العصرين . سياسياً ، وأديباً ، وحضارياً .

فحكم النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، يختلف لا شك عن نظم الحكم الملكي في ظل دولة الأمويين ، كما أن الخلاف بين المسلمين ، دينياً ،

(١) انظر تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : أنيس المقدسي ٨٧/١ (طبعة بيروت ١٩٣٥ م) ، وصدر الإسلام : جورج غريب ص ١٠ (دار الثقافة بيروت بلا تاريخ) .

(٢) النثر الفني في القرن الرابع ، زكي مبارك ٥٧/١ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م) .

(٣) بعث النبي ﷺ بمكة ، قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث عشرة سنة ، وانتهى عصر النبوة والراشدين سنة ٤١ هـ ، فتكون مدته أربعة وخمسين عاماً .

ومذهبياً وسياسياً ، لم يظهر في عهد الراشدين على الصورة الحادة ، التي ظهر عليها في عصر بني أمية ، وهذه كلها عوامل مؤثرة في الأدب ؛ ولذا اختلفت الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، عنها في العصر الأموي ، في غير قليل من الملامح الأدبية ، فنجد الشعر - مثلاً - في صدر الإسلام يضطرب بين الضعف والازدهار - كما سئرى - بينما يستعيد في العصر الأموي ما كان يتمتع به في العصر الجاهلي ، من صدارة ، وقوة ، وازدهار .

كذلك نجد النثر - وعلى الأخص الخطابة - يعلو صوته في صدر الإسلام على صوت الشعر ، ثم ينتقل في العصر الأموي إلى طور آخر ؛ نتيجة لاحتدام الفتن الحزبية والمذهبية ، وتكاثر التيارات الأجنبية ، التي بدأت تخطو سريعا إلى البيئات العربية ، منذ عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، أيام خلافة الراشدين ، فأصاب النثر في أواخر هذه الدولة تطورا خطيرا آخر ، على يد عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، الذي وضع منهجا جديدا لفن الكتابة ، كان بمثابة التمهيد القوي لازدهار هذا الفن الأدبي ، في عصره الذهبي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولقد كانت صلتى بأدب صدر الإسلام حميمة ، منذ أن شغلت - في مرحلة مبكرة من حياتي الجامعية العليا - بدراسة شاعر من شعرائه ، المعروفين في التاريخ الأدبي بالشعراء المخضرمين ، وهو الشماخ بن ضرار الديباني .

كان لهذه الصلة فضل التفاني إلى كثير من قضايا الأدب في هذا العصر ، وحرصى على تتبع ما كتبه أقلام العلماء والباحثين والدارسين - قديماً وحديثاً - حول هذه القضايا ، وقد استرعى نظري من ذلك كله أمور ثلاثة ، كانت من أهم دوافعي للنهوض بهذا البحث :

أولها : أن أدب هذه الفترة لم يظفر - فيما أعلم - من عناية

الباحثين الجادين المتمرسين بأساليب البحث الأدبي ، بما هو جدير به ، بينما حظيت الحياة السياسية والدينية فيه بقسط وافر من العناية والرعاية والدرس ، والتمحيص والنقد ، مع أن هذا العصر من أكثر عصور الأدب حاجة إلى الدراسة الدائبة ، والبحث الجاد المتعمق ؛ ذلك أنه أبلغ هذه العصور خطراً وأهمية ، بقدر ما للمرحلة التي يمثلها في تاريخ الأمة الإسلامية من خطر وأهمية . وما اضطرب به من أحداث بعيدة الأثر ، فهو عصر الصراع بين القيم الإنسانية الحقبة الخالصة ، التي جاء بها الإسلام ، والقيم التي بعثتها وأرستها النظم الفاسدة ، والأهواء الضالة ، خلال آمار بعيدة ، وعصور ضارية في القدم .

وثانيها : أن بعضاً من قضايا الأدب في هذا العصر ، قد استقرت في أذهان كثير من الباحثين والدارسين على نحو من الفهم والتسليم به ، يقوم على التصور الخاطئ لهذه القضايا .

فقد كاد الإجماع ينعقد على أن الحياة الأدبية في صدر الإسلام ، قد أصابها الضعف والخنول والانكماش ، وأن الشعر - بخاصة - قد ذهب بأوفى نصيب من هذا الوهن والهزال ، وأن الإسلام كان حرباً على الشعر في هذه الفترة ، فقد ازور عن الشعر ، وذم الشعراء ، ورآه ورآهم على طرفي نقيض مع ما جاء به من مثل ، وآداب ، وأهداف .

كما استقر في أذهان هؤلاء أن الفتوح الإسلامية كانت وبالا على الشعر والشعراء ؛ بدعوى أنها شغلت العرب عن إنشاء الشعر وإنشاده من ناحية ، والتهم أرواح كثير من الرواة والشعراء من ناحية أخرى .

وإذا كان أكثر الباحثين في أدب هذه الفترة ، قد تطرف فقال بضعف الحياة الأدبية في صدر الإسلام بعامة ، فقد انزلق آخرون إلى القول بازدهار أدب هذا العصر ، في مختلف بيئاته الزمانية والمكانية .

وسترى أن هؤلاء وأولئك قد قعد بهم عن تقييم أدب صدر الإسلام تقييماً دقيقاً ، منهج خاطيء في النظر إلى هذا الأدب ، فقد أهملوا كثيراً من الظروف التي أحاطت به ، وأثرت فيه .

وثالثهما : أهمية أدبية خاصة ، تجعل من دراسة أدب هذا العصر ضرورة لا غنى عنها ؛ لفهم كثير من وجوه تطور الأدب في العصر الذي يليه (العصر الأموي) ؛ إذ كانت الصلة قوية بين أدب العصرين .

ففي أولهما أكثر جذور الفنون والمذاهب الأدبية في الآخر ، ونذكر في هذا المجال نشأة الكتابة الفنية وتطورها في صدر الإسلام ، مما عبد السبيل أمام النهضة الفنية لهذا الجنس الأدبي في العصر التالي ، كما نذكر تطور فن الخطابة الإسلامية ، واتساع مجالاته ، وتنوع أغراضه وألوانه ، فكان ذلك كله قاعدة صلبة ، وثبت منها الخطابة إلى عصرها الذهبي في عصر بني أمية .

ولا يغيب عنا ما كان للصراع العنيف ، بين مكة والمدينة في العهد النبوي ، من يد مباركة على فن النقائض الشعرية ، حيث قفز به هذا الصراع درجات في سلم التطور ، فلم يعد فناً مغموراً ، قليل الشأن ، كما كان في الجاهلية ، وقد أتاحت له هذه الوثبة الفنية أن يصل إلى قمة نضجه في العصر الأموي ، على أيدي الفحول الثلاث : جرير ، والفرزدق ، والأخطل .

لهذا ولغيره ، استعنت الله نهوضاً بهذه الدراسة ، محاولاً - قدر طاقتي - أن أضع هذه القضايا والآراء في إطارها الذي أراه صواباً ، خدمة وإنصافاً لأدب هذا العصر المبارك ، عصر النبوة والراشدين

وهذه الدراسة تهتم أكثر ما تهتم بالقضايا الأساسية الهامة للحياة الأدبية في صدر الإسلام ، متجاوزة ما يتصل بهذه الحياة من تفاصيل أقل شأنًا ، لا يكاد يختلف فيها الباحثون ، أو يجهلها الدارسون .

ويقتضى تناول هذه القضايا بالبحث ، أن أمهد له بمحدث موجز عن الحياة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام ؛ لذا تحدثت عن العرب في جاهليتهم ، وعن المستحدثات التي جدت على البيئة العربية بظهور الإسلام ، ومدى استجابة العرب لها في هذه الفترة .

وأتبع ذلك بمحدث عن القرآن الكريم - دستور الإسلام ، ومعجزته الكبرى - إذ كان أهم المستحدثات الإسلامية حينئذ ؛ لنرى عند دراسة قضايا النثر والشعر ، مدى تأثيرهما بأساليب هذا الكتاب المعجز ، واستجابتهما لما أثاره في عقول الأدباء من فكر مستنير ، أو معنى مستحدث (١) .

وقد توخيت في هذه الدراسة طريق القصد ، في عرض الملامح الأدبية لهذه الفترة ، وسوق نماذجها ؛ إذ كان جل قصدي إمداد المكتبة العربية بصورة متكاملة ميسرة ، لأهم جوانب الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت .

صلاح الهادي

(١) يجد القارئ منهج هذه الدراسة مفصلاً ومثبتاً في نهايتها ، ولم اتحدث عنه إشاراً للاختصار ، ونحبنا للتكرار .

تمهيد

- ١ -

نظرات في الحياة العربية بين الجاهلية والإسلام

(١) العرب في جاهليتهم :

لكي ندرك ما حظيت به حياة العرب في ظل الإسلام ، من تطور خطير ، ونهضة شاملة ، ينبغي أن نتعرف ، أولاً ، ما كان عليه العرب قبل الإسلام في : عقائدهم ، وعباداتهم . ومعارفهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم ، ونظم معيشتهم وحياتهم ؛ إذ بالمقارنة بين حياتهم في الحالين تتضح الفروق بين ما كان عليه العرب في جاهليتهم ، وما صاروا إليه بعد الإسلام ، كما يمكن إدراك الآثار التي نتجت عن ذلك في الحياة الأدبية موضع هذه الدراسة .

كانت البداوة هي السمة الغالبة على العرب ، الذين كانوا يعيشون في إطار جزيرتهم الصحراوية ، لا يكادون يخاطون غيرهم من الأمم المجاورة لها ، أو يرتحلون إلى غيرها ، اللهم إلا أهل الحواضر العربية ، ذات الصلات التجارية ، والحضارية ، والسياسية ، ببعض الأمم المتحضرة ، على أطراف الجزيرة ، وطائفة من شعراء البوادي والقرى ، الذين كانوا « يلмон بعرب الشام ، وعرب العراق ، ويأخذون جوائز ملوكهم وساداتهم ، ويعودون بعد

ذلك إلى قويمهم ، فيحدثونهم بما رأوا وما سمعوا » (١) . أما عامة البدو من العرب ، فقد قامت أسوار الصحراء حاجزاً بينهم وبين تلك الحضارات المجاورة للجزيرة ، نعم ، قد يضطر بعضهم ، حين يقسو العيش في الصحراء ، فتجذب الأرض ، وتشح السماء ، إلى تولية وجوههم صوب أطراف العراق ، أو الشام ، أو فارس ، التماساً للرزق ، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى صحرائهم ، خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية (٢) .

ومعنى ذلك أن الأمة العربية لم تكن في جاهليتها تعيش في عزلة تامة ، لا تعرف معها من أمر الأمم المجاورة شيئاً ، غاية الأمر « أن قلب الجزيرة العربية وشمالها ، لم يخضع لسلطان أمة متحضرة ، وإنما خلى بينهما وبين الحياة الحرة ، يحياها أهلها كما يريدون ، وكما يستطيعون ، فعاشوا عيشتهم تلك الغليظة الجافية ، لم تصل إليهم حضارة تلك الأمم ، وإنما وصلت إليهم أطراف منها ، فهموا بعضها ، وقصروا عن فهم بعضها الآخر ، فسيطرت عليهم جاهليتهم بكل ما فيها » (٣) من خير وشر ، محمود ومرذول .

وقد شكلت هذه البداوة حياة العرب الروحية والחסية ، فلم تهيب لهم من دواعي الفكر ما يحملهم على تبهر في علم ، أو تبصر في دين ؛ ومن ثم ضلوا الطريق إلى حياة روحية سليمة ، تهديهم إلى معرفة الخالق جل وعلا ، وتقربهم منه ، فتشعبت بهم السبل ، ولم يجمعهم دين ، أو انتظمتهم عقيدة واحدة .

(١) مرآة الإسلام : طه حسين ص ١١ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م) .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ٢١٥/١ (طبعة دار الهلال - القاهرة

١٩٣٦ م) .

(٣) مرآة الإسلام : طه حسين (١١ - ١٢) .

كان أكثر العرب الجاهليين مشركاً ، يعبد الأصنام والأوثان ، دون أن يشغل عقله بالالتفات إلى ما في ذلك من سخف وضلال ، فقد ينحت بعضهم الصنم بيديه ثم ينقلب فيعبده ، دون نفع يرجى ، أو ضرر يخشى (١) ، أو يقدس شجرة ، ثم لا يتخرج من الانتفاع بثمارها وغصونها ، إن احتاج إلى ذلك .

ومع تقدس العرب الوثنيين لآلهتهم من الأحجار والأشجار والينابيع وغيرها ، فإن كثيراً منهم لم يخلصوا لها العبادة ، ولم يتخذوها آلهة عن اقتناع وتدبر ، أو اعتقاد بأنها خالقة قادرة مدبرة ، وإنما هي - في وجدانهم - رموز مقدسة لإله أقدس ، فلم يكن شركهم إشراكاً خالصاً يسوى بين الله وهذه الآلهة في الاعتقاد والعبادة ، يشهد بذلك القرآن الكريم ، وهو يحكى عنهم حاجتهم في عبادة الأصنام والأوثان ، ويرد عليها ويدحضها ، فهم يقولون : إنها وسائط وشفاعات تقرّبهم إلى الله زلفى (٢) ، مع اعتقادهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ورب العرش العظيم (٣) وخالقهم (٤) ورازقهم ، ومدبر الأمر كله (٥) .

فإذا ما أخرجهم القرآن في حاجته إياهم - ، تبين أن ما حجب عقولهم عن تدبر ما هم عليه من اعتقاد فاسد في هذه الآلهة ، إنما هو الجُمُود على التقاليد ، وما وجدوا عليه الآباء ، إذا قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

(١) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى : السباعى بيومى ص ٧ (الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٥ م) .

(٢) انظر سورة الزمر ٣٩/٣ ، وأيضاً بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب الألويسى ٩٧/٢ (الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٤٢ هـ) .

(٣) انظر سورة لقمان : ٢٥ وسورة المؤمنين : ٨٦

(٤) سورة الزخرف : ٨٧

(٥) سورة يونس : ٣١

عَلَى أُمَّةٍ * وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿١﴾ ، وقال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّهُمْ
الْقَوَا أِبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (٢) .

فاعتقاد العرب في الأصنام والأوثان كان غير مبرر من الشرك بالله ؛ لما
نسبوا إلى هذه الآلهة من قدرة على الشفاعة ، وقرى إلى الإله الأعظم ،
قادتهم كثيرا إلى الاعتقاد بأنها مؤثرة فيما يصيبهم من خير أو شر ؛ ومن ثم
عبدوها فأشركوا في عبادة الله غيره .

وربما كان هذا هو ما قصد إليه صاعد الأندلسي في قوله (٣) :
« وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة الله تعالى ، وإنما كانت عبادتهم
ضرباً من التدين بدين الصابئة ، في تعظيم الكواكب والأصنام ، الممثلة بها
في الهياكل ، لا على ما يعتقد الجاهل بديانات الأمم ، وآراء الفرق ، من أن
عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم ، ولم يعتقد قط هذا
الرأى صاحب فكرة ... » .

ومع هذا فنحن لا نرى رأى صاعد في أن العرب الوثنيين ، كانوا أمة
موحدة تماما ؛ إذ شاب توحيدهم ضرب من الإشراك أشرنا إليه ، ونعاه
القرآن عليهم في كثير من آياته من ذلك قوله تعالى (٤) : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *
ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * أَنْظِرْ
كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ، فقد

(١) سورة الزخرف : ٢٢

(٢) سورة الصافات : ٦٩ - ٧٠

(٣) طبقات الأمم : صاعد الأندلسي ص ٢٤ (طبعة الكاثوليكية - بيروت

١٩١٢ م) .

(٤) سورة الأنعام : ٢٢ - ٢٤

أخبر الله تعالى أنهم أشركوا ، وسنامهم المشركين ، ودمغهم بالكذب يوم القيامة ؛ لأنهم شهدوا على أنفسهم في الدنيا بالشرك ، فيما حكاه عنهم القرآن ، في قوله تعالى (١) : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ ، وصدق الله العظيم (٢) : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

وفي أشعار الجاهليين ما يدل على أنهم أشركوا ، فعبدوا مع الله أصنامهم وأوثانهم ، يقول أوس بن حجر (٣) :
وباللآت والعزى ومن دأن دينها وبالله إن الله منهم أكبر
فهو يعتقد بالله الذي هو أكبر من كل معبوداتهم وأقدس .

وربما كانت مكة أكثر البيعات العربية اهتماماً بالوثنية ، وترسيخاً لديانتها ، وتمسكا بطقوسها ؛ لأنها قلعة هذه الديانة ، وجميع أصنام العرب ، « بينما نجد أن المناطق الأخرى أقل حماسة لعبادة الأوثان ، وبخاصة البادية ، التي تنظر إلى هذه العبادة نظرة غير جادة ، فكثيرا ما يثور الأعرابي على صنمه ، حينما تتضارب أهواء العابد والمعبود » (٤) :

وقد سقطت إلينا بعض الروايات التي تشهد بضعف اعتقادهم - أو اعتقاد بعضهم على الأقل - في هذه الآلهة :

(١) سورة الأنعام : ١٤٨

(٢) سورة يوسف : ١٠٦

(٣) ديوانه ٢٦ (بتحقيق يوسف نجم - بيروت ١٩٦٠ م) ، والأصنام ١٧

(٤) الجاهلية : مقدمة في الحياة العربية : يحيى الجبورى ١٠٨ (مطبعة المعارف ببغداد

١٩٦٨ م) .

وأیضا :

يحدث أبو الفرج الأصفهاني : أن امرأ القيس بن حجر الشاعر الجاهلي لما خرج يطلب الثأر من قتلة أبيه ، عرج على صنم للعرب تعظمه ، يقال له « ذو الخليفة » فاستقسم عنده بالأزلام ، فإذا بسهم النهر يخرج له ثلاث مرات ، فما كان منه إلا أن جمع السهام وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم ، وسبه ، وسخر منه ، وقال : « لو أبوك قتل ما عقتني » (١) ، ثم خرج لطلب الثأر وهو يقول :

لو كنت ياذا الخلف الموثورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العدة زورا

وربما اهتدى بعضهم بشيء من التأمل إلى فساد أمر آلهتهم تلك ؛ من ذلك ما روى من أن غاوى بن عبد العزى ، مر بصنم مشهور يسمى (سواع) فرأى ثعلبين يأكلان بين يديه مما يهدى إليه ثم يعتليانه فيولان فوق رأسه ، فأثار ذلك في نفسه كوامن الشك في هذه الآلهة ، التي لا تحمي حماها ، ولا تدفع الأذى عن نفسها ، وعبر عن رفضه لها ، وسخريته بها في قوله : (٢)

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعالب
ويرفض زيد بن عمرو بن نفيل عبادة الأصنام ، ويرى في عبادتها

(١) الأغاني ٦٨/٨ (طبعة الساسي) ، والأصنام : ابن الكلبي ٣٥ ، ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية - الطبعة الثانية ١٩٢٤ م) ، والسيرة لابن هشام قسم ٨٦/١ (الطبعة الثانية - الحلبي ١٩٥٥ م) وقد نسب ابن هشام هذا الرجز لرجل من العرب ، ثم قال : « ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندي » ، وانظر : ديوان امرئ القيس - ملحقات الديوان ٤٦٠ (بتحقيق أبي الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م) .
(٢) انظر تفصيل الرواية في : شرح شواهد المغنى : السيوطي ١٠٩ (طبعة ١٣٢٢ هـ) ، وقد وفد غاوى بن عبد العزى على رسول الله وأسلم فسماه الرسول : راشد ابن عبد ربه .

تحقيقاً للعقل ، وطفولة في الفكر ، فيقول (١) :

تركتُ اللات والعزى جميعاً كذلك يفعلُ الجُلْدُ الصَّبُور
فلا العزى أدينُ ولا ابتيتها ولا صتمتُ بني غنمِ أزور
ولا هُبلاً أزورُ وكان ربّاً لنا في الدهر إذ جِلْمى صغير

وأقبل أعرابى على صنم بساحل جدة يقال له (سعد) ومعه إبل له ؛
ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت ، خوفاً مما عليه من
دماء القرابين ، وذهبت في كل وجه ، فتناول الأعرابى حجراً ورمى به
الصنم ، وقال : « لا بارك الله فيك إلهاً !! أنفرت على إبلى » ثم جد في
طلبها حتى جمعها ، وانصرف وهو يقول (٢) :

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتنا سعدٌ فلا نحن من سعد
وما سعدٌ إلا صخرة في تنوفة من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

وها هو ذا سادن من سدنة الأصنام ، يدعى ، خزاعى بن عبد نهم
المزنى ، طالت صحبته لصنم مزينة (تُهم) فأدرك ما في عبادته من
سخف ، وضعف عقل فأنكرها ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ لما علم به
فأسلم ، وهو يحكى هذه الصحوه العقلية في قوله (٣) :

ذهبتُ إلى تُهمٍ لأذبح عنده عتيرة تُسَلِّك كالأذى كنتُ أفعلُ
فقلْتُ لنفسي حين راجعتُ عقلها أهذا إله !! أيُكم ليس يَعْقِلُ
أبُيتُ فدينى اليومَ دينُ محمدٍ إله السماء الماجد المتفضل

فهذه الروايات وأمثالها تدل دلالة قاطعة ، على أن من العرب من تنبه
إلى فساد الاعتقاد بالأصنام والأوثان ، وعبر عن هذا التنبه علانية ، فكان

(١) الأصنام ٢١ ، ٢٢ ، وانظر السيرة لابن هشام ق ٢٢٤/١

(٢) الأصنام ٣٧ والسيرة لابن هشام ق ٨١/١

(٣) الأصنام ٣٩ ، ٤٠

هذا من بشائر الصحة-العقلية التي مهدت لرسالة السماء في الجزيرة العربية .

ومن العرب قلة عبدت الكواكب والنجوم ، وهم الصابئة ، أو قدست النار ، واتخذت لها المعابد ، وهم المجوس ، أو خلعوا الاعتقاد في الأديان جميعاً وقالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (١) وهم الدهريون ، ومنهم غير هؤلاء وأولئك (٢) ، وكلهم متخبط في ظلام الجهل ، بعيد عن الحياة الروحية السامية .

وإلى جانب هذه الحياة الدينية المختلة الفاسدة ، عاش كثير من عرب الجاهلية أسرى لبعض الأوهام والخرافات ، يؤمنون بالعرافة والكهانة ، ويعتقدون في زجر الطير والحيوان ، وما إلى ذلك من سخييف المعتقدات ، كتعليق الأقدار ، وعظام الموتى على الرجل إذا خيف عليه الجنون (٣) ، وكى البعير السليم ليبراً الأجرب ، وحبس البلايا على قبور موتاهم ، والإيمان بالصدى والهامة ، وغير ذلك مما ران على قلوبهم ، وشاب عقولهم ، وغشى أبصارهم ، اللهم إلا طائفة منهم ممن عاشوا في الحضر ، وأتيحت لهم فرصة الاتصال ببعض أهل الكتاب من أحبار اليهود ، وكهنة النصارى ، الذين كانوا يشيعون أخبار النبوة والأنبياء ، ويثبون أفكاراً دينية عن الله والعالم الآخر ، فسرت بينهم يقظة روحية ، عمرت قلوبهم ، وأضاءت نفوسهم ،

(١) سورة الجاثية : ٢٤

(٢) انظر في مختلف هذه الديانات : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : أحمد الحوفي ٣٧٧ - ٣٨٨ (الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٢ م) ومروج الذهب : المسعودي ١٢٠/٣ (طبعة محيي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٨ م) ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ٢٨٤/٦ وما بعدها (المجمع العلمي العراقي - بغداد بلا تاريخ) .
(٣) فجر الإسلام : أحمد أمين ٤٦/١ (الطبعة الثانية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٣ م) .

وفتحت أذهانهم لتلقى خبر السماء ، وتشوفوا لما وقر في إحساسهم من قرب رسالتها ، فكان ذلك إرهاباً بيزوغ فجر الإسلام على جزيرة العرب ، ثم شروق شمس على العالم أجمع .

يقولون : إن الإنسان رسم تصنعه البيئة على صورتها ^(١) ، وهذا القول يصدق أكثر ما يصدق على العرب في بيئتهم الصحراوية القاسية ؛ حيث تتمثل الفطرة التي لم تعبث بها يد الصنعة ، ولم تتناولها عوامل التهذيب والتغيير والتبديل ، وقد انعكست هذه الطبيعة على حياة العربى في الجاهلية ، فشكلته على غرارها ، وتأثر بها في خلقه ، وعاداته ، ونظام حياته ، وأحوال معيشتة .

لقد اقتضته معيشتة في بيئة يغلب عليها الجذب ، أن يكافح في سبيل الحصول على ما يحفظ عليه وعلى دوابه الحياة ، فهو في رحلة دائمة ، يقيم ما وجد العشب والماء ، وينزح ما افتقدهما ، وكثيراً ما يضطر إلى الدفاع عما يصيبه من ماء ومرعى ضد من تحدته نفسه بالتزاعهما منه ، بل كثيراً ما يكون العدوان وسيلته الوحيدة للحصول عليهما ، فهو بين مغر ومغار عليه ؛ ومن ثم كان لابد له من الاحتواء بقبيلته لتنصره ظالماً أو مظلوماً ، ومن هنا أيضاً كانت العصبية القبلية والقوة هما شريعة هذا العربى ، ولم يشذ عن ذلك قبيل من العرب ، حتى من اتخذوا المدن والقرى مستقراً لهم ومقاماً . ومن أجل هذا كثرت الحروب بينهم ، وتخطفتهم سيوف الثأر ، والحمية والسلب ، والنهب ، فأفنى كثيرهم قليلهم ، وأكل قويهم ضعيفهم ، مما جعل حياتهم سلسلة من المعارك التي تنوعت أسبابها ، وكثرت أيامها ، بحيث يمكن القول بأن العلاقة بين قبائلهم توشك أن تكون دموية الطابع في أغلب الأحيان .

(١) أطوار الثقافة والفكر ٣١/١

كما أورثتهم هذه الحياة بعض الخصال التي هذبها الإسلام - فيما بعد - وجعل منها مثلاً أخلاقية علياً للإنسان المسلم ، فقد دفعهم جذب الأرض وقلة الخصب ، إلى نوع من التعاطف الإنساني ، يتمثل في خصلة الكرم ، كما كان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة سامية ، فهي مفخرتهم في بيئتهم الحربية ، التي تكثر فيها دواعي النزاع ، وقد يذهب العربي في شجاعته إلى حد التهور ، فلا يأبه للمخاطرة بل يقتحمها ، لا يتردد ولا يتلوم ، فما هو إلا أن ينفع متوهماً أن كرامته قد مست ، أو عرضه قد أهين ، حتى يسرع إلى سيفه ، محتكماً إليه دون تفكير أو روية ، أو تدبر في عواقب الأمور .

هذا إلى جانب ما عرف به العربي من المروءة والنجدة ، والوفاء بالعهد ، وعزة النفس ، وإباء الضيم ، والغيرة على العرض ، والعفة .. وغيرها من الخلال التي طالما تغنى بها شعراؤهم ^(١) ، وأقرهم الإسلام عليها ، وحشهم على التمسك بها ؛ إذ لا يغيب عنا أن الإسلام ، وإن كان قد جب رذائل الجاهلية ، ونفر منها ، فإنه أقر فضائلها ، وبارك بعض عاداتها ، التي توافق شريعته وتلائمها .

ومع ذلك ، فقد شوه جمال هذه الصورة الأخلاقية ، بعض الخصال الذميمة ، التي لم تخل منها البيئة العربية الجاهلية ، كشرب الخمر ، ولعب الميسر ، وأكل الربا ، والنهب والسلب ، والظلم ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، والخيلاء والغرور ، والكذب وقول الزور ، وجفاء الطبع ، وغلظة القلب ، وغيرها من الخصال التي نعاها القرآن عليهم ، وطالبهم بالبراءة منها .

(١) للاستزادة من أثر البيئة في أخلاق العرب ، وعاداتهم ، ومعشيتهم انظر : كتاب المؤلف : الشماخ بن ضرار الديباني - حياته وشعره ص ٢٧ وما بعدها (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م) .

على أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن الأمة العربية في جاهليتها بعامة ، لم تكن على تلك الصورة التي ألصقها بها كثير من الباحثين - من عرب ومستشرقين - والتي تظهرها للناس أمة جهل وعمى ، قد عزلت تماماً عن العالم ^(١) ، وعاشت غارقة في بحر من البداوة ، والفوضى والتوحش ، حتى قال بعض المستشرقين ^(٢) : « إن العصر الجاهلي عصر ظلام خالك » .

ويقيننا أن من نهج هذا المنهج في تصوير الحياة العربية الجاهلية ، قد تحامل عليها تحاملاً غير قليل ، إما عن سوء فهم ، أو سوء قصد ، فالأمة العربية في جاهليتها ككل الأمم والشعوب التي مرت بهذا الطور من الحضارة البدوية ، لها فضائلها ورذائلها ، كما أن لها نصيبها من الحضارة التي تناسب طور حياتها ، والمعرفة التي تتطلبها هذه الحياة ^(٣) .

وحسبنا أن نعلم أن هذا الحظ من الحضارة والمعرفة ، والمثل الأخلاقية ، قد أهلها لتقبل رسالة السماء حين أظلتها ^(٤) ، ووثبت بها - في مدة وجيزة - وعلى هديها إلى نهضة عظيمة ، ارتقت بها في سلم الحضارة درجات ، وغذتها بألوان وفنون من العلم والثقافة والآداب .

(١) انظر في صلات العرب الجاهليين بالحضارات المجاورة كتاب المؤلف : أمراء الشعر في العصر الجاهلي (الفصل الأول) مطبعة قاصد خير - القاهرة ١٩٧٥ م ، وأيضاً : الجاهلية : يحيى الجبورى ٩٢ وما بعدها ، و امرأة الإسلام : طه حسين ١٠ وما بعدها ، وفي اتصال مكة - خاصة - بهذه الحضارات ، انظر : مكة والمدينة أحمد إبراهيم الشريف ١٥١ - ١٦٤ (الطبعة الثانية - دار الفكر العربى ١٩٦٥ م) .

(٢) حضارة العرب : جوستاف لويون ٩٧ (طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٢٥ م) .

(٣) انظر في ألوان هذه المعرفة الجاهلية : يحيى الجبورى ٧٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى في صدر الإسلام : السباعى يرمى ٦٢ - ٦٦ ، وأطوار الثقافة والفكر ٩/١ وما بعدها ، وتاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ١٩٩/٢ وما بعدها .

(٤) انظر في تهيؤ البيئة العربية للنهضة الإسلامية : مكة والمدينة ٢٣٦ وما بعدها .

(ب) الإسلام والحياة العربية :

كان ظهور الإسلام أضخم حدث حول التاريخ العربى عن مجراه ، فلا عجب إذن أن يكون له أبلغ أثر فى حياة العرب ، ولم لا ؟! وهو الذى غير معالم الحياة ، وبذل المفاهيم والأنظمة ، وارتفع بالنفسية العربية إلى مناخ من التفكير لم تألفه من قبل .

نعم ، إن الإسلام خلق العرب خلقاً يكاد يكون جديداً ، وجعل منهم أمة بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ؛ فقد هيأها للنهوض بالمهمة الكبرى ، التى تتجاوز حدود جزيرتها ، ولتحول وجهة التاريخ ، وتغير وجه الأرض فى أقل من نصف قرن ، بعد أن نفذ إلى قلوبها ، واستأثر بضمائرها ، وفتح آفاقاً كانت مغلقة أمامها ، وحررها بعد الرق ، رق النفوس للشهوات ، وطهرها بعد الرجس ، رجس الخطايا والآثام ، ووحدها بعد الفرقة ، وملاً قلوبها نوراً ، فانبت أبنائها فى الأرض ينشرون نور الله ، ما وجدوا إلى نشره سبيلاً .

كانت تعاليم الإسلام ومبادئه وأهدافه ومثله ، تمثل ثورة على الحياة العربية الجاهلية بعامة ، ثورة فى العقيدة والفكر ، والسياسة ، والمثل ، وأحوال الاجتماع المختلفة .

فمن حيث العقيدة والفكر : شدد الإسلام النكير على العقائد الوثنية المادية ، وغيرها من العقائد ، ودعا إلى عبادة روحية سامية ، تتضمن فروضاً عقدية ، وأخرى عملية .

وأول الفروض العقدية وأقدسها معرفة المعبود الحق ، فلفت عقول العرب إلى أن هذا المعبود هو إله كل شىء ، رب العالمين ، لا إله قبيلة بذاتها ، أو أمة بعينها ، وفتح عيونهم على عبادة إله واحد لا شريك له ،

خالق مبدع ، كل ما فى الكون من صنعته ، عالم ، لا يخفى عليه أمر ،
أو يند عن علمه شيء ، قوى عزيز ، وسعت قدرته ورحمته كل شيء ، ربه
ورب آبائهم الأولين .

كما نبه الأذهان إلى حياة أخرى ، وراء هذه الحياة الدنيا ، يومها هو
يوم القيامة ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، فيه يحاسب المرء على ما قدمت
يداه ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُ ﴾ (١) ، وبذلك ربط مصير الإنسان فى حياته الأخرى الباقية ، بأعماله
على الأرض فى حياته القصيرة الفانية .

كما لفت الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض ، وحث على النظر
فيه ، وتدبر لطيف صنعته ، والاستدلال بالخلق على خالقه (٢) ، محارباً
بذلك ما كان فاشياً فى المجتمع الجاهلى من خرافات وأوهام ، داعياً إلى
أعمال الفكر المنطقى الخالص ، والتأمل العقلى الصرف ، محرّكا العقول
بالمعرفة ، وموجهاً الأذهان إلى النظر والفهم والتدبر .

وقد شفع الإسلام هذه الفروض العقدية ، بفروض عملية أساسية ،
تنظم علاقة المسلم بربه ، كما تعمل على تنمية الإحساس بالمسئولية
الاجتماعية ، والتضامن الاجتماعى فى نفسه ، نحو إخوانه ومجتمعه ، من
صلاة ، وزكاة ، وصوم ، وحج ، وأوضح أن هذه الفروض لا تقبل من

(١) سورة الزلزلة : ٧ - ٨

(٢) فى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على النظر والتدبر ، وتعلّى من شأن التفكير
والعقل ، وتتخذ من ذلك كله منهجاً عقلياً علمياً للاستدلال على وجود الخالق ، سبحانه
وتعالى . وعلى وحدانيته وقدرته ، ولأستاذى الدكتور أحمد الحوفى بحث قيم يكشف عن
موقف القرآن من العقل والفكر ، ومدى اعتماده عليهما فى الاستدلال والإقناع ، تحت
عنوان : القرآن والتفكير (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٥ م)
فليراجع للاستزادة ص ٣٨ وما بعدها .

المسلم إلا إذا حسنت نيته ، وصدق إيمانه حين يؤديها ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء ما نوى - كما روى عن الرسول - أى أن إخلاص النية لله فيما يؤدي الإنسان من الفرائض ، وما يأتى من أعمال الخير والبر ، شرط لصحة ما يأتى وما يدع ، وقبول ذلك عند الله عز وجل .

ومن حيث التربية الأخلاقية : جرم الفواحش والآثام ، ما ظهر منها وما بطن ، كالزنا ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، والربا ، والسرقة ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، والبغضاء والحسد ، وغيرها .

ولم تعد الشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرم إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام ، والأخذ بالثأر من المعتدى ، ونجدة المستغيث - ولو كان معتدياً - قضاء لحق القرابة والدم ، لم يعد ذلك أصل الفضائل فى الحياة العربية الجديدة ، بل أصبح المثل الأعلى للإنسان المسلم ، هو الخضوع لله والانقياد لأمره ، والصبر على قضائه ، وإخضاع منافع الشخص ، ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة ، وعدم التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالولد ، وتجنب الكبر والعظمة ، والتزام العدل والأمانة والإحسان (١) .

وهكذا لقن الإسلام العرب الآداب العامة ، وعلمهم مناهج السلوك واللباقة عند التحية ، واللقاء ، والزيارة ، والحديث ، ودأب القرآن الكريم على دعوتهم إلى البر بالفقراء والمساكين ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والوفاء ، وكل ما هو خير .

وبرد الخلق العربى إلى هذه الفطرة الخيرة ، كان لا بد أن يفعل هذا الخلق بالهدى الإسلامى ؛ ومن ثم انقلبت شريعة الظلم والعدوان ، وتسلط

الأهواء والشهوات دستوراً لمعطيات الدين الجديد ، وما يوحى به من تسامح ومسائلة وعفة ، ورعاية لحقوق الإنسان ، « فعلى بقايا العرف الجاهلى البدائى المسلك ارتقت مثل وقيم سامية » (١) .

أما من الناحية السياسية : فقد جد الإسلام فى القضاء على الأسس التى قامت عليها الوحدة القبلية ، وأهمها العصبية القبلية القائمة على صلات الدم والنسب ، والتعصب لهما ، والتفاخر بهما ، وعمل جاهداً على صهر العرب فى بوتقته ؛ ليجمع بينهم على اختلاف أنسابهم ومواطنهم - فى وحدة إسلامية ، سياسية ، قوامها : الاتفاق فى العقيدة ، ونظام الحكم ، والآداب ، يدينون فى ظلها بالطاعة لولى الأمر فى الإسلام ، لا لرؤساء القبائل وسادتها ، وينصاعون لحكم الإسلام ، لا لعرف القبيلة ، وتقاليدها الموروثة ، ويعتاضون عن الولاء للقبيلة ، والتفانى فى خدمتها ، بالولاء للإسلام ، والتفانى فى خدمته ، ونشر تعاليمه فى ربوع الأرض ، ويلتمسون الأمن والحماية فى ظل الإسلام لا بالالتجاء إلى القبيلة ، والاعتماد على نصرتها ، كما يعتاضون عن الأخوة فى الدم بالأخوة فى الإسلام ، ويقبلون عن مستهجن العادات والأخلاق ؛ ليتحلوا بما سنه الإسلام من مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، ورفيع المثل ، من التعاون على الخير ، والتعاطف ، والتراحم ، وأخذ القوى بيد الضعيف ، حتى يحل التآزر والتآلف ، محل الخصام والنزاع والشقاق .

وفى المجال الاجتماعى : حرص الإسلام على تأسيس مجتمع واضح الأعراف والمفاهيم ، فى كل ما يتعلق بالحقوق والواجبات ، والروابط الإنسانية ، وسائر الأحوال الشخصية ، ويكفى أن نضرب مثلاً ببعض

(١) صدر الإسلام : جورج غريب ١٣

ما أحدثه الإسلام في الحياة الاجتماعية من تأثير ، بموقفه من المرأة ، فقد أعلى من شأنها وأكرمها - أمة وحرّة - حيث أوجب العناية بها ، والعطف عليها ، فحرم أن تعضل ، أو تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها ، كما كفّل لها حقوقها ، وحفظ كرامتها وافرّة ، بتحريم أنواع قبيحة من الزواج ، كانت معروفة في المجتمع الجاهلي . كنكاح المقت (١) ، ونكاح الشغار (٢) ، والجمع بين الأختين - وكان العرب يكرهون ذلك ، وينهون عنه ، كما يذكر الشهرستاني (٣) - وفرض الإسلام للمرأة نصيباً من الميراث ، إلى غير ذلك ، مما جاء به الإسلام تعزيزاً لمكانة المرأة ، واحتفاءً بها .

كما نشير إلى ما سنّ الإسلام من قوانين العدل الاجتماعي ، التي جعلت من المسلمين جميعاً ، على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم ، إخوة متساوين ، لا يفضل بعضهم بعضاً بأية ميزة ، من جنس ، أو نسب ، أو ثراء ، أو نحوها مما تعارف عليه العرب في الجاهلية ، وإنما يكون التفاضل بمدى الاجتهاد في الطاعة لله وتقواه ، كما فرضت عليهم هذه القوانين أفضل نهج للتضامن الاجتماعي ، الذي يشيع بينهم المودة والرحمة ، ويستل من قلوبهم البغضاء والحقد .

وهنا يقفز إلى أذهاننا السؤال التالي :

هل استطاع الإسلام أن يحدث هذا التحول الخطير في حياة العرب ، خلال تلك الفترة (صدر الإسلام) التي نتحدث عنها ؟ أو بعبارة أخرى ،

(١) هو أن يخلف على المرأة أكبر أبناء زوجها المتوفى . انظر الأغاني ٩/١

(٢) هو : أن ينكح الرجل وليته رجلاً ، وينكح هو ولية ذلك الرجل بلا مهر ، انظر نهاية الأرب في فنون الأدب ، النويري ٢٤٥/٢ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م) .

(٣) انظر الملل والنحل ٣١٧/٣ (المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠ هـ) .

هل استطاعت تعاليمه أن تمحو تعاليم الجاهلية ونزعاتها ، بمجرد دخول العرب في الإسلام ؟

الحق أن هذا التحول لم يكن يسيراً أو هيناً ، فلقد لقي الرسول وخلفاؤه الراشدون عنتاً شديداً في سبيله - سواء من ممثلي الزعامة الدينية الوثنية في مكة ، أو من تيار العصبية القبلية بتقاليدها الموروثة في البادية - وبذل الرسول وبذل خلفاؤه جهوداً مضنية ؛ ليجعلوا من هذا التحول المنشود حقيقة واقعة ، تنتظم العرب جميعاً ، يعرف هذا كل من قرأ في كتب السير والتاريخ ، التي تهتم بهذه الفترة من تاريخ الإسلام ، وبخاصة تاريخ غزوات الرسول ، وحروب الردة في عهد أبي بكر ، والفتنة الكبرى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان .

وإذن ، فلا يمكننا القول بحدوث هذا التحول طفرة ، أو في فترة قصيرة ، بل لا نستطيع أن ندعى أن الاستجابة لتعاليم الإسلام وآدابه ومثله كانت شاملة العرب جميعاً ، بدوهم وحضرهم ، في هذه الفترة ، فإن ذلك أمر يأباه واقع التاريخ الإسلامي في هذا العصر ، كما تأباه سنة التطور « فالنزاع بين القديم والجديد ، والدين الموروث والحديث ، يستمر طويلاً ، ويحل الجديد محل القديم تدريجياً ، وقل أن يتلاشى بتاتاً ، وهذا ما كان بين الجاهلية والإسلام » (١) .

ومع أن الإسلام لم يصبغ العرب - كل العرب - بصبغة واحدة - في هذه الفترة - إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن خير من تأثر به ، وأخلص لمبادئه وتعاليمه ، واستجاب لآدابه ومثله ، هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ومن رزقهم الله نعمة سبق إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة ،

وخير مثال نضربه لتأثير الإسلام في نفوس هؤلاء الأوثال ، قول جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي ملك الحبشة ، حين هاجر إليها مع من هاجر من المسلمين : « أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان .. » (١) .

هؤلاء نفر هم الذين وصل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له ، وأنفذوا أوامره ... وامتألت قلوبهم بالإيمان ، وتمثلوا أمام عيونهم الحياة الآخرة وما فيها ، فراقبوا الله في كل تصرفاتهم ، ما جل منها وما هان ، رجاء ثواب الله ، وخشية عقابه .

أما أكثرية بدو العرب ، فقد كان سكان المدن والقرى ، بل من دخل في الإسلام بعد ، من الأمم الأخرى ، أكثر تدينا ، وأعرف بأحكام الإسلام منهم ، على الرغم من أن الرسول ﷺ وخلفاءه أقاموا بينهم من يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، وما شرع الإسلام من حلال وحرام ، وحقوق وواجبات ؛ ذلك لما عرف به البدو من الجفاء والقسوة ، وغلظ

القلوب والمشاعر ، فكانوا أشد جحوداً لتوحيد الله ، وأشد نفاقاً من أهل الحضر ، وقد نعتهم القرآن الكريم بذلك فقال : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ (١) .

وإذن ؛ فقد ظل كثير من بدو العرب في صدر الإسلام ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، يعكفون على الشراب ، ويتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، يعقدون ألويتهم ، ويحاربون القبائل المعادية لهم في الإسلام ، كما كانوا يفعلون قبله (٢) ، كما ظلوا على ما كانوا عليه من التفاخر بالأنساب ، والمهاجاة ، والحمية ... وغير ذلك من النزعات الجاهلية .

بيد أنه كان هناك إلى جانب هؤلاء الأعراب الذين اشتد جفاؤهم ، وتنجرت مداركهم ، فلم يتأثروا بالإسلام ، جماعات من البدو ، استجابت لقلوبهم للإسلام ، أنار الله بصيرتهم بهديه ، ولأن قلوبهم للحق ، فنبذوا العصبية القبلية ، والعادات الجاهلية ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ (٣) .

وهناك أخبار كثيرة مبثوثة في كتب التاريخ والأدب ، تشهد بما بلغه الإسلام من التأثير في بعض البدو في عصر صدر الإسلام .

من ذلك أن الخنساء الشاعرة (٤) (تماضر بنت عمرو بن الشريد

(١) سورة التوبة : ٩٧

(٢) فجر الإسلام : ٩٩/١

(٣) سورة التوبة : ٩٩

(٤) ترجمتها وخبرها في : الأغاني (سامي) ١٢٩/١٣ وما بعدها .

السلمى) قضت حياتها فى الجاهلية باكية أخاها صخراً فلما أسلمت وجاءها خبر مقتل بنىها الأربعة ، فى موقعة القادسية ، فى خلافة عمر ، سجدت لله شكراً ، لأنه شرفها بقتلهم (١) .

وخبر لبيد بن ربيعة الشاعر ، وما قيل من انصرافه عن قول الشعر فى الإسلام ، واستعاضته عنه بقراءة القرآن مروى ومشهور ، قيل (٢) : كتب عمر إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة ، أن استنشد من قبلك من شعراء مصرى ما قالوا فى الإسلام ، فأرسل إلى الأغلب العجلي الراجز ، فقال له : أنشدنى ، فقال :

أَرْجَزاً تُرِيدُ أَمْ قَصِيداً لَقَدْ طَلَبْتَ هَيْئاً مَوْجُوداً

ثم أرسل إلى لبيد ، وقال : أنشدنى ، فقال : إن شئت ما عفى عنه (يعنى الجاهلية) فقال ، لا ، أنشدنى ما قلت فى الإسلام ، فانطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة (٣) : ثم أتى بها ، وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر ، فأمره عمر أن يزيد فى عطية لبيد .

ولعل مما يساق للتدليل على أثر الإسلام فى قلوب بعض البدو ، ما جاء فى خبر القادسية ، من أن (يزيدجرد) ملك الفرس تكلم أمام وفد من المسلمين ، فوصف حالة العرب فى الجاهلية ، وما كانوا عليه من شقاء وتنافر وضعف ، فكان ممن رد عليه « المغيرة بن زرار بن النباش الأسيدى »

(١) المرجع السابق ، وانظر تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : السباعى بيومى ١١
 (٢) الأغاني ٩٤/١٤ وانظر : الشعر والشعراء (ابن قتيبة) ٤٩ (طبعة ليدن ١٩٠٢ م) .
 (٣) لعل الراوى أراد جزءاً من سورة البقرة ؛ إذ السورة طويلة ، بل هى أطول سورة فى القرآن . وانظر : شعر المخضرمين ، يحيى الجبورى ٢٣٣ هامش رقم ١ (منشورات دار النهضة - بغداد ١٩٦٤ م) .

وجاء في رده قوله : « أما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل ، فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية ، كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ... كان خيرنا في الحال التي كنا فيها ، أصدقنا وأحلمنا ... فلم يقل شيئاً إلا كان ، فخذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا به فهو أمر الله (١) » .

فهذا القول يعبر - لاشك - عن مدى الانفعال بالإسلام عند أمثال هذا البدوى ، الذين خرجوا من الصحراء ؛ ليسهموا في إعلاء كلمة الله .

وجملة القول : أن الإسلام لم يقض - تماماً - في هذه الفترة على النزعات الجاهلية ، وإن استطاع أن يخيفها ، ويشدد النكير عليها ، ويهددها بماله من سلطة ، كانت تتمثل في حكومة مركزية محترمة ، عزيزة الجانب ، مرهوبة ، نافذة الحكم ، وبخاصة في عهد عمر بن الخطاب ، الذي عرف بشدته في الضرب على أيدي المنحرفين عن سنن التعاليم الإسلامية .

وأخيراً ، فقد أشار المغيرة بن زرارة ، في كلامه السابق إلى الحياة المعيشية للغالبية العظمى بين العرب في الجاهلية ، وألمح إلى مبلغ ما كانت عليه من سوء وقسوة ، فهل تحسنت حالة العرب الاقتصادية بدخولهم في الإسلام ؟

(١) تاريخ الطبرى ٩٤/٤ - ٩٥ (المطبعة الحسينية - القاهرة بلا تاريخ) .

يختلف أثر الإسلام في الحياة المعيشية للبدو من العرب خاصة ، بين فريقين منهم :

- فريق لزم دياره ، ولم يخترق الصحراء إلى الأمصار الإسلامية التي غزاها الإسلام في عهد الراشدين ، وهؤلاء ظلوا يتنقلون على صدر الصحراء ، معتمدين في معاشهم على الرعى ، كما كانوا قبل الإسلام ، فلم تتحسن أحوال عيشتهم ، إن لم تكن قد ساءت قليلا ، فقد سد الإسلام في وجوههم مورداً كان من موارد رزقهم في الجاهلية ، وهو السلب والنهب ، عن طريق إغارة بعضهم على بعض ، أو على الأقل ، أصبح هذا المورد محصوراً في أضيق نطاق ؛ خوفاً من سلطان الإسلام ، وغضب ولاة الأمر فيه ، هذا ، بالإضافة إلى ما كلفوا به من دفع الزكاة على أموالهم وأنفسهم .

وفريق آخر أثر الهجرة من موطنه في البادية ، واتخذ من الأمصار دار إقامة هرباً من قسوة حياة البادية ، وأملا في حياة مستقرة ، وعيش رغد ، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - بطون من خزاعة ، رحلت إلى مصر والشام في صدر الإسلام (١) .

ولاشك أن هذا الفريق من البدو ، قد تحسنت حالهم ، بما آل إليهم من الفئ والغنائم ، فقد كانت الأموال تتدفق من البلاد المفتوحة ، والفروض تفرض للغزاة ولغيرهم من أهل السابقة ، ونظرة واحدة فيما أورده الطبرى (٢) وغيره ، من نظام الفروض في عهد عمر ، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين ، وسكان الأمصار من حال ميسرة كافلة ، ولم لا ؟ وقد آلت إليهم كنوز الأكاسرة ، وأقبلت حمول الذهب والفضة والجواهر النفيسة ، والثياب الفاخرة ، من البلاد المفتوحة على الخليفة بالمدينة ، فأخذ يفرقها في المسلمين توسعة عليهم .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ٢١٥/١ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٦٢/٤ .

ولقد بلغ من وفرة هذه الأموال أن قال عمر بن الخطاب في فترة خلافته :
« لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف ، أربعة آلاف ، ألفاً يجعلها الرجل في
أهله ، وألفاً يزودها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يترفق بها » (١) .

أما سكان المدن والقرى العربية ، فلا شك أنهم أصابوا من يسر
العيش ، ما أصابه البدو النازحون إلى الأمصار الإسلامية ، بما أفاء الله عليهم
من أموال هذه الأمصار ، على ما تقدم .

ونحسب أن العرب الذين شقوا صدر الصحراء إلى البلاد المفتوحة ،
قد تأثروا نفسياً وحضارياً بما شاهدوه فيها من طبيعة جديدة عليهم ، فيها
الأنهار والخصب ، والحضارة العريقة ، وفرق بين نفسية عربى لم ير
إلا الصحراء وخياله ، ونفسيته وخياله بعد أن رأى ما لم يسبق له رؤيته أثناء
الفتوح في ممالك الفرس ، ومستعمرات الروم ، فضلاً عما استشعره العرب
من ثقة واعتداد بأنفسهم ، واعتزاز بدينهم ، وهم يرون هذه الممالك العريقة
في الحضارة تتهاوى تحت ضربات سيوفهم ، بعد أن كانوا يسمعون بالرومى
أو الفارسى ، فيعظمون قدره ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى » (٢) .

وكان جديراً بهم - وبخاصة الشعراء منهم - أن ينسوا الصحراء
وإبلها ، ووهادها ، ونجادها ، والبادى وربوعها ، ونيتها ووحشها ؛ إذ « لم
تعد حياتهم حبساً على المطر ، ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ، ذات
النجوم اللامعة ، ولا طلب عيشهم رهناً بالرحلة يشدون أكوارها ، ويعتلون
أقتابها .. » (٣) .

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ٢١٥/١

(٣) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : السباعى بيومى ٦

ولكن يبدو أنهم ظلوا محتفظين بصفات بداوتهم ، ولم تستطع الحياة الجديدة أن تنتزع نفسيتهم وخيالهم من الصحراء التى نشأوا فيها ، ومن ثم لم نلمح كبير أثر لهذه الحياة فى شعر الشعراء منهم ، حتى فن الوصف ، الذى يتأثر فيه الشاعر عادة بمشاهداته ، فقد ظل أكثر وصفهم مرتبطاً بمشاهد الصحراء ، لا يعدوها ، وكأنما تحجرت عيونهم ، وفارقهم خيال الشعراء على إثر خروجهم من البادية .

هذه نظرة عامة ، حاولنا من خلالها أن نلم بمدى ما أحدثه الإسلام من أثر فى حياة العرب العقلية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وإذ كان الأدب فى أى مجتمع إنما هو ضدى لما يدور فيه من أحداث ، وترجمان ما يعتمل فى صدور جماعته وأفراده من أفكار وأحاسيس ، ومرآة تعكس ما يصيب قيمه ، ومثله وأوضاعه ، من تحول وتطور ، فقد كان حتماً أن نتبع ما تقدم بالحديث عن الحياة الأدبية فى صدر الإسلام ؛ لنرى إلى أى مدى استجاب الأدب - شعراً ونثراً - لهذه الحياة الجديدة ، التى أظلت العرب براءة الإسلام .

ولكننا نرى أنه لكى تكون أماننا صورة متكاملة للمؤثرات الجديدة التى استحدثها الإسلام ، وكان لها المقام الأول فيما حظيت به الحياة العربية ، من تبدل وتطور ، يجدر بنا أن نخص القرآن الكريم - كتاب الإسلام ودستوره ومعجزته الكبرى - بحديث موجز ، لما له من أثر هام فعال فى حياة الأدب العربى عبر العصور الإسلامية ، وحتى أيامنا هذه ، بل وسيظل هذا الأثر متجدداً فى اللسان العربى وآدابه إلى ما شاء الله .

* * *

القرآن الكريم معجزة البيان الكبرى

ألحنا فيما سبق إلى جوانب من تأثر العرب بالإسلام ، في حياتهم الروحية والعقلية والحسية ، بيد أن تأثرهم به لم يقف عند هذا الحد ، فقد أمدهم بالقرآن الكريم ، الذى كان له أعظم الأثر في كل جوانب حياتهم ، ومنها الناحية الأدبية ، وهى التى نهتم بها فى هذه الدراسة .

وإذ شاء الله - سبحانه وتعالى - أن تكون معجزة نبيه إلى العرب ، من جنس ما لهم فيه نبوغ واقتدار ، وهو الفصاحة والبلاغة ؛ فقد جاء القرآن على أسلوب بلغ فى نظمه ، وإحكامه ، وتفوقه ، مرتبة لا يسامى فيها ، ولا يدرك عندها ، وهى مرتبة الإعجاز ، فكان أروع مثال لفن القول عند العرب ؛ لما اجتمع فيه من ضروب الأساليب وخصائصها ^(١) ، على نحو جعل العرب يقفون أمام روعة نظمه موقف الإعجاب ، والذهول ، والحيرة .

نعم ، لقد أثار القرآن منذ اللحظات الأولى لنزوله دهشة العرب ؛ لما جاء به من جديد فى أساليب التعبير ، وطرائق النظم والبيان ، جعله يعلق بأفئدتهم وأسماعهم ، ولا يملكون معه إلا التسليم بروعة أثره فى النفوس ، وفى العقول . وإذ أدرك كبار المعاندين منهم قوة هذا الأثر فى أعماقهم ، وخافوا منه على أنفسهم وعلى أتباعهم ، صاحوا قائلين : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ ﴾ ^(٢) ألا يدل هذا القول على هول الذعر الذى كان يضطرب فى نفوسهم ، من تأثير القرآن فيهم وفى أتباعهم ؟

(١) انظر : أثر القرآن فى تطور النقد (محمد زغلول سلام) ٢٦١ (دار المعارف

بمصر ١٩٦١ م) .

(٢) سورة فصلت : ٢٦

والتاريخ يحدثنا أن عقلاء قريش ، وذوى الإنصاف منهم ، كانوا يستمعون للرسول يتلو عليهم القرآن « فيهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه ، ورقته حين يرق ، وشدته حين يشتد ، ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له (أو بعضهم على الأقل) بعضهم يمنعه الحسد ، وبعضهم تمنعه الكبرياء ، وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يُدْعَوْنَ إليه ، من البر والمعروف ، والعدل والمساواة ، وإنصاف الفقراء من الأغنياء ، ومن ترك آلهتهم وعاداتهم ، وكثير من الأخلاق التي وجدوا عليها آباءهم وتوارثتها أجيالهم جيلا بعد جيل » (١) .

ومع ذلك فقد استوى في الانبهار بالقرآن ، والإحساس بسحره في النفوس ، من آمن به من العرب عند سماعه ، ومن لج منهم في عناده ، وظل سادراً في كفره ، أولئك يُسَحَرُونَ به فيؤمنون ، وهؤلاء يسحرون به فيهربون ، وقد تحيروا في تعليل تأثيره فيهم ، « فمن قائل : إنه سحر ، ومن قائل : إنه شعر ، ومن قائل : إنه أساطير الأولين ، أو سجع الكهان » (٢) ، ومنهم من عبر عن إعجابه وحيرته بقوله حين سمع القرآن : « سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة » (٣) .

ولتصوير موقف هؤلاء وأولئك (الكافرين والمؤمنين) من القرآن عند سماعه ، نضرب مثلين لرجلين ، كل منهما يمثل الشخصية القوية في اتجاهه المختلف عن الآخر ، وموقفه المتعارض معه ، بالنسبة للقرآن الكريم ، في مرحلة مبكرة من نزوله : هما : عمر بن الخطاب ، والوليد بن المغيرة . أما عمر ، فتسوقه قدماء ذات ليلة إلى المسجد ، فيرى رسول الله

(١) مرآة الإسلام ٤٣

(٢) المصدر السابق ٣٧

(٣) السيرة لابن هشام ق ٢٩٤/١ ، والقائل هو عتبة بن ربيعة القرشي .

ﷺ ، قائماً يصلى بجوار الكعبة ، فيقول لنفسه : « والله لو أنى استمعت لحمد الليلة ، حتى أسمع ما يقول !! » ثم يدنو من الرسول مستخفياً حتى لا يروعه ، ويسمع ما تلاه فى صلاته من القرآن .

وهنا نترك عمر يخبر بنفسه عن تأثير ما سمع فى قلبه ووجدانه وعقله ، يقول عمر : « فلما سمعت القرآن رقى له قلبى ، فبكيت ، ودخلنى الإسلام (١) » .

وأما الوليد بن المغيرة ، فها هو ذا - على كفره وعناده - يصف أثر القرآن فى نفسه ، بعد أن تلا عليه الرسول بضع آيات منه ، فى قصة نوجزها عن ابن هشام (٢) :

اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش - وكان ذا سن ومكانة فيهم - يسألونه أن يقول فى القرآن قولاً ، يذيعونه بين العرب فى موسم الحج ، ليصدوهم عن دين محمد ، وعن الأستماع إلى ما جاء به ، فيأبى إلا أن يسمع منهم أولاً : « قالوا : نقول : كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعته ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف

(١) السيرة لابن هشام ق ٣٤٧/١ ، وانظر رواية أخرى فى إسلام عمر ، وتعبيره عن تأثره بالقرآن عند سماعه ، فى المرجع نفسه ق ٣٤٣/١ - ٣٤٦

(٢) المرجع السابق ق ٢٧٠/١

أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فنفروا عنه بذلك » .

في هذين الموقفين - على ما بينهما من تعارض في النتيجة - « تلتقى قصة الكفر بقصة الإيمان ، في نتيجة وجدانية واحدة ، هي الإقرار بسحر هذا القرآن !! وتلتقى على الإقرار به شخصيتان قويتان ، بينهما من المدى في الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة ، فتشرح التقوى صدر عمر للإسلام ، وتصد الكبراء الوليد عن الإذعان ، ويذهبان في طريقهما متدبرين ، بعد أن يلتقيا في نقطة واحدة ، نقطة الإقرار بسحر القرآن (١) » .

هذا السحر البياني ، يلتقى به ، ويتعاقب معه سحر آخر ، سحر الحق ، وبهما معاً ، وتأثيرهما معاً ، تخشع قلوب ، وتقشع أبدان ، وتفيض عيون ، وإنها لقلوب وأبدان وعيون لقوم أوتوا العلم ، من قبل أن ينزل القرآن ، وعرفوا من أخبار السماء ما عرفوا ، مما يمكن أن يرمى مشركو العرب بجهله ، وأعنى بهم اليهود والنصارى ، أهل الكتاب .

ويمدنا القرآن بالعديد من المواقف ، التي تعبر عن تأثر قوم من هؤلاء بسحر البيان والحق في القرآن عند سماعه :

من ذلك قوله تعالى : (٢) ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيّسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا

(١) التصوير الفني في القرآن (سيد قطب) ١١ (طبعة بيروت بلا تاريخ) .

(٢) سورة المائدة : ٨٢ - ٨٣

سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ

هذه صورة من صور التأثير الوجداني لسماع القرآن ، (١) تبدو في أعين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق ، وإن للطريقة التي يعرض بها هذا الحق لأثرا - لا شك فيه - يفصح عنه ما ورد في موضع آخر : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۖ ﴾ (٢) .

وكذلك هذه الصورة للذين يخشون ربهم : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۖ ﴾ (٣) ، هكذا « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » و « يخرون للأذقان سجدا » و « يخرون للأذقان ييكون » و « ترى أعينهم تفيض من الدمع ... »

إنه التأثير الذي يلمس الوجدان ، ويرسل الدموع ، ويحرك الأحاسيس والمشاعر ، يسمعه الذين هيا الله قلوبهم للإيمان ، فيسارعون إليه كالمسحورين ، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان ، فيقولون : « إن هذا إلا سحر مبين » ، والجميع يقرون بالإعجاز الغلاب ، من حيث يشعرون ، أو لا يشعرون .

كل هذا مع أن القرآن نزل بلغة العرب ، تلك اللغة التي كانوا

(١) التصوير الفني في القرآن ١٣

(٢) سورة الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩

(٣) سورة الزمر : ٢٣

يصلون بها ويجولون ، في ميادين البلاغة والبيان ، كما أنه لم يخرج عن سنن هذه اللغة ، وقواعد نظمها ، ومع هذا التشابه الظاهري بين لغة القرآن ، ولغة العرب ، بقيت للقرآن ميزة ، جعلته المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وتلك الميزة هي سر إعجازه .

حول إعجاز القرآن :

الحديث عن إعجاز القرآن يكثر ويطول ، وتختلف وجوهه ، كما تختلف فنون القول فيه ، فالقرآن كلام لم تسمع العرب بمثله ، من قبل أن يتلوه الرسول عليهم .

وإذ كان مجال هذه الدراسة لا يتجاوز - في مادته وأهدافه - قضايا التعبير الأدبي وحدها ، فليس من همها - إذن - أن تتعرض لصور الإعجاز القرآني من النواحي الدينية ، وإن كان الجمال الفني في القرآن يتساق مع أغراض الدعوة الدينية فيه ، فيرتفع بها في التقدير والتأثير .

وقد يكون من متعلقات الكلام على وجوه الإعجاز الأدبي في القرآن ، أن نمهد له بالحديث عن قضية الإعجاز القرآني بعامه ، من حيث ثبوت هذا الإعجاز للقرآن ، بتحدى العرب به ، وعجزهم عن محاكاته ، أو الإتيان بشيء من مثله ، ومن حيث تعلق الإعجاز بالقرآن نفسه ، لا بشيء خارج عنه ، ومن حيث الوجوه التي يتعلّق بها هذا الإعجاز ، ومن حيث شمول إعجازه كل ما فيه ، وعدم قصره على ناحية من نواحيه دون غيرها .

ليس من شك في أن القرآن معجز ، فقد ثبت إعجازه حين تحدّى المعاندين من العرب الذين قالوا : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ (١) حيث

(١) سورة الأنفال : ٣١

توهموا أن هذا القول يستر عجزهم وحنقهم ، ويصرف عن القرآن قلوب الناس وعقولهم ، ويهون من شأنه وخطره ، مع أن هذه المقالة مردودة عليهم بهذا السؤال : ولم لم يشاءوا القول ؟ وهذا هو القرآن يدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه بمثله ^(١) ، أو بسورة من مثله ^(٢) ، أو بآيات يسيرة أو سور قليلة تشبه آياته وسوره ^(٣) ، وكلما ازداد تحدياً لهم ، وتقريعاً لعجزهم تكشف من نقصهم ما حاولوا أن يستروه ، بل إن ما حكاها القرآن عنهم من قولهم : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ ليحمل دليل عجزهم ، فلو كانوا على ما وصفوا أنفسهم به من القدرة على محاكاته ، لتجاوزوا مرحلة الادعاء إلى مرحلة الوفاء بما ادعوا ، فلما لم يفعلوا ، علم عجزهم ، وقصور باعهم ، مع أنهم كانوا يعيشون - إذ ذاك - نهضة لغوية شاملة ، وفيهم نوابغ الشعراء ، ومصاقع الخطباء ولهم - كما يقول الجاحظ - القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المنشور .

نعم ، لقد بلغ العرب في ذلك الحين مبلغهم من تهذيب اللغة ، ومن كمال الفطرة ، ومن دقة الحس البياني ، حتى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قُبَيْلاً واحداً ، باجتماعهم على بلاغة الكلمة ، وفصاحة المنطق ^(٤) ، يتنافسون في ذلك كله ، ويتفاخرون به بينهم .

ولما لم يجدوا حيلة ولا حجة ، اتهموا النبي بأنه يعرف من أخبار الأمم

(١) انظر : سورة الإسراء : ٨٨

(٢) انظر سورة يونس : ٣٨ والبقرة : ٢٣

(٣) انظر سورة الطور : ٣٤

(٤) تاريخ آداب العرب : الراجعي ١٦٨/٢ (الطبعة الأولى - مطبعة الاستقامة -

القاهرة ١٩٤٠ م) .

السابقة ما لا يعرفونه ، ومن ثم فهو يمكنه ما لا يمكنهم ، أى أنه يؤلف الكتاب ثم ينسبه إلى الله افتراء عليه ، فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، قال تعالى (١) : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ... ﴾ ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله مفتراة ، فقال : (٢) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ أى مفتراة ، طالبهم القرآن بعشر سور أو بسورة واحدة ، لا يلتزمون فيها الحكمة ، ولا الحقيقة ، وليس إلا النظم والأسلوب ، وهم أهل اللغة ، ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور ، بل سورة واحدة ، وهذا التأويل الذى ذكرنا على تقدير أنه سمح لهم أن يأتوا فى هذه السور بقصص مختلف ، وأن التحدى منصب على الجانب التعبيرى ، لا على المضامين ، وهذا الفهم للآيات السابقة أراه غير دقيق ؛ إذ كيف تكون السور أو السورة « مثله » وهى موصومة بالافتراء ؟ ولعل الصواب أن نقول : إن القرآن يجارهم فى دعواهم أن محمداً افترى الكذب على الله ، فنسب إليه كلاماً لم ينزل به الوحي عليه ، فقال فى الرد عليهم : هاتوا كلاماً كاذباً كهذا الذى أثبت به .

فالقرآن - على هذا - لا يتحداهم فى مجال التعبير فحسب ، وإنما فى المعانى والأفكار القرآنية أيضاً .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحداهم القرآن أن يفعلوا ، فلم يقصد إلى ذلك منهم خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ووجد من يستجيده ، ويحامى عليه ، ويكابره فيه ، ويزعم أنه

(١) سورة هود : ١٣ - ١٤

(٢) سورة يونس : ٣٨

ناقض وعارض ، فدل ذلك على عجز العرب عن معارضته ، مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجا الرسول منهم ، وعارض شعراءه وأصحابه ، وخطباء أمتة ؛ لأن سورة واحدة ، أو آيات يسيرة ، كانت أفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق اتباعه عنه ، من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال في قتاله ، وتأليب القبائل عليه ، وعلى دعوته وأصحابه ، ولكنهم وقد انقطعت بهم كل السبل إلى النيل من القرآن ، وإبطال تأثيره في نفوسهم ، ووقف تيار تدفقه في قلوبهم ، « لجأوا إلى السيف يحكم بينهم وبين محمد ، ولو أنهم استطاعوا إلى المعارضة سبيلا ، ماركبوا هذا المركب الخشن ، فعرضوا أنفسهم وأهليهم للقتل حيناً ، وللأسر حيناً آخر ، فكان التجاؤهم إلى السيف الحجة القاطعة على عجزهم عن معارضة القرآن ومجاراته » (١) ، وبذا ثبت الإعجاز ، وتمت المعجزة ، وصدقت رسالة صاحبها .

وإذن ؛ فالقرآن معجز ، وإعجازه ليس منوطاً بشيء خارج عنه ، من مثل ما ادعاه أبو إسحاق النظام - شيخ المعتزلة - وغيره ، من أن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، أى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته ، مع قدرتهم عليها ، ومعنى هذا أنه لم يكن عجزهم عن المعارضة لأن القرآن معجز في نفسه « لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت همهم ونخواطهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه ، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له » (٢) .

(١) من بلاغة القرآن : الدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٤٨ (الطبعة الثالثة - نهضة مصر ١٩٥٠ م) .

(٢) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ص ٢٩٩ (الطبعة الخامسة - دار المنار - مصر ١٣٧٢ هـ) .

ويكفى في الرد على من ذهب إلى القول بالصرقة في تفسير إعجاز القرآن ، أن نورد رد الإمام عبد القاهر الجرجاني عليهم ، ومؤداة ، أنه لو كان الأمر كما ذكروا لكان ينبغي للعرب ألا يتعاضمهم القرآن ، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره ، وتعجبهم منه ، وعلى أنه قد بهرهم ، وعظم كل العظم عندهم ، ولكن التعجب منهم لما دخل من العجز عليهم ، ولما رأوه من تغير حالهم ، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلا ، وأن سد دونه باب كان لهم مفتوحا (١) ...

يضاف إلى ذلك أنه لو كانت الصرقة هي المعجزة ، لكان القرآن كلاما كغيره من الكلام ، لا يعجز عن الإتيان بمثله البلغاء بعد زمن التحدى ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن « فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما في وسعهم أن يأتوا ، واهتدى العلماء إلى تبين أسباب الجمال في القول ، ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد ، أو يقارب هذا الأفق المتسامي ، وكلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة ، ازدادوا إيماناً بالضعف والعجز أمام كتاب الله » (٢) .

وهناك برهان آخر على بطلان هذا المذهب ، فقد نعلم أن نوابغ العرب في الفصاحة قبل نزول القرآن لم يكونوا مصروفين عنه ؛ لأنهم لم يتحدوا به ، فلم لم نعثر في أدبهم على ما يشبه القرآن ، أو يدانيه ، فصاحة وبلاغة وقوة تأثير ؟؟ .

من أجل هذا كله قال بعض العلماء المحدثين : « أما الرأي القائل بصرفهم (العرب) عن المحاولة ، فليس له وزن يقام (٣) » .

(١) المصدر السابق .

(٢) من بلاغة القرآن ص ٤٩

(٣) التصوير الفني في القرآن ١٢

كذلك لا يصلح أن يقال : إن سر إعجاز القرآن فيما اشتمل عليه من إخبار عن أمور ماضية ، أو أخرى مغيبة ؛ لأن ذلك لا يصلح دليلاً على الإعجاز ، فما في القرآن من سير الأولين ، وأخبار الأمم الماضية ، مما لا يقف عليه عالم بالسير ، ولا دارس للآثار ، لا يجعله أكثر من كتاب تاريخي ، مشتمل على أمور توقيفية ، ويكون شأنه في هذا شأن غيره من الكتب المنزلة قبله ، والمتضمنة لبعض القصص التاريخي ، وهي لم تخلع على نفسها صفة الإعجاز .

كما أن اشتغال القرآن على أمور غيبية ، وإن دل على عجز العرب عن الإتيان بمثلها لعدم قدرتهم على التنبؤ ، فإنه لا يصلح مجالاً للتحدي ؛ إذ ليس هذا العجز قاصراً على العرب وحدهم ، لخروج التنبؤ عن طوق البشر جميعاً ، فالإعجاز عن هذا الطريق ليس بشيء ؛ لأن الإعجاز الحقيقي إنما يتجلى في مجال أتيحت إمكانياته للبشر ، ولكنهم قصرُوا فيه وعجزوا عنه ؛ لقصور هذه الإمكانيات وعجزها ، ومن هنا تحدى القرآن العرب في محاكاته ، والإتيان بشيء من مثله فعجزوا ، وقد كان مجال التحدي هو فصاحة القول ، وقوة البيان ، لا مجال الإخبار عن الغيوب (١) .

ثم إن معظم آيات القرآن تخلو من التنبؤ والقصص ، فلو صح كون القرآن معجزاً من هذا الوجه ، لكان أكثر القرآن فاقدًا صفة الإعجاز ، وفي مقدور العرب أن يحاكيوه ، مع أن الإعجاز ثابت لكل قدر منه ؛ لعجزهم عن معارضة السور القصيرة ، بل الآيات اليسيرة ، أو السورة الواحدة ، وقد سجل عليهم القرآن ذلك في قوله :

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه (عبد الحكيم بليغ) ٥٦ (الطبعة الأولى - القاهرة بلا تاريخ) .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ،
وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ
تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فالآية تتحداهم ، وتبالغ في استفزازهم واحتياجهم ؛ لتثبت أن
قدرتهم على المعارضة مستحيلة ، فتقول (ولن تفعلوا) أى أن هذه المعارضة
منهم فوق القدرة ، وفوق الحيلة والاستعانة ، ثم تقرنهم إلى الحجارة ، وتسمهم
بالكفر .

كما استفزهم القرآن في آياته التي تعظم من شأنه ، وتفخم من أمره ،
من مثل قوله تعالى : (٢) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ ﴾ وقوله : (٣) ﴿ إِنْ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ وقوله (٤) :
﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾
وقوله (٥) : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وغير ذلك كثير
مما من شأنه أن يدفعهم إلى مباراته ، ويحفزهم إلى محاكاته ؛ ليبطلوا دعواه ،
ويضعوا من شأنه ، وينزلوه عن تلك المنزلة التي يدعيها لنفسه ، كل ذلك
استفزازاً لهم ، ولكن القرآن في كل ذلك كان كمن ينفخ في رماد هامد ،
وصدق الله العظيم :

(١) سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤

(٢) سورة الحجر : ٨٧

(٣) سورة الإسراء : ٩

(٤) سورة الحشر : ٢١

(٥) سورة البقرة : ٢

﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

وليس القرآن معجزاً كذلك بما اشتمل عليه من تشبيهات ، ومجازات ، وكنائيات ، وغيرها من صور البيان ؛ لأن هذا يقتضى نفى الإعجاز عن الآيات التى خلت من ذلك ، من مثل قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (٢) .

وذهب قوم إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن إنما يرجع إلى خلوه من كل تناقض واضطراب (٣) .

وهذا الرأى مرفوض أيضا ؛ لأن فى أدب العرب كثيراً من القصائد والخطب التى تخلو من التناقض والاضطراب ، فلو كان الأمر كما ذكروا ، لما كان هناك وجه لاتصاف القرآن بالإعجاز ، ففى كلام العرب ما يماثله فى هذه الناحية .

نخلص من هذا إلى أن القرآن معجز ، وأن إعجازه يكمن فى صميم نسقه ، فى طريقته الفذة فى نظم الجمل ، وتركيب الألفاظ ، والملاءمة الدقيقة بينها وبين المعانى ، ومراعاة الظروف ، ومواقف الكلام ، ومقتضيات الأحوال ، بصورة تدعو إلى الإعجاب والدهشة (٤) .

(١) سورة الإسراء : ٨٨

(٢) هى سورة الكافرون ، ورقمها فى المصحف : ١٠٩

(٣) الطراز : يحيى بن حمزة العلوى ٣/٣٩٧ (مصر ١٩١٤ م) .

(٤) النثر الفنى (بليغ) ٥٦

كل ذلك مع طوله ، وكثرة ما يتصرف فيه من وجوه ، ولا يعرف للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، والغرابة والتصرف البديع ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا القدر من الطول ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وإلى شاعرهم قصائد محدودة ، لا تبلغ مبلغ القرآن في الطول والتصرف (١) .

ويتضح هذا في قول أنى بكر الباقلانى : « فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع من وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته ، وحسنه وبهجته ، وحسن موقعه في السمع ، وسهولته على اللسان ، ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهدة ، وتشكله على جهته ، حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف ، مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناء ورفعة (٢) » .

هذا الوجه للإعجاز ثابت لجميع القرآن ، وفي كل قدر منه وضع موضع التحدى ، من الآيات اليسيرة ، والصور الصغيرة ، وهو إعجاز الأسلوب ، الذى جاء فى ألفاظه بديع النظم ، عجيب التأليف ، وفى معناه ، متناهيًا فى الإبانة والإعراب ، فجمع بذلك بين طرفى الفصاحة والبلاغة ، جمعاً أنتج البيان الرائع ، الذى أتى فى كل غرض قصد إليه بما ليس فى مقدور إنسان .

من أجل هذا استحال على الرسول ، كما استحال على غيره ، أن يكون القرآن من كلامه ، لأنهم جميعاً بشر ، وما كان لبشر إن يأتى بمثل هذا المستوى الرفيع ، من الكلام الذى يخرج عن طوق البشر .

(١) للاستزادة انظر : من بلاغة القرآن ص ٥٢

(٢) إعجاز القرآن ٢٠٨ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م) .

حول أسلوب القرآن :

أسلوب القرآن وجه من وجوه إعجازه ، لم يستطع العرب أن يحاكيه أيام النبي ولا بعده ؛ ذلك أن للقرآن نظاماً خاصاً في أداء المعاني التي أراد الله أن تؤدي إلى الناس ، لم يؤد هذه المعاني شعراً ، يجري على الأخيصة والأوزان والقوافي ، التي جرت عليها أشعار العرب ، ولم يؤدها نثراً كالنثر المألوف للعرب . (لا أنه ليس من جنس النثر) ؛ لأنه لا يُطلق إطلاقاً نثرهم ، ولا يقيد بهذه القيود التي عرفها بلغاؤهم وفصحائهم .

يقول ابن رشيقي (١) : « فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر ، كذلك أعجز الخطباء ، وليس بخطبة والمرسلين وليس بترسل » ، ولعله يعنى ما ذكرنا .

فللقرآن أسلوب بديع ، يخالف أسلوب العرب الذي ألفته في كلامها ، من تقطيع ، وتسجيع ، وترسل ، لم يكن كشعرهم أو سجعهم الملتزم ، ولا كنثرهم المرسل ، وإنما هو آيات وفواصل ، لها مزاجها الخاص ، ومنهجها المتفرد ، في الاتصال والانفصال ، وفي الطول والقصر ، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف .

يخشع القلب لفواصله ، ويدرك الذوق السليم انتهاء القول عندها ، تارة تجيء سجعاً ، وتارة موازنة وازدواجاً ، وأحياناً لا هي بهذا ولا ذاك ، ومن هنا اعتري العرب عند سماع القرآن ذهول ودهشة .

والتأمل أسلوب القرآن يجده نسيجاً وحده في النظم والتأليف ،

(١) العمدة ٥/١ (الطبعة الأولى - أمين هندية - القاهرة ١٩٢٥ م) .

والنسق البياني ، متميزاً بطابع خاص من سائر الأساليب النثرية ، لا يدانيه أسلوب ، أو يرقى إلى سموه بيان .

ولسنا نطمع هنا في الإلمام بكل مميزات الأسلوب القرآني ، وخصائصه الفنية ، وما اشتمل عليه من ألوان الجمال الفني ، فالقرآن في ذلك كله كنز البيان العربي « تتجدد جواهره ، وكثيراً ما يهدي جواهر إلى جواهر ، ويكشف نفيس عن نفيس » (١) ؛ ومن ثم فدراساته لا تنتهي ، وبيناته لا تنفذ ، أو تدخل تحت حصر .

وإنما بحسبنا أن نوجز بعض المزايا الهامة لأسلوب القرآن ؛ لنقف - إلى حد ما - على ما في هذه المعجزة الخالدة من سمو وإعجاز ، وما تفردت به من تفوق وامتياز ، في مجالات البيان ، وميادين القول :

(أ) القصد إلى إثارة العقل والوجدان معاً :

مما يلفت النظر لفتاً شديداً في الأسلوب القرآني ، اعتماده على منهج يعتمد قصداً إلى إثارة وجدان القارئ والسامع ، إثارة قوية ، وإلى تحريك مشاعره ؛ لتوجيه سلوكه الوجهة التي إليها قصد القرآن ، فتقبل النفس على ما به أمر ، وتدبر وتعرض عما نهى عنه وزجر .

وهذا المنهج شائع في القرآن ، يكاد يكون من العمد الأساسية للأسلوب القرآني ؛ لأن القرآن « لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع ، ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل ، فهو في وعده ووعيده ، وأوامره ونواهيه ، وقصصه ووصفه ، وابتهاله وتسبيحه ، بل وفي أحكامه وبراهينه

(١) القرآن والتفكير ص ٧

لا يغفل هذه الناحية من نواحي النفس الإنسانية ؛ لأن العمل - غالباً ، يرتبط بها ويقترن (١) .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة من آى القرآن :

يقول الله تعالى (٢) ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً .

فالآيتان تقصدان قصداً إلى إثارة مشاعر البهجة والغبطة في نفس القارئ والسامع ، فكل منهما حين يتصور أنه سيكون رفيقاً لأتباع الله ، الذين هم صفوة الخلق ، وأفضل البشر ، وللصديقين والشهداء والصالحين من عباده ، إن هو أطاع الله ورسوله ، ينشرح صدره للطاعة ، وتهش نفسه للإستجابة ، ومن ثم يندفع للإنقياد طائعاً ، مختاراً ، راضياً ، حريصاً على تجنب كل ما من شأنه نقض هذه الطاعة ، أو مجافاتها ؛ ذلك أن النفس الإنسانية تتطلع دوماً ، حتى في حياتها الدنيوية الفانية ، إلى الامتياز ، بالسعى إلى رفعة الشأن ، وعلو المكانة ، والانتماء إلى كل طبقة تتصف بهذا الامتياز ، وخالقها أعلم بها ، وأخبر بما تهوى ؛ ولذا فهو يثير فيها هذه الفطرة ؛ لترنو إلى مقام سام ، ومنزلة عالية في الدار الآخرة التي هي أخلد وأبقى .

ولننظر في قوله تعالى : (٣) ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقِيَامَةَ فِيهَا

(١) من بلاغة القرآن ص ٣٧

(٢) سورة النساء : ٦٩ - ٧٠

(٣) سورة ق : ٦ - ١١

رَوَّاسِي وَأَثْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج * تَبْصِيرَةً وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ *
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ، فَأَثْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ
الْخُرُوجُ .

فماذا تحرك هذه الآيات في العقول والقلوب ؟ إنها تثير فيها إدراكاً قوياً ، وشعوراً غامراً بالإجلال لقدرة الله الخالق ، والانبهار بعظمة المبدع ، الذى بنى السماء فأحكم بناءها ، وزينها بالنجوم والكواكب ليلاً ، وبالضياء الباهر نهاراً ، وبسط الأرض ، ورعاها ، وأمدّها بمقومات الحياة لكل ذى روح ، فحفظ توازنها بالجبال أرساها فى نواحيها ، واختار مواقع هذه الجبال بدقة الحكيم ، وخبره العالم ، وأثبت فيها كل ما يسر العين ، ويشرح الصدر من بهيج النبات ، وجادها بماء ينزل من السماء ، تحيا به وتهتز ، فتخرج من بطونها جنات ، وترفع فوق أديمها نخيلاً باسقات .

وليس من شك فى أن مشاعر الإجلال والإعجاب والانبهار تدفع النفس إلى الإيمان بقدرة الله المبدع ، وتقودها إلى التصديق والتسليم بقدرته تعالى على البعث والنشور ، وهذا ما قصد إليه هذا البيان القرآنى العظيم بقوله : ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ .

واقراً فى القرآن كثيراً من آيات التذكير بالنعمة ، وفضل المنعم ، وإبداع الخلق ، وقصص العظة والاعتبار .. وغيرها ، وسوف يروى هذا المنهج الأسلوبى ، الذى يقرع العقول ، ويثير الوجدان .

وهذه الإثارة الوجدانية لا نعدمها حتى فى آيات الأحكام ، التى سيقى لإرساء القواعد ، وتشريع الضوابط للحياة الإنسانية ، فالقرآن كثيراً ما يحرص على أن تقترب الأحكام فيه بما يثير الوجدان ، حتى تقبل النفوس المؤمنة على العمل بها راضية مغتبطة .

إدراكهم ومشاعرهم إلى أن المؤمنين الحريصين على سلامة إيمانهم ؛ هم الذين يسارعون إلى تنفيذ هذه الأحكام ، والالتزام بها ، ومن ثم يدفعهم هذا إلى الحرص على إيمانهم بالمسارعة إلى الاستجابة .

ونلاحظ كذلك أن الآية تدعو الكاتب إلى أن يكون عادلاً فيما يكتب ، فلا يغير أو يبدل ما يملئ عليه ، ولكي يكون كذلك تحرك فيه الشعور بالشكر والعرفان على ما منحه الله تعالى من نعمة المعرفة بالكتابة (كما علمه الله) وهذه النعمة ، وهذا الفضل الذي أسبغه الله عليه يقتضيان شكر المنعم المتفضل ، والشكر هنا إنما يكون باستخدام النعمة فيما يرضى الله ، وما يرضيه تعالى في هذا المقام هو الكتابة بالعدل دون تغيير أو تدليس .

ثم إن الآية تذكر من عليه الحق بأن يتقى الله ، وهو يملئ ما عليه من دين ، وتقوى الله خشيته ، والخوف من عقابه ، فإذا تمثل المدين الخوف من الله اتقاه ، وتقوى الله هنا أن يملئ الحق ، ولا يحيد عنه ؛ لأنه إذا مال عن الحق بخس الدائن حقه ، وحق عليه غضب الله ، وهذا ما يجب أن يتقيه . فإثارة مشاعر الخوف في وجدان المدين عند إملاء الدين أسلوب مقصود - الغرض ، محسوب الغاية .

والآية - فوق هذا - في معالجتها أحكام الدين تلاحظ غريزة حب التملك في الإنسان فتقصد إلى بث الإطمئنان والثقة التي ترضى هذه الغريزة عندما تتحدث عن الحكمه في كتابه الدين ، فكتابته تحفظ المال ، وتبعد الشك عن النفس ، وتبث فيها الطمأنينة على هذا المال ، « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » .

ونلتفت أيضاً إلى هذا الجانب الوجداني في الآية ، عندما تحذر من

الإضرار بالكاتب والشهيد ؛ حيث تذكرنا بأن الإضرار بهما أو بأحدهما فسوق لا يرضاه الله ، والتعبير بالفسوق قصد به قصداً إلى التنفير من أحداث هذا الإضرار أو محاولته .

وأخيراً تنهى الآية أحكامها بتذكيرنا بأن الله عليم بكل شيء ، يعلم ما فيه الخير لنا فيأمرنا به ، ويكون الفلاح في القيام بما أمر « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » .

وحسبنا ما ذكرنا دليلاً على هذا المنهج الأدبي الذي يضبطه الأداء القرآني في كثير مما قصد إليه ، من مناحي القول ، تحريكا للعقول والوجدانات جميعاً .

(ب) كثرة التنوع في الأساليب :

يمتاز أسلوب القرآن بكثرة التنوع والاختلاف في الأساليب ، تبعاً لتنوع الأغراض ، واختلاف مقامات الكلام .

كما يمتاز القرآن الكريم بأنه يحرص الجرص كله على تحقيق المناسبة بين الموقف والأسلوب الذي يقتضيه ، وبين الموضوع والتعبير عنه ، على نحو من الدقة تبلغ حد الإعجاز .

فهو يؤثر الإيجاز - مثلاً - في خطاب الخاصة ، والإطناب في خطاب العامة ، والتلميح للعري ، والتصريح لغير العري ، والتكرار في مقام العظة والاعتبار ، لتوكيد الزجر والوعيد ، أو بسط الموعظة ، وتثبيت الحجة ، أو في مقام تعديد النعمة ، والتذكير بالمنعم ، واقتضاء شكره .

وإلى ذلك يشير أبو هلال العسكري في قوله : « وقد رأينا أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى ،

وإذا خاطب بنى إسرائيل ، أو حكى عنهم ، جعل الكلام مبسوطاً ، وقلما نجد قصة لبنى إسرائيل فى القرآن إلا مطولة مشروحة ، ومكررة فى مواضع معادة ؛ لبعده فهمهم ، وتأخر معرفتهم » (١) .

ويقول الدكتور طه حسين : « لا غرابة فى أن تختلف مذاهب القول فى القرآن ، باختلاف الموضوعات ، وباختلاف المقامات أيضاً ، وإنما الغرابة فى التزام مذهب واحد من مذاهب القول فى التشريع ، والقصاص ، والتبشير ، والإنذار والموعظة اللينة ، واللوم العنيف ، وهذا التنوع فى مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات ، هو الذى يسميه أصحاب البيان فى اللغة العربية ، وفى غيرها أيضاً ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال » .

« فالإنذار بقيام الساعة ، وما يكون فيه من الهول ، ويوم الحساب ، وما يكون فيه من الشدة ، يقتضى أن يكون القول من القوة والأيد ، بحيث يملأ القلوب رعباً ، ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحين فى الإنكار والعناد والمكابرة ، وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع فى القرآن شيئاً كثيراً ، وقرأ إن شئت من السور القصار فى آخر المصحف ، فسترى تصوير الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفس رهباً ورعباً ، وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن ، فسترى ملائمة القول للموضوع والمقام ... » (٢) .

وإذن فدقة المناسبة بين المقام والأسلوب الذى يقتضيه ظاهرة أسلوبية هامة فى إعجاز البيان القرآنى .

وعلى سبيل المثال ، نورد بعض النماذج لأسلوب القرآن فى الإيجاز

(١) الصناعتين ١٤٤ (المطبعة التجارية - القاهرة ١٩٥٢ م) .

(٢) مع طه حسين : سامى الكيال (سلسلة اقرأ - العدد ٣٧٥) .

والإطناب ، أو القصر والطول ، وروعة المناسبة بين كل منها ، والمقام الذى يقتضيه .

١ - يقول الله تعالى (١) :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ : وَمَا عَلِمَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَانْجِيَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْهُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * ۝

فهذه الآيات توجز قصة نوح أشد الإيجاز ، بالنسبة لما أورده القرآن فى سورة خاصة (سورة نوح ٧١) عدد آياتها ثمان وعشرون ، وما أورده فى سورة هود (٢٥/١١ - ٤٩) فى أربع وعشرين آية .

ولمّا اختصرت القصة هنا ؛ لأن ما قصد إليه القرآن من هذه القصة وغيرها من القصص فى هذه السورة (سورة الشعراء) إنما هو تذكير المشركين بآيات الله فىمن سبقهم من الأمم وتحذيرهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم ، وإظهارهم على بطش الله بالظالمين ، بينما سيقت القصة مطولة فى الموضعين السابقين ؛ لما كان الغرض من سوقها ، العظة والاعتبار والتبصير .

(١) سورة الشعراء : ١٠٥ - ١٢٠ ، وقد اعتمدنا فى تحليل هذا النموذج على : مرآة

من هنا اكتفى القرآن من قصة نوح في سورة الشعراء ، بما يؤدي هذه الأغراض في قوة وعنف ، يملكان على السامعين والقارئین أمرهم كله ، فلم يتحدث عن صنع الفلك ، ولا عن المخلوقات التي حملها نوح فيه ، ولم يصف الموج الذي جرت فيه السفينة ، كما لم يتعرض إلى الحديث الذي دار بين نوح وربه ، أو بينه وبين ولده ... إلخ .

ومن أجل هذا أيضاً أدت هذه الأغراض في هذه الآيات القصار ، المتتابعة في نسق واحد ، كأنها السيل المندفع ، الذي يغمر كل ما يلقاه ، أو كأنها الريح العاصفة ، التي لا تذر شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالريم .

٢ - ويقول سبحانه وتعالى (١) :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ﴾ .

في هذه العبارة القصيرة ، يصور الله للناس قصر الحياة الدنيا الفانية ، التي تلهيهم عن الحياة الأخرى الباقية .

مشاهد ثلاث تلخص هذه الحياة في دقة تصوير ، وروعة أداء :
(كماء أنزلناه من السماء) و (فاختلط به نبات الأرض) و (فأصبح هشيماً تذروه الرياح) ، وبها ينتهي شريط الحياة كله ، لقد تحققت في هذا الأداء كل عناصر الصدق والدقة والجمال : الصدق ، في عرض أطوار النبات ، عرض الماء الذي يسبقه ، ويختلط بالأرض فتنبته ، وعرض نضجه ، وعرض تذريته ، فلم يبق بعد ذلك من أطوار النبات ، إلا ما هو ثانوي قليل الخطر ، والدقة : لأنه حقق الغرض الذي سبقت من أجله هذه الصورة كاملاً ، وقربه إلى الأفهام أشد القرب ، أبرزه على أوضح ما يكون في الحس

فإذا هذه الحياة الدنيا قصيرة قصيرة ، هينة هينة ، لا يصح في منطق الحق والعقل أن تشتري بالآخرة ، والجمال : لأن سرعتها الخاطفة مما ينشط له الخيال .

٣ - ويعرض القرآن هذه المشاهد الثلاث في معرض آخر ، ومقام آخر ، مقام التذكير بفضل الله ، ونعمه على عباده ، فلننظر أى الأسلوبين (الإيجاز والإطناب) اصطنع في هذا العرض :

قال الله تعالى (١) :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

فالآية الكريمة تبسط نعمة الله في إسقاط المطر ؛ لتحى به الأرض ، وهذا هو المشهد الأول وحده ، الخاص بوصول المطر إلى الأرض في الآية السابقة (كإاء أنزلناه من السماء) يودى هنا في عدة فقرات ، ويفصل في مراحل : فالرياح تثور ، فتثير السحب في السماء ، فتترام هذه السحب ، فيخرج منها المطر ، فينزل المطر من السماء .

أما المشهدين الآخرين ، فيفصلهما قوله تعالى (٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

(١) سورة الروم : ٤٨ ، وقد اعتمدنا في تحليل هذا النموذج وسابقه على : التصوير الفنى فى القرآن ١٠٠ ، ١٠٤ .

(٢) سورة الزمر : ٢١

فالأداء ينساب في تمهل واضح ، وتفصيل غير قليل ، وفي استخدام أداة العطف (ثم) دقة تنسجم مع هذا الأداء المتمهل ، ومع مراحل المطر والنبات الطويلة ، المتباعدة الأزمنة .

إن المقام هنا مقام بيان النعم الإلهية على العباد ، فبسط العرض ، ولبت الصور ، وتملى المشاهد ، هو الأجدر بالموقف ، والأنسب للمقام ، والأليق بترديد النعم ، والتذكير بالمنعم المتفضل ، جل وعلا .

٤ - ولنضرب مثلاً آخر للإيجاز الرائع المألوف في القرآن كثيراً ، قوله تعالى في قصة طوفان نوح (١) :

﴿ وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

في هذه الكلمات القصار صور القرآن نهاية الطوفان ، وحركة الأرض والسماء في تحقيق هذه النهاية ، وإسدال الستار على قصة الطوفان ، مع أن هذه الحركة تشغل من أبعاد الزمان والمكان ، ما يشغل وصفه صفحات وصفحات .

ومع ذلك فما أدق وصف هذه الحركة بفعلي الأمر هذين (ابلعي - أقلعي) فإذا السماء تكف ، والماء يغيض ، وإذا الأمر كله قد قضى ، وإذا السفينة قد استقرت على الجودي ، وإذا الطبيعة قد عادت إلى ما كانت عليه من صفاء ، وإذا الكون قد تنفس الصعداء ، فقد طهر من القوم الظالمين ، إنه لنسق رائع يتصدره فعلاً الأمر ، ثم أنباء قصار أشد القصر ، موجزة أروع الإيجاز ، قاطعة لا معقب لها .

ويجب أن نلفت النظر إلى ناحية من نواحي البلاغة القرآنية ، كما تتمثل في هذه الآية ، دقة في اختيار الكلمة ، ووضعها في موضعها ؛ لتحقيق المناسبة الدقيقة بينها وبين مجاوراتها ، فضلاً عن التصاقها بالمعنى الذى سيقى له .

فمثلاً ، لو أخذنا كل كلمة في هذه الآية على حدها ، ومن غير نظر إلى حفظها من الأداء في معنى الآية بأكملها ، فقد لا نجد لها من التأثير ما نجده لها وهى بين أخواتها ، تؤدى معناها .

وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة في موضعها ، ونبين جمال اختيارها ، ونذكر ما لها من الميزة على غيرها ، فإذا سلطنا هذا المسلك في الآية الكريمة التى بين أيدينا رأيناها تصور ما حدث بعد الطوفان من ابتلاع الأرض بماءها ، ونقاء السماء بعد أن كانت تغطى بسحبها ، واستواء السفينة على الجردى ، وقد طهرت الأرض من رجس الكافرين ، صورت الآية كل هذا تصويراً حسياً ، يؤكد في النفس استجابة الطبيعة وخضوعها لأمر الله .

فهذا المطر المذلل ينهل من السماء ، وهذا الماء الطاغى يحتاج نواحي الأرض ، وهذا الاضطراب في أرجاء الكون لم يلبث أن سكن وانقضى ، فعادت الطبيعة إلى هدوئها ، عندما تلقت أمر الله أن تسكن وتهدأ ، ولكن لما كان هذا الأمر قد صار إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون ، أو يروا قائله ، بنى الفعل للمجهول كما نرى (وقيل) وأوثر في نداء الأرض الأداة (يا) دون الهمزة ؛ لما يدعو اجتماعها مع همزة (أرض) إلى ثقل على اللسان في النطق بهما ، وفضلت كذلك على الأداة (أيا) لما في هذه من زيادة تنبيه ، ليست الأرض - وهى رهن أمر الله - في حاجة إليه ، وأوثر تنكير الأرض (يا أرض) لما في ذلك من تصغير أمرها ، فالمقام هنا يستدعى ذلك التهوين والتصغير ، كما يستدعى الإسراع في تلبية

الأمر : وذلك لا يكون مع التعريف الذى يقتضى إطالة الكلام بـ (أيتها) ، وجاءت كلمة (ابلعى) فى هذا المقام مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها ، وهو أن تبتلعه فى سرعة ؛ ولذا كانت أدق من كلمة (امتصى) - مثلاً - لأنها لا تدل على الإسراع فى التشرب ، وفى إضافة الماء إلى الأرض (ماذك) ما يوحى بأنها جديرة بأن تبتلع ماء هو ماؤها ، فكأنها لم تكلف شططاً من الأمر .

وتحقيقاً للدقة البلاغية أيضاً بنى الفعل (غيض) للمجهول ، تصويراً لإحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى ، فهم قد رأوا الماء يغيض ، والأمر يتم ، وكأنما حدث هذا كله من تلقاء نفسه ، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل ، كذلك اختيرت لفظة (واستوت) دون (رست) مثلاً ؛ لما فى الأولى من الدلالة على الثبات المستقر ، وبنى الفعل (قيل بعداً) للمجهول ، إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة ، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء ، وجاءت كلمة (بعداً) دون (هلاكاً) مثلاً ، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد فى الأرض ، وعن السخرية بمن آمن وعمل صالحاً ، ونحن نحس فى كلمة (بعداً) هنا ، دلالة على الراحة النفسية التى شعر بها من فى الكون ، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين ، ولعل لاستخدام المصدر الذى يؤكد أن الفعل قد تم أثراً فى الدلالة التى ذكرنا .

وقد يصل الإيجاز فى القرآن إلى حد الاكتفاء باللمح والإشارة ، إذا كان التلميح فى الموقف أبلغ من التصريح ، والإشارة أوقع من التفصيل : فلننظر مدى ماوصلت إليه الآيات الكريمة فى سرعة اللمح ، ودقة الإشارة إليه فى قوله تعالى (١) :

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ
لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

فخير (من) محذوف في هذه الآية ، يشير إليه قوله بعد ذلك
(فويل للقاسية قلوبهم) فيكون تقدير الخبر ، أفمن شرح الله صدره
للإسلام كالقاسية قلوبهم ؟؟ .

ومن ذلك قوله تعالى (١) :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ
لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .

فانظر إلى ما في الآية من تهكم وسخرية بعبدة الأصنام ، وتعريض
بعجز آلهتهم ، وأنها لا قدرة لها على خلق شيء ، ثم انظر إلى إلزامهم الحجة
بهذا التحدى الصارخ :

« إئتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » .

وانظر أيضاً إلى إشارة الآية إلى المحذوف ، إشارة لطيفة دقيقة : أى
ائتوني بكتاب من قبل القرآن ، أو بجزء ضئيل من العلم ، يشهد بجدارة ما
تعبدون من هذه الأصنام وغيرها ، وأنها حقيقة بالعبادة !!

وبذا ينكشف جهلهم وعنادهم ؛ حيث لا دليل يهديهم ، أو حجة
تسعفهم ، وإنما هم يخبطون في الضلال ؛ لأنهم يعبدون ما لا يجيب دعاء ،
ولا يسمع نداء ، ولا يستطيع نفعاً ولا ضرراً ، فالمقام مقام سخرية وتهكم ،
وال مخاطبون عرب ، يفهمون اللحم والإشارة في لغتهم ، ويدركون أن هذا
الأسلوب أوقع من الإفصاح والتفصيل في هذا المقام .

ومن بلاغة الحذف في القرآن ، اعتماداً على فطنة القارئ ، الذي يفهم سياق الكلام ، ودلالته على المحذوف ، قوله تعالى (سورة الكهف ٤٨/١٨) : ﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴾ أى : فقبل لهم ، فحذفت جملة القول لدلالة السياق عليها .

ومنه أيضاً ، قوله تعالى (سورة العنكبوت ٨/٢٩) : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ... ﴾ أى : وقلنا له : وإن جاهداك ، فحذف جملة القول .

ومن وجوه الحذف البليغ في القرآن ، الاستغناء عن التفصيل ، بحذف عدة جمل ؛ لأنها تدرك من السياق ؛ ولأن في ذكرها إطالة ، وانشغال بما ليس من هدف الكلام ، نرى هذا في قوله تعالى من قصة سليمان - عليه السلام - والهدد (سورة النمل ٢٧/٢٧ - ٢٩) : ﴿ قَالَ : سَنُنْظِرُ أَصْدَقَتِ أُمِّ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بُكْتَانِي هَذَا فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابًا كَرِيمًا ... ﴾ .

فالحذف هنا يشمل تفصيلات جزئية تدرك من السياق ، وفي تركها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة ، وتركيز عليها .

وهذا الذي مثلنا له من أساليب الحذف في القرآن الكريم داخل في باب الإيجاز البليغ ، وأمثال هذا كثير في الأسلوب القرآني ^(١) .

وقد نكون في حاجة إلى وقفة عند هذه الظاهرة الأسلوبية في البيان

(١) انظر مثلاً سور : يونس ٣١/١٠ - ٣٢ ، والمائدة ٧٢/٥ - ٧٦ ، ومريم ٨١/١٩ - ٨٢ ، والقصص ٧١/٢٨ - ٧٢ ، وسبأ ٣٢/٣٤ ، والفرقان ٣/٢٥ ، والأحقاف ٢٧/٤٦ - ٢٨ ، والنحل ١٧/١٦ - ٢١

القرآني ، نعني ظاهرة تنوع الأساليب في القرآن تنوعاً يتعذر حصره ، والوقوف على صورته ، نحاول من خلالها تفسير هذا التنوع الكثير في الأساليب القرآنية ، والاقتراب من سر التفوق والإعجاز فيه ؛ حتى لا يحتج على قضية الإعجاز البياني في القرآن بأن مراعاة مقتضى الحال في الأساليب ، وتنوع الكلام بتنوع المقامات كان أسلوباً من أساليب العرب قبل نزول القرآن ، ومذهباً من مذاهبهم في فن الكلام .

إن القرآن نفسه يرشدنا إلى سر هذه الظاهرة فيه ، ويهديننا إلى المذهب الصحيح في تفسيرها ، والكشف عن ميزتها .

يقول الله تعالى (سورة الأنعام ٣٨/٦) : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ويقول (سورة هود ١/١١) : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ، ويقول (سورة الزمر ٢٧/٣٩) : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وصدق الله العظيم ، فالإحاطة والشمول ، والقصد إلى التدبير ، وضرب الأمثال للعبارة والعظة ، كل ذلك قد اقتضى أن يحوى القرآن من الأغراض والموضوعات ، ومقامات الكلام ما ينظم حياة الإنسان في هذه الدنيا ، فقد عالج حياته العقدية ، وساق له من البراهين والدلائل ما يهديه إلى الله المعبود الحق ، ووضع له من الحدود ما ينظم علاقته بربه ، كما عالج القرآن شئون الاجتماع الإنساني ، وحاطه بما يحقق له قواعد العدل والمرحمة ، وهدى الإنسان إلى فضائل الأخلاق ، وبين له أدواء الخصال ، وأوضح له ما في الفضيلة من خير ، وما في الرذيلة من شر ، وأقر الحقوق والواجبات بين الأفراد والجماعات ، ونظم له شئون الحرب والسلام .

واقضى ذلك كله أن يحذر وينذر ، ويعد ويبشر ، وأن يقص عليه من أخبار الأمم قبله ، صالحهم وطالحهم ، مؤمنهم ، وكافرهم ، مايفتح عينيه

على مواطن العظة والاعتبار ، ويهديه في كل ما يقول أو يفعل إلى المنهج الحق ، والصراط المستقيم .

وتحت هذه الأغراض الكبرى موضوعات كثيرة ، ومواقف عديدة ، فتحت باب الاعتقاد عقائد ، وفي شئون السياسة والاجتماع والأخلاق موضوعات شتى ، وفي مجال العبرة عبر ، وفي مواقف العظة هناك عظات ...

وهكذا تتشعب الأغراض والموضوعات في معارض تناول القرآن لشئون الإنسان في حياته الدنيا .

ومع ذلك فإن القرآن العظيم لم يقف بالإنسان عند حد هذه الحياة ، بل عالج أمره في الحياة الأخرى ، وتحت هذا المعالجة أغراض وموضوعات ، ومواقف أخرى ، ففي القرآن حديث كثير عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، وفيه تصوير كثير لمواقف الثواب والعقاب ، وعرض متنوع لنعيم الجنة ، وألوان عذاب النار ... إلى غير ذلك ، مما يتصل بحياة الإنسان في الدار الآخرة .

واقتضت حياة الإنسان في عالميه السابقين الحديث عن عوالم أخرى ، ما كان للإنسان علم بها إلا من خبر السماء ، ففي القرآن أخبار عن عوالم الروح والملائكة والجن والأفلاك ... وغيرها من عوالم خلق الله . على هذا النحو زخر القرآن بمختلف الأغراض والموضوعات والمواقف ، ولكل منها أسلوبه أو أساليبه التي يقتضيها ، ولا يقوم غيرها مقامها فيه ، ومن هنا تعددت أساليب القرآن وتنوعت ، وبلغت في تمثيل الدقة بين المقام والأسلوب الذي يناسبه حداً يفوق قدرة البشر ، هو حد الإعجاز الذي تحدثنا عنه سابقاً .

وهذه الظاهرة في الأسلوب القرآني تكفي وحدها للدلالة على هذا الإعجاز ، فما كان لبشر واحد مهما أوتي من النبوغ ، وسعة العلم ، أن يلم بكل هذه الأغراض ، والموضوعات والمواقف ، وأن يختار لها كل ألوان الأساليب المناسبة ، وأن يوفق في هذا الإلمام إلى الحد الذي نراه في القرآن . وما كان لمجموعة من نوابغ علماء البشر وبلغائهم مشتركين ، أن يبلغوا من ذلك ما بلغه القرآن ؛ فقد نرى في حياتنا البشرية من ألقوا ، ودوائر المعارف في فنون شتى ، ولكننا نقرأ أساليبهم في التعبير عن هذه المعارف ، فنقف على مستويات من الكلام تتذبذب بين الجودة والرداءة ، وبين الجفاف والعدوئية ، وبين الإصابة والخطأ ، وبين التعقيد والوضوح ، وإلى هذا يشير القرآن العظيم في قوله تعالى (سورة النساء ٨٢/٤) : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ، ومع كل هذا فهم لم يحيطوا بكل ما أحاط به القرآن ، ولم يطرقوا من الموضوعات والمواقف كل ما طرق ، ولم يعرفوا من عوالم خلق الله وملكوته كما عرف القرآن وأخبر ، فما كان لهم أن يعالجوا موضوعات : الغيب ، وعالم الأرواح ، والملائكة ... وغيرها مما استأثر الله بعلمه ، وحدث ببعض خبره في القرآن ، هذا فضلا عن أخبار الدار الآخرة وما فيها .

وما كان محمد إلا بشرا واحدا أميا ، من أمة أمية ، وما تلقى محمد ما تلقى هؤلاء في معاهد الفكر ، ومجالات الدرس ، ومدارس العلم ، فما نطق إلا بما علمه الله ، وأوحى به إليه ، مما كان بعض علمه عند قومه ، وأهل زمانه مستحيلا ، مهما أخذ بعضهم عن بعض ، وصدق الله العظيم (سورة الفرقان ٤/٢٥ ، ٦) : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ * قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴿ .

ولقد كشف الله سبحانه عن بعض هذا السر في آيات قرآنية كثيرة ، لم يعرفها العلم الحديث بإمكاناته وعقول علمائه إلا في أزمنة متأخرة جداً عن نزول القرآن .

من ذلك قوله تعالى (سورة الرعد ١٣/٤١) : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ وقوله (سورة الأنبياء ٢١/٣٠) : ﴿ أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ وقوله (سورة فصلت ٤١/١١) : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .

من هذا يتضح لنا مدى تنوع أساليب القرآن ، بتنوع الأغراض والمقامات وأن هذا التنوع لم يصب أسلوب القرآن بالاضطراب ، أو اختلاف المستويات ، من حيث الجودة والرداءة ، ونقرأ ما شئنا من آي القرآن في أي غرض من أغراضه ، أو موقف من مواقفه ، فلا نجد اضطراباً في الأساليب ، أو اختلافاً في مستوى الكلام ، فصاحة ، وعلو بيان .

بهذا الوجه الذي فصلنا يفترق أسلوب القرآن في بلاغة التنوع ، ومناسبة المقامات ، عن أسلوب العرب ، في هذه الناحية الأسلوبية .

وتبرز هذه الظاهرة الأسلوبية (تنوع الأساليب في القرآن) واضحة جلية ، عند المقارنة بين الأسلوب القرآني في السور المكية ، والأسلوب القرآني في السور المدنية بعامة :

لما كانت السور المكية أقدم من المدنية ، وهي في مجموعها كانت في حال بدء الدعوة إلى دين جديد ، والدفاع عنه ضد المعاندين من مشركي قريش ؛ لذا نجد القرآن في مكة يدافع عن دعوته بحجارة ، ويتحمس لها تحمساً شديداً ، وهذه الحال تقتضي أسلوباً خطاياً متقدماً ، شديد الوقع ،

قوى التأثير ، يتخذ طابع الحملات النارية العنيفة ، ويتألف من فقرات وجمل قصيرة رنانة ، يغلب عليها التسجيع ، الذى ينساب إلى النفوس فى قوة ، فيفعل فيها فعل السحر .

ولنأخذ مثلاً قوله تعالى (١) :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ !! ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهُقُهُ صَبُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ * كَيْفَ قَدَّرَ !! ، ثُمَّ قُتِلَ ، كَيْفَ قَدَّرَ !! ، ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ : إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ * لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ .

فاجمل قصيرة ، والألفاظ شديدة ، والعبارة عنيفة ، والسجع هو الأسلوب الغالب ، وهذا ما يقتضيه مقام الغضب والتهديد والوعيد ، لطاغية من طغاة مشركى مكة ، وهو الوليد بن المغيرة ، وفى القرآن من هذا الإنذار الشديد المروع شئ كثير .

من ذلك قوله تعالى (٢) :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخَلِيقٌ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ... ﴾ .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى السور المكية القصصار ، حيث تتتابع فيها معانى الإنذار ، والترهيب ، والوعيد ، للملحين فى الإنكار والعناد ،

(١) سورة المدثر : ١١ - ٢٩

(٢) سورة المعارج : ١٥ - ٢١

والمكابرة ، فإذا قرأنا - مثلاً - سور : التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والبروج ، وجدنا الآيات القصار المتلاحقة ، التي تنصب على السامعين ، كأنها الصواعق المنقضة ، تملأ القلوب رعباً .

والظاهرة الأسلوبية الشائعة فيها ، هي : قصر العبارات ، وقوتها ، وعنفها في الحملة على المشركين ، مع الازدواج ، أو السجع ، الذي يحرك في النفس انفعالات الخوف والرعبة ، التي يقتضيها مقام الزجر ، والتهديد ، والتخويف والثورة على المشركين .

ومع أن السور المكية الطويلة لم تنقيد بقصر الفقرات ، فإنها كغيرها ، يسود فيها الأسلوب الخطائي ، ونزعة الحملة العنيفة على المخالفين ، وقلماً تعتمد على الأسلوب الجدلي ، أو التشريعي الهادي .

تلك حال من أحوال الدعوة الجديدة في مكة ، حال الدفاع عن نفسها ، ضد مقاومة شرسة ، وعناد أحمق ، وتعصب أعمى لدين الآباء ، وكان هذا الأسلوب الذي وصفنا هو المناسب في مقام الردع والترهيب ، والإنذار .

على أن هذه الدعوة كانت في حاجة إلى جمع الأنصار ، وتأليف القلوب حولها ؛ إذ كانت ما تزال غضة طرية مستضعفة ، لم يستجب لها إلا قلة من ذوى المكانة في هذه البيئة الأولى ، وكثرة من الضعفاء والفقراء والأرقاء ، وكان هؤلاء يشعرون بهوان أمرهم ، وقلة شأنهم ، إزاء الطبقة الممتازة من زعماء قريش ، ورعوس الكفر في مكة ، وكان على القرآن أن يكشف لهؤلاء الضعفاء والمستضعفين جوانب من الامتياز أعدها الله لهم ، ومنازل من التفوق مدخرة في حياة أخرى أبقى وأخلد .

ومن هنا كثرت في السور المكية أساليب الترغيب والبشارة ، فأكثر من وصف النعيم الذي أعده الله لمن آمن به ، واستجاب لدعوة نبيه ، من

ذلك قوله تعالى في سورة النبأ (وهى مكية) : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارِجًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا * جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [سورة : النبأ ٣١ - ٣٦] .

ومنه قوله تعالى في سورة الواقعة (مكية) مبيناً ما أعدّه الله في الدار الآخرة من نعيم للسابقين إلى الإيمان ، ولأصحاب اليمين : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَكَبِّعِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأُبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفَرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ، غُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ . [سورة الواقعة : ١٠ - ٣٨] .

بهذه المنزلة العالية ، والنعيم المقيم المقيم الخالد . واللذات الحلال المحبة ، أحياء القرآن آمالاً كباراً في نفوس الضعفاء والمساكين ، الذين سارعوا إلى الإيمان بدعوة نبيه في مكة ، فأشعرهم أنهم باستجابتهم المؤمنة لهذه الدعوة ترتفع مكانتهم ، ويعظم قدرهم ، ويصيبون من الجاه والنعيم كل ما هو أبقي وأخلد .

والأسلوب هنا أيضاً يعتمد على الموسيقى المتلاحقة ، المنبعثة عن قصر الجمل ، والازدواج ، والموازنة ، والسجع .

ومع هذا التوافق في وسائل التعبير بين موقفى الوعيد والوعد ، والإنذار والتبشير ، فإن الفرق كبير بين التأثير الموسيقى هنا ، والتأثير

الموسيقى هناك ، هنا تنساب الموسيقى إلى النفوس في ليونة عذبة ، وهدهوء محبب ؛ لتشيع البهجة والطمأنينة في قلوب المؤمنين ، وهناك تندفع اندفاعاً قوياً هادراً ؛ لتخلع القلوب ، وتملأها رهبة وهلعاً ، وتصب عليها من الوعيد ناراً متقدة ، وليس من شك في أن لاختيار الألفاظ في المقامين دوراً رئيساً في هذا الأداء ، الذي اختلف وقعاً وتأثيراً .

ففي مقام الترغيب تشيع ألفاظ النعيم والبهجة والسرور ، واللذة (حدائق ، أعناب ، كواعب ، كأس ، فاكهة ، حور عين ، اللؤلؤ المكنون ، سلاما سلاما ... إلخ) .

أما في المقام الأول ، مقام الإنذار والتخويف ، فهناك ألفاظ مثل : (قتل ، سأرهقه ، عبس ، بسر ، سأصليه ، سقر ، لظى ، نزاعة للشوى ، هلوغا ... إلخ) .

ونحن نحس هذا الفرق في التأثير الأسلوبي حين نقرأ فيما أعده الله للمكذابين ، في مقابل ما نقرأ فيما وعد الله به المؤمنين ، فللكافرين يقول الله تعالى (سورة النبأ ٢١/٧٨ - ٣٠) : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَأْبَا * لَا يُبْثِنُ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾

فإذا تذكرنا ما أوردته هذه السورة نفسها من وصف النعيم الذي أعد للمؤمنين : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ... ﴾ إلى آخر الآيات ، أحسنا بمدى اختلاف التأثير الأسلوبي ، لاختلاف المقامين ، مع اتحاد الإطار التعبيري فيهما تقريباً ، فكلاهما يعتمد على قصر الآيات ، وموسيقى السجع ، والأزدواج ، والموازنة ، وهذا من دقيق سر الإعجاز في الأداء القرآني .

بل إن هذه المقومات الأسلوبية أو الوسائل التعبيرية ، أو الإطار التعبيري العام ، يستخدمه القرآن - تقريبا - في موقف آخر من مواقف الدعوة الإسلامية في مكة ، لتحقيق لون آخر من التأثير النفسى والعاطفى ، أعنى موقف التبصرة ، ولفت النظر إلى آيات الله فى الكون ، وفى الخلق ؛ بغية تسديد خطى الدعوة ، وبث اليقين فى قلوب أتباعها .

وفى السور المكية - وبخاصة القصار منها - كثير من آيات الله الدالة على وجوده ، وعظيم قدرته ، وبديع صنعته :

فلننظر فى قوله تعالى (سورة الغاشية ١٧/٨٨ - ٢٠) :
﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

وقوله (سورة الواقعة ٦٣/٥٦ - ٧٤) : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَّلْنَا * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُعْرِضُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ، أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ، وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقوله (سورة القيامة ٣٦/٧٥ - ٤٠) : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ، فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ .

وقوله (سورة النازعات ٢٧/٧٩ - ٣٣) : ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ
السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا *
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أُرْسَاهَا
* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

فقصر العبارة ، وغلبة السجع ، وتوازن الجمل طابع عام للأداء
التعبيري في هذا المقام أيضاً ، وهو نفس الطابع الأسلوبي في الموقفين
السابقين - تقريبا - غير أن التأثير الأسلوبي هنا يختلف عنه فيما سبق .

فهنا اتجه إلى العقل قبل العاطفة ، وقصد إلى غرس اليقين في العقول
والقلوب معاً ، قبل أن يكون إثارة للانفعال ؛ ولذا تدخل بعض العناصر
الأسلوبية في الأداء ، وتبرز بروزاً واضحاً ؛ لتؤدي دوراً إيجابياً في بث
اليقين ، وهدى العقول ، نذكر منها أسلوب الاستفهام الإنكاري (أنتم
أنشأتم شجرتها ، أنتم أنزلتموه من المزن ، أنتم تزرعونه ، أنتم أشدُّ خُلُقًا ، أيحسب
الإنسان أن يترك سدى ؟) ، والاستفهام التقريري (ألم يك نطفة ؟ أليس ذلك
بقادر على أن يحيى الموتى ؟) ، والاستفهام للتنبيه ولفت النظر ، مع شيء من
التقريع (أفلا ينظرون إلى الإبل ... وإلى السماء ... وإلى الجبال ... أفأرأيتم الماء
الذي تشربون ... أفأرأيتم النار التي تورون ... إلخ) .

على هذا النسق البديع تجرى جميع السور المكية - تقريبا - في بداية
الدعوة الإسلامية ، حيث اقتضت ظروفها ومواقفها وعيها لمن عاندها
وحاربها ، ووعداً وبشارة لمن استجاب لها وآمن ، وتبصرة وإرشاداً لدعم
اليقين بها ، واجتذاب العقول الحرة المنصفه إليها .

فإذا انتقلنا إلى الأسلوب القرآني في السور المدنية ، وجدناه يختلف
عن الطابع العام للأسلوب المكي ، ففي المدينة ، وضعت أنظمة الحياة
الإسلامية ، واستقر الدين الجديد - إلى حد ما - في قلوب الناس ، وكثر

أتباعه ، واحتك أهله بطائفة من أهل الكتاب في المدينة وحواليها ، وهم اليهود ، فكان على القرآن أن يراعى كل هذه الظروف والأحوال ؛ ولذا نجد أسلوبه يتحول من الثورة على مشركى مكة ، إلى الاحتجاج والجدل ، الممزوجين أحيانا بلون من التقريع والتهكم ؛ إذ كان القصد أخذ هؤلاء اليهود بالحجة ، والكشف عن ضلالهم بالتدليل ، وأحيانا بالتقريع ، كما نجد هذا الأسلوب يأخذ في مواقف أخرى طابع البيان الهادىء ، الذى يميل إلى البسط المناسب لتفصيل الأحكام ، وتبيين الحدود وسن الشرائع .

وجملة القول : أننا نحس عند مقابلة الأسلوب القرآنى في السور المدنية بعامة ، بالأسلوب القرآنى في السور المكية ، نحس بتغير النفس ، لتغير المكان والحال ؛ حيث تكثر في الأسلوب المدنى الحجج الباهرة ، والبراهين القاطعة ، والعبارات الطويلة الهادئة ، المناسبة لمقامات الاحتجاج والجدل والتشريع وما تتطلبه من بسط وتفصيل .

ولتوضيح ما ذكرنا ، نسوق بعض الأمثلة من آى القرآن في السور المدنية ، يقول الله تعالى (١) :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْتَنُّهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

ويقول سبحانه (١) :

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
ويقول سبحانه (٢) :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ ؛ يُغْشَى اللَّيْلُ الْأَنْهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فالملاحظ في هذه الآيات وغيرها من السور المدنية أنها تتسم بالهدوء ؛ لأن المقام يتطلب هدوءاً وتأملاً ، وفضل تدبر ، وخاصة في الآيات التي تدعو إلى إعمال الفكر ، وفي القصص والأخبار والأحكام ، وأكثر ما جاء ذلك في السور المدنية .

فإذا قابلنا بين هذه الآيات ، والآيات المكية السابقة ، أحسننا بالانتقال من حال إلى حال ، لا من حيث التركيب البياني ورعته ، ولكن

(١) سورة البقرة : ٢٥٨

(٢) سورة الرعد : ٢ - ٤

من حيث الانفعال ، وحرارة العبارة ، فالعبارة هنا طويلة النفس ، هادئة ، تتخذ طريق البرهان ، إفحاماً للخصم ، وإلزماً بالحجة ، ومثل هذا الأسلوب كثير في السور المدنية .

وليس معنى هذا أن الأسلوب في السور المدنية خلا تماماً من الطابع الخطابي ، الذى يندفع فيه الكلام اندفاعاً ، فى قوة وعنف ؛ فإننا نرى مثل هذا الأسلوب فى بعض مواقف السور المدنية ، ولكننا هنا نتحدث عن الطابع العام لكل من الأسلوبين .

فالقرآن لم يلزم طريقة أسلوبية واحدة ، وإنما اختلف فيه الأسلوب باختلاف الظروف ومقتضيات الأحوال ، فهو : « يعطى لكل حالة ما يناسبها من الإيجاز أو الإطناب ، الذكر أو الحذف ، التقديم أو التأخير ، الهدوء أو الانفعال ، كل ذلك فى سبك محكم ، وإنشاء بديع ، وبيان سام رفيع ^(١) .

وهذا الاختلاف الذى يلاحظ بين الأسلوب المدنى والأسلوب المكى فى القرآن ، لا يرجع إلى القيم البلاغية ، وفن الجمال الأدبى لكل منهما ، فالقرآن فى هذه القيم البلاغية والجمالية نسق واحد ، يتسم كله بالإعجاز ، وكمال البلاغة ؛ ذلك أنه كله من عند الله ؛ ولذا فهو وحدة فى روحه ، وفى إعجازه ، مهما اختلف تنزيل سوره ، ومهما اختلفت موضوعات السور ، ومذاهب القول فيها .

(ح) منهج القرآن فى نظم كلامه :

ومن الظواهر الأسلوبية الهامة فى القرآن ، اعتماده أسلوباً خاصاً فى النظم ، يخالف ما كان عليه العرب فى نظم كلامهم ، فالأساليب التى كانت معروفة للعرب لا تخرج عن ثلاثة :

(١) النثر الفنى (بليغ) ٦٠

الأسلوب المرسل ، والمسجع ، والموزون المقفى (الشعر) .
وقد اختار القرآن أسلوباً يجمع بين مزايا هذه الأساليب ، ويبرأ من عيوبها ، فالأسلوب المرسل يناسب الطبع ، ولكنه لا يطرب الأذن ؛ لفقده عنصر الموسيقى ، والأسلوب المسجع ، وكذلك أسلوب الشعر ، غنيان بالموسيقى ، ولكنهما مثقلان بسلاسل وقيود ، قد تضطر الساجع أو الشاعر إلى بتر الفكرة ، أو الزيادة فيها ، جرياً وراء سجة أو روى ، أو محافظة على الوزن .

وفي هذا يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب (١) : « على أن النسق القرآنى قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً ، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة ، والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر ، الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن ، التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفيه التى تغنى عن القوافى ... فشمل النثر والنظم جميعاً » .

ولسنا بهذا ننكر اعتماد القرآن أسلوب السجع فى بعض آياته وسوره ؛ إذ لا يعيب الأسلوب القرآنى أن يكون بعضه مسجوعاً ، ولكننا مع هذا نؤثر أن نستخدم كلمة « الفاصلة » أو « الفواصل » بدلا من كلمة « السجع » إلماعاً إلى أن هذا اللون من الأسلوب ، يغير نسق السجع الذى عهده العرب فى كلامهم ، واقتدروا عليه .

والحق أن السجع القرآنى فريد فى بابه : « يمتاز بأنه يحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق ، ويخضع كل منهما للآخر فى إعجاز بين لا ينكر ، وذلك أن سجعاته متعانقة مع ما قبلها ، مستقرة فى مواضعها ،

كفيلة بروعة المعنى وجمال الصورة ، واتزان النطق ، وتجانس الجرس ، وحلاوة الوقع ؛ ولهذا ترشد الآيات إلى فواصلها ، ويتوقعها من له عرق في الأدب وذوق ^(١) .

ومما يروى في مقام الاستدلال على صواب هذا الحكم ، قول زيد بن ثابت رضي الله عنه : « أُملي علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ^(٢) :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

فعند ذلك قال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ فضحك رسول الله ، فقال له معاذ : مم ضحكك يا رسول الله ؟ فقال : بها ختمت ^(٣) .

وهكذا القرآن كله ، محكم اللفظ والمعنى ، تتعانق ألفاظه ومعانيه تعانقاً قوياً ؛ ومن أجل هذا لا يكاد السامع المتدبر المتذوق ، والقارئ الفطن ، يسمع آية أو يقرأها ، وهي مختومة بغير ما نزلت به ، حتى ينكر ما سمع أو ما قرأ .

فقد سمع أعرابي قارئاً يتلو قوله تعالى ^(٤) : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ تلاها هكذا

(١) من مقالة للدكتور أحمد الحوفي بعنوان (سجع القرآن فريد) : مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ م ص ٩٥ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤

(٣) الإتيان في علوم القرآن : السيوطي ١٧٠/٢ (مطبعة حجازي - القاهرة

١٣٦٨ هـ) .

(٤) سورة البقرة : ٢٠٩

﴿ فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم ﴾ فقال الأعرابي : هكذا لا يكون ، إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلزال (١) ؛ لأنه أدرك بيديته أن ختام الآية بالمغفرة والرحمة لا يناسب الزلزال المتعمد بعد الوعيد والوعد ، وبعد بيان الشر والتحذير منه ، وبيان الخير والحث عليه ، وإلا كان اقتران الغفران بالزلزال إغراء به ، وتهويناً من شأن العقاب (٢) .

وقال بعضهم : كنت أقرأ قول الله تعالى (٣) : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقرأته (والله غفور رحيم) وبجانبى أعرابى ، فقال : كلام من هذا ؟؟ فقلت : كلام الله ، قال : أعد ، فأعدت ، فقال : ليس هذا كلام الله ، فانتبهت فقرأت (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابي : أصبت ، هذا كلام الله ، فقلت : أتقرأ القرآن ؟؟ قال : لا ، فقلت : من أين علمت ؟؟ فقال : يا هذا ، عز فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم ما قطع !!

وسواء أصبحت هذه الروايات أم لم تصح ، فإننا نشعر هنا بما بين الفاصلة والآية من ارتباط قوى لا ينفصم ؛ إذ يشتد تمككها في مكانها ، حتى إن الآية لتوحى بها قبل نطقها ، كما رأينا في الأخبار السابقة ، وكما نرى مثلاً في الآيات التى تنتهى بوصفه سبحانه وتعالى بالحكمة ؛ حيث نجد فيها ما يطلب هذا الوصف بعينه ويناسبه ، ويرتبط به .

ولنأخذ من هذه الآيات قوله تعالى (سورة البقرة ٢/٢٢٠) :

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ٣٣٩/٢ (طبعة السندوى - القاهرة ١٩٢٢ م)
والإتقان للسيوطى ١٧٠/٢ .
(٢) سجع القرآن فريد (الحوفى) ٩٩
(٣) سورة المائدة : ٣٨

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فالمقام مقام تشريع وتحذير ، وهو يستدعى عزة المحذر ، وحكمة المشرع .

وقوله تعالى (سورة البقرة ٣١/٢ - ٣٢) : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فالمقام مقام تعليم ، وهو نعمة يمنحها الله من يشاء ، ويحرم منها من يشاء ، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم والحكمة .

وقوله تعالى (سورة آل عمران ٦/٣) : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فالتفرد بالالوهية ، والتصرف المطلق في اختيار ما يشاء ، ثم تصوير الجنين على صورة خاصة ، كل ذلك يستدعى وصفه سبحانه وتعالى بالعزة والحكمة .

وهذا التناسب بين مضمون الآية وختامها في القرآن محقق في كل موضع منه ، فلا قلق أو اضطراب أو إكراه للكلمات في مواضعها طلباً للسجع (١) .

فالسجع القرآني يمتاز عن السجع الذي ألفه العرب من وجوه ، عجز بلغاؤهم عن محاكاتها ، وانقطعت بلاغتهم دونها ، نوجز منها هنا : أن كل سجعة في القرآن نازلة في موضعها ، ملائمة لموقعها ، بريئة من التكلف ، يطلبها المعنى فتنهض به خير نهوض ، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار ، لضرورة السجع .

(١) للاستزادة ، انظر : من بلاغة القرآن ص ٧٧

بعد هذه اللوحة الموجزة عن السجع القرآني ، وما امتاز به عن السجع المألوف عند العرب ، نعود لنقول : اختار القرآن نظام الموازنة والفواصل (١) .

ويقصد بالموازنة : أن تكون الكلمات الأخيرة من الآية على وزن واحد ، مثل : سميع ، عليم ، بصير ، قدير ... إلخ ، وبالفواصل : أن تتفق تلك الكلمات في الوزن ، كما تتفق أواخرها في الحرف ، مثل : صدرك ، وزرك ، ظهرك ، ذكرك .. إلخ .

ولا يخفى ما في ذلك من إيقاع موسيقى ، تتعدد ألوانه ، ويتناسق مع مقامات الكلام ، فيؤدي وظيفة أساسية في البيان ، فضلاً عما فيه من إرضاء الأذن العربية ، التي ألقت موسيقى الشعر .

ويحرص القرآن الكريم على هذا النسق الموسيقي ، الذي يلاحظ دائماً في بناء النظام القرآني ، في السور القصار والطوال ، على درجات متفاوتة .

وملاحظة ائزان الإيقاع الموسيقي في الآيات والفواصل القرآنية ، تبدو واضحة في كل موضع ، وعلى نحو من الدقة يثير الدهشة حقاً .

ومن دلائل هذه الدقة ، أن يعتمد القرآن إلى العدول عن الصيغة القياسية للكلمة إلى صيغة خاصة ، أو أن يبني النسق على نحو يختلف إذا حدث فيه تقديم أو تأخير ، أو عدل أدنى تعديل ، كل ذلك تحقيقاً للانسجام الموسيقي بين الفواصل .
فنأخذ مثلاً ، قوله تعالى (٢) :

(١) راجع مزيداً من التفصيل في هذا النظام في : أثر القرآن في تطور النقد ٣٦٩ وما بعدها .

(٢) سورة الشعراء : ٧٥ - ٨٢

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ .

فقد اختلست ياء المتكلم في كل من (يهدين - يسقين - يشفين - يحيين) حتى يتفق إيقاعها الموسيقي مع (تعبدون - الأقدمون - العالمين) قبلها .

ولا يفوتنا أن ننبه إلى الدقة في استخدام الفعل في هذه الآيات ، فقد عبر القرآن عن الخلق بالفعل الماضي (خلقني) وعما عداه بالفعل المضارع ، لأن الخلق لا يحدث إلا مرة واحدة في حياة الإنسان ، وأما الهداية ؛ والإطعام والشفاء من المرض فهي متكررة في حياته ، ومعلوم أن الفعل الماضي يدل على حصول الحدث ولا يفيد استمراره ، أو تكراره ، بخلاف الفعل المضارع الدال على ذلك .

ويلاحظ أن القرآن لم يتقيد دائماً بالوزن الواحد ، والفاصلة الواحدة ، من أول السورة إلى آخرها ، فهو يميل إلى وزن معين يختاره ليسيطر على الجو الموسيقي للسورة ، ثم يورد الفواصل متفقة مع هذا الوزن ، ولكنه لا يتعسف ، بل ينوع الفواصل أو الأوزان ، إذا اقتضت ذلك أجواء الكلام ومعارضه ^(١) ، نرى هذا - مثلاً - في سورة (ق) وفي سورة (الطارق) .

(١) ذهب الدكتور طه حسين إلى أن اتحاد الفواصل أو تعددها في السورة الواحدة من سور القرآن ، يخضع لأمر ، أهمها : نزول السورة جملة أو منجمة ، فالسورة التي نزلت جملة ، تتحد فواصلها ، وتتداعى موضوعاتها تداعياً شديداً ، والتي نزلت منجمة تتعدد فواصلها ، وتختلف موضوعاتها ، أما الأستاذ سيد قطب فيرى أن تعدد الفواصل في السورة الواحدة قد يعنى تعدد الموضوعات ، أو الانتقال من غرض إلى آخر ، كما يعنى تغير =

ففى السورة الأولى : نرى أن الأسلوب يمزج بين الفواصل والموازنة ، مزجا حرا ، يجرى مع الطبع ، ويبعد عن التكلف ، فالوزن السائد فى السورة هو وزن (فعيل) و (فُعول) والفاصلة الغالبة مبنية على حرف (الدال) ولكنها تبدو وتختفى ، وتحل محلها مفردات أخرى ، لا يربطها بها إلا الوزن .

وقد يتغير الوزن والفاصلة فى السورة الواحدة ، كما نرى فى السورة الثانية : فقد تأتى الفواصل على وزن (فاعل) مع تنوع الحرف الذى تبنى عليه هذه الفواصل ، فيكون (قافا) مثل : الطارق - دافق . أو (راء) مثل : قادر - ناصر - أو (باء) مثل : الثاقب ، وقد تأتى الفاصلة على وزن آخر مثل (فَعْل) مع حرف (العين) مثل : الرجع - الصدع ، أو (اللام) مثل : فصل - الهزل ، وقد تأتى على غير هذين الوزنين الغالبين ، وهكذا تنوع الفواصل فى السورة تنوعاً يجمع بين تحقيق قيم الجمال الموسيقى ، والبراءة من الرتابة .

ونظام الموازنة والواصل ، الذى يشيع فى أسلوب القرآن ، يأتى متلاحقاً متدفقاً فى السور المكينة القصيرة ، التى نزلت فى أوائل الدعوة ، التى قصد بها التأثير على المخالفين ، ففيها تقصر الجمل - كما قدمنا .

أما فى السورة المدنية ، حيث اتجه القرآن إلى التشريع ، بعد أن استقرت الدعوة - نوعاً ما - وخفتت أصوات المعاندين ، واحتيج إلى مجادلة اليهود ، وغيرهم من أهل الكتاب ، فإن الفواصل والموازنة بين آخر الآيات ، تأتى متباعدة ، تعوزها الكثرة والتدفق ؛ لطول الآيات من ناحية ، وميلها إلى الانفعال الهادىء من ناحية أخرى ، ولكنها فى كل حال لا تتخلى عن الإيقاع ، الذى قد يتوارى قليلاً أو كثيراً ، إلا أنه يظل ملحوظاً دائماً .

= الموقف الانفعالى من حيث الشدة واللين ، ولكنه يعترف أن هذا ليس مطرداً فى كل الحالات . لمزيد من التفصيل انظر : مرآة الإسلام ١٠٦ - ١٨٩ ، والتصوير البياني فى القرآن

(د) لمحة عن أسلوب القرآن في التصوير البياني :

ونختتم هذه اللمحة الموجزة عن أسلوب القرآن ، بالإشارة إلى أسلوب شائع آخر في النسق القرآني ، أو كما يقول عنه بعض الباحثين : « الأداة المفضلة في أسلوب القرآن » ^(١) ، ونعني به أسلوب التصوير البياني ^(٢) .

وأسلوب التصوير البياني في النسق القرآني ، ليس مجرد حلية من حلي الأساليب ، ولا فلتة من فلتات البلاغة ، تقع حيثما اتفق ، وإنما هو منهج مقرر ، وخطة موحدة ، وأداة للتعبير مقصودة ، ومحسوبة بدقة ، تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، وهي إلى جانب هذا خصيصة شاملة ، وأسلوب معين يستخدم بطرائق شتى ، وفي أوضاع مختلفة ومعارض متعددة .

والمتتبع لهذا الأسلوب في الأداء القرآني ، يقف على ظاهرة عجيبة حقاً ، تملأ النفس روعة ، وتوقفها على سر من أسرار الإعجاز في تعبير القرآن .

فللقرآن الكريم أسلوبه الخاص في انتقاء أدوات التصوير وتنويعها ، ودقة استخدامها ، فهو يصور باللون ، وبالحركة ، وبالإيقاع ، وأحياناً بالوصف والحوار ، وجرس الكلمات ، ونظم العبارات ، وموسيقى السياق ، وقد تتعاون بعض هذه الطرائق على تصوير الموقف ، أو الحادثة ؛ لتبرزها متعة تملأها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان ، وهي فوق كل

(١) التصوير الفني في القرآن ٢٩ .

(٢) في مقدمة ما اعتمدنا عليه في دراسة هذا الأسلوب : القرآن والتفكير (الحوفي) ١٧ - ٨٦ ، والتصوير الفني في القرآن (سيد قطب) ٢٩ وما بعدها .

هذا منبعثة من المواقف ، متساوقة مع الأحداث ، ملائمة تماما لما توحى به هذه المواقف والأحداث من انفعالات .

أما ظاهرة الشيوع في استخدام التصوير البياني في الأداء القرآني ، فهي حقيقة مؤكدة ، يدركها كل قارئ في القرآن ، له إلمام بهذا الأسلوب الفني ، وشاهدنا على ما نقول هو القرآن كله ، حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنساني ، أو حادثة واقعة ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ، وحينما يريد ضرب المثل في جدل أو محاجة ، أو سوق الدليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، أو يقرب صورة البعث إلى الأذهان ، أو يكشف عن حقائق يجب ألا يشك في صدقها عاقل ... أو غير ذلك ، مما قد نعجز عن مقارنة جملة فصلا عن حصوه .

ولن يطبق المقام هنا إيراد الأمثلة والنماذج ، لكل ما ذكرنا من ألوان التصوير البياني في القرآن وأغراضه ، فذلك مطلب تفرد له الدراسات ، وتقتصر عليه ، لا تتجاوزه .

وحسبنا بعض الأمثلة القليلة ، نلفت بها النظر إلى هذا الأسلوب القرآني :

١ - القرآن الكريم يمقت الرياء ، ويحذر منه باعتباره داء من أدواء الخلق ، ورذيلة من رذائله ، تشين الإنسان ، وتجبط ثواب أعماله عند الله . وفي القرآن كثير من الصور التي تعبر عن موقفه من هذا الخلق ، وتكشف عن نتائجه .

من ذلك قوله تعالى (١) :

(١) سورة البقرة : ٢٦٦

﴿ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ !! كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

فالآية تصور حال من عمل أعمالاً طيبة ، لا يقصد بها وجه الله تعالى ، وإنما يرمى إلى غرض من أغراض الدنيا ، كحسن الأحدوثة بين الناس ، أو كسب منزلة مرموقة بينهم ... فإذا بأعماله هذه تكون وبالا عليه ، وتبرز الآية هذه الصورة بتمثيلها بحال من يحوز حديقة ذات خصب وغماء ، مأوها غزير ، وظلها ظليل ، وثمرها كثير ، وقد أظلتها الشيخوخة فأقعدهت وأوهنته ، وله أبناء صغار ضعفاء ، فهو في أشد الحاجة إلى غلة حديقته ، ولكنه في هذه الحال ينظر فإذا حديقته رمادا تذروه الرياح ، فقد أصابتها صاعقة (الرياء) فأحرقتها ، كما أتى الرياء على ثواب عمل نظيره فأبطله ومحاه .

٢ - ومن ذلك عاقبة الصدقة تبذل رياء ، وتتبع بالمن والأذى ، فإنها لا تثمر ثواباً ، ولا تعقب قبولاً عند الله والناس ، فبذلها وعدمه سواء .

يصور القرآن الكريم هذا المعنى الذهني ، في قوله تعالى (١) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَتَرَكَهَ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ .

هنا نتخيل هيئة صخرة صلبة مستوية ملساء ، عليها قليل من التراب ، يصيبها مطر غزير ، فلا تهتز لها تربة ، ولا تستجيب فتخصب ، كما تهتز التربة الصالحة وتستجيب ، بل ينزاح عنها السيل حاملاً معه ترابها القليل ، ويتركها صلداً ، لا يرجى منها أى خصب أو نماء .

وينبغي أن نلتفت إلى الدقة البالغة في التعبير بلفظة (وابل) ، وقيمتها في إبراز مدى اليأس من توقع السماء والخصوبة من هذه الصخرة ؛ لاستحالة ذلك مع هذا الوابل ؛ لهذا أثر القرآن هذه الصورة من صور المطر (فأصابه وابل) ولم يقل (مطر) أو (ماء) مع أن القليل منهما كاف لإزالة ما فوق الصفوان من تراب خفيف .

٣ - على أن لصورة الصدقة وجهاً آخر ، وهو وجهها المقابل للصورة السابقة ، وجه خير مشرق مثمر ، عامر بالخير والخصوبة ، يعبر عنه القرآن - عقب الصورة السابقة - في صورة أخرى (١) :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِئَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ ... ﴾ .

فالصدقة هنا غيرها هناك ، تلك بذلت رثاء الناس ، وهذه ابتغاء مرضاة الله ؛ ولذا اختلفت العاقبتين ، واختلفت تبعاً لذلك عناصر الصورتين .

هي هنا كالجنة ، وهناك كحفنة من تراب ، وهي هنا جنة فوق ربوة تزيدها خصباً ونماء وبهاء ، وهناك تراب على صفحة صفوان .

والوابل عنصر مشترك بين الصورتين ، ولكن شتان بين أثره هنا ، وأثره هناك ، هو هنا يربى ويخصب ، وهناك يحو ويمحق ، هو هنا يصيب

الجنة ، فتهتز ترتبها ، وتوثى أكلا مضاعفاً ، أما هناك فلا أكل ، ولا أمل في مجرد الإنبات ، فضلاً عن الأكل .

وفي الصورتين - وفي التصوير القرآني كله - تناسق عجيب مذهش ، يبدو في تماثل الجزئيات ، وفي توزيع هذه الجزئيات ، ودقتها في تمثيل المعنى المصور .

فالصفوان قد غشى بطبقة رقيقة من التراب ، وهو مثل للنفس الشريرة تغشها الصدقة المبلولة رياء ، فالرياء ستار رقيق ، وراءه قلب شرير غليظ ، والمناسبة بين الجنة فوق الربوة ، والنفس الخيرة ، والقلب العامر بالخير ، لا تخفى على من له حظ من الفطنة ، والذوق الفني .

٤ - وهاك لونا آخر من التصوير ، في غرض آخر ، يمثل صورة العالم الجاحد ، الذي لا يعمل بعلمه ، ولا ينتفع به في سلوكه ، فقد هيئت له المعرفة والهداية ، ولكنه يتخذ إلهه هواه ، فيبسط به إلى درك الجهل ، وكأن المعرفة لم تهياً له قط ، فيظل مطارداً بهموم نفسه ، وأثقال هواه ، فلا هو استراح بالغفلة ، ولا استراح بالمعرفة :

فلنتأمل هذه الصورة الدقيقة الرائعة (١) :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ ، أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا .. ﴾ .

فالصورة تحقق غرضاً دينياً ، بتمثيل هذا العالم الجاحد بالكلب ،

قذارة وحقارة ، كما تحقق غرضاً فنياً بالتشخيص ، وبالحركة ، وبإيراد صورة معهودة للكلب الذى يلهث دائماً ، طورود أم لم يطارد ؛ ليكون تثبيت المعنى المراد من ورائها أشد وأقوى .

ولا يخفى مافى الصورة من تناسق دقيق بين المعنى والعبارة عنه ، ومن تنوع فى وسائل التصوير ، حتى اللفظة تؤدى دورها فى الصورة بدقة عجيبة ، كما نرى فى (انسلخ - لرفعناه - أخلد - يلهث) .

وهكذا يتعانق الغرض الدينى مع الغرض الفنى فى هذه الصورة ، وفى كثير من الصور القرآنية .

ونبرز هذه الدقة التصويرية أيضاً فى قوله تعالى (مره الجمعة ٥/٦٢) : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِغَيْرِ مَثَلٍ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ .

فالقرآن هنا لا يكتفى بذكر المشبه به ؛ لإبراز صورة المشبه ، بل يقيد المشبه به بالوصف المناسب (يحمل أسفاراً) حتى تبدو الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، فقد يترأى لنا أنه يكفى فى التصوير هنا أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل ، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ، ولا يدرى مما ضمته شيئاً ، فتأم الصورتين يأتى من هذا القيد ، الذى جعل الصلة بينهما قوية وثيقة .

وقد يعتمد القرآن على الإيحاء النفسى فى تركيب الصورة ، واختيار عناصرها ، وأداء وظيفتها التأثيرية المطلوبة .

فالمعلوم أن التعبير بالصورة إنما يأتى لخدمة المصور (المشبه) إبرازاً له ، وتوضيحاً ، وهذا المصور قد يكون معقولاً فيجسمه التصوير ،

أو محسوساً فيزيدياً إيضاحاً وإبرازاً ، وهذا كله يقتضى أن يكون المصور به (المشبه به) معلوماً مدركاً بالحس أو بالعقل ، حتى يمكن أن يؤدي وظيفته في التصوير ، وهى إيضاح المشبه .

ولكننا نجد في القرآن تصويراً يستوى فيه طرفا الصورة من حيث الجهل بكل منهما ، فكلاهما مجهول لا ندركه بحس ولا عقل ، وذلك كقوله تعالى في وصف شجرة الزقوم وثمرها (سورة الصافات ٦٤/٣٧ - ٦٥) : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُعُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ .

فنحن لم نر طلع شجرة الزقوم ، ولا رؤوس الشياطين ، سواء رؤيا محسوسة أو معقولة ، ولكن القرآن يعتمد هنا ؛ لكي تؤدي الصورة وظيفتها في التأثير ، على ما زيسخ في وهم النفوس من صورة للشياطين بشعة مرعبة ، وهذا الإيحاء النفسى هو الذى يحدث التأثير المطلوب من مثل هذه الصورة التى لا شك تؤثر تأثيراً بالغاً ، فتلقى فيها قدراً هائلاً من الفزع والرغبة .

وقريب من هذا الأسلوب في التصوير القرآنى ، قوله تعالى عن عصا موسى (سورة النمل ١٠/٢٧) : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا ﴾ .

فالمشبه به مجهول ، وهو الجان ، لا يعرفه موسى ، ولكن الخيال الإنسانى قد احتفظ للجن بصورة خارقة للطبيعة ، وبعض جوانب هذه الصورة تمثل الجان شديد الحركة ، لا يكاد يهدأ أو يستقر ، وعلى هذا الإيحاء اعتمد القرآن في تكوين هذه الصورة الدقيقة .

ونقف عند هذا الحد من عرض التماذج والأمثلة لأسلوب التصوير البيانى في النظم القرآنى ، وهو وإن لم يكن وافياً بالغرض ، فهو - على الأقل - بمثابة علامة على طريق الإعجاز القرآنى في هذا الأسلوب .

وإعجاز القرآن بعد هذا كله شئ يشعر به القلب والوجدان ، وتتلئ به النفس ، ويدعن له الضمير ، ويعجز عن وصفه وتحديدده القلم واللسان .

هذه لمحة سريعة لبعض الخصائص العامة للأسلوب القرآنى ، لم نقصد بها تفصيل القول فيه واستيفائه ، كما لم نقصد تتبع مواطن القوة والجمال ، ومظاهر الروعة والإعجاز فى هذا الأسلوب كله ، الحافل بشتى القيم الفنية البديعة ، وضروب الجمال الأدبى المختلفة ، فذلك مطلب عسير فى هذا المجال ، وحسبنا ما ذكرنا دليلا على أن القرآن الكريم واجه العرب بطراز رائع من القول ، ومثال بديع من أمثلة الكلام ، وبفنون مختلفة من الأساليب ، تضافرت فأدهشتهم ، وحيرت أفهامهم .

وجملة القول : أن القرآن الكريم ارتفع باللغة العربية وأساليبيها إلى المستوى الأنوف ، ونشرها فى الآفاق ، وخلع عليها رداء الخلود ، ومن هنا كان تأثيره فى آدابها على مر العصور .

وقد أقبل صحابة رسول الله ﷺ على القرآن ، وأصبح همهم حفظه وتلاوته صباح مساء ، وحرص الرسول وخلفاؤه على نشر القرآن بين المسلمين ، فكانوا يرسلون إلى كل جهة أحد القراء الحفاظ ، ليقرئ الناس القرآن ، ويعلمهم دينهم ، فشغل المسلمون بالقرآن ، وفرغوا له كثيرا « فكان دعاؤهم فى المسجد ، ونظامهم فى البيت ، ومنهجهم فى العمل ، ودستورهم فى الحكومة ، فسرى هديهم مسرى الروح ، ونزل وحيه منهم منزلة الطبع ، وأثر فى ألسنتهم وأفئدتهم ... ما لم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهلهم » (١) .

نعم ، كان القرآن أمامهم المثل الحى ، وموطن المحاكاة والتقليد ، فى كل ما يحاولون من كلام ، أو يريدون من مقال ، ينسجون على غرار بلاغته العالية ، ويقتبسون منه ، ويرصعون كلامهم بآياته .

فإلى أى مدى تأثروا به فى لغتهم وأسلوبهم ؟ فى نثرهم وشعرهم ؟ هذا ما سنحاول استكشافه من خلال دراستنا لأدبهم فى الفصول التالية .

(١) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ٦٠ (طبعة لجنة التأليف والترجمة

والنشر - القاهرة ١٩٣٥ م) .

الباب الأول

النثر في عهد النبوة والراشدين
فنونه - خصائصه

الفصل الأول

أقوال الرسول

تبين لنا مما سبق أن الإسلام وكتابه الكريم ، قد أثرا تأثيراً خطيراً في مختلف نواحي الحياة العربية ؛ فقد جاء الإسلام بدين جديد ، وعقيدة جديدة ، أخذت بيد العرب إلى حضارة روحية سامية ، حافلة بالمثل التي تحدثنا عنها آنفا .

كما كان القرآن نموذجاً رفيعاً للفصاحة والبلاغة العربية ، غنياً باللوان الجمال الأدبي ، ومن شأن ذلك أن يوجه الحياة الأدبية للعرب وجهة جديدة ، يتجلى فيها التعبير الفني الواضح عن أغراضه ومعانيه .

لقد فتح الإسلام أمام المسلمين أبواباً جديدة لفن القول ، تدور حول الدفاع عن دعوته ، والدعاية لها ، والحث على نصرتها ، وحفز العزائم والهمم للجهاد والغزو ؛ لنشر تعاليمها ، ومقاومة خصومها ودحرهم ... فانبعثت من خلال ذلك كله نهضة أدبية ، كان للقرآن الكريم الفضل الأول في توجيهها ، وتهذيبها ، كما كان لأقوال الرسول ﷺ ورسائله ، وخطبه ، ورسائل خلفائه وأصحابه وخطبهم أثر كبير في تقويمها وتطويرها .

- ١ -

ماذا نعني بأقوال الرسول؟؟

يطلق المسلمون على كل ما أثر عن الرسول كلمة (الحديث) ، ويراد بها ما ورد عن الرسول ﷺ من : قول ، أو فعل ، أو تقرير .

ولا يعنينا هنا تناول الحديث من الناحية الفقهية أو التشريعية ؛
فلذلك علماء قد تخصصوا في دراسته ، وأتقنوا بحثه ، وإنما نقصد إلى
الدراسة الفنية لهذه المجموعة الأدبية الخطيرة ، التي وضعها علماء العربية
وآدابها في المقام الأعلى بعد القرآن الكريم .

ولهذا فإن ما يهمننا في مجال دراسة أساليب النثر النبوي وخصائصه ،
هو ما ورد عن الرسول ﷺ مسنداً إليه قوله ، وهو ما أسميناه (أقوال
الرسول) ، أما ما ورد من أقوال الصحابة ، يحكى فعلا من أفعاله ، أو حالا
من أحواله ، أو شأناً من شئون الدين أو الدنيا ، استفادوه من خلال
معاشرتهم إياه ، فلا يدخل في نطاق هذه الدراسة .

- ٢ -

مشكلتان في الدراسة الأدبية للنثر النبوي :

تعرض الدارس للنثر النبوي الشريف مشكلتان :

إحداهما : مشكلة تمييز الصحيح من الموضوع ، من الأقوال
المسندة إلى الرسول ، فقد تأخر تدوين الحديث إلى ما بعد القرن الأول
الإسلامي^(١) ، ويرجع ذلك إلى أن الرسول نفسه لم يحرص على تدوين ما نطق به
من غير القرآن ، بل يقال : إنه نهى عن تدوينه ، خشية أن يختلط
بالقرآن ، وتابعه الصحابة على ذلك ، حتى إن عمر بن الخطاب استشار
أصحاب الرسول ﷺ في تدوين الحديث فأشار عليه عامتهم بتدوينه ،
فلبت شهراً يستخير الله في ذلك ، شاكا فيه ، ثم أصبح يوماً فعدل عن
فكرة تدوينه ، وقال للصحابة^(٢) : « إني كنت ذكرت لكم من كتابة

(١) راجع في تلوين الحديث في عهد الرسول وبعده : فجر الإسلام (طبعة الاعتماد

- الطبعة الثالثة) ٢٢٤/١ - ٢٦٢

(٢) فجر الإسلام : ٢٦٠

السنن ماقد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبو عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

وقد ترتب على تأخر تدوين الحديث ، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ، ونسبته كذباً إلى رسول الله ﷺ ، وكان المجال مهيباً لهذا الوضع في الصدر الأول بعد وفاة الرسول ؛ لكثرة الفتن السياسية والحزبية والمذهبية ؛ ولظهور التعصب للجنس بين طوائف من المسلمين ، عرب وغير عرب ؛ وليل بعض الزهاد والقصاص ، الذين كانوا يجلسون لوعظ الناس مرغبين مرهبين ، إلى الاستكثار من أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب ، وإضافة كثير منها إلى النبي ، ترغيباً في فضائل الأعمال ، وتنفيراً من سيئاتها ، دون أن يجدوا حرجاً في أن يضيفوا إلى النبي ما لم يقل ، ما داموا لا يريدون إلا النصح للمسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والنبي أول ناصح للمسلمين ، وأول آمر بالمعروف ، وناه عن المنكر ، فكل أمر بالخير ، أو نهى عن الشر ، يمكن عند كثير من القصاص أن يحمل على النبي (١) ، وغير ذلك من دواعي وضع الأحاديث ، التي نَجدها في بعض كتب الحديث والأدب واللغة .

وقد عالج علماء الحديث هذه المشكلة ، بالاهتمام بالنظر في الحديث ونقده ، وتمييز صحيحه من زائفه ، عن طريق البحث في رواته ونقدهم ؛ لمعرفة منزلة كل راو من حيث الصدق والكذب ، أو الانحراف عن العدالة في السيرة ، أو ضعف الذاكرة ، أو قلة الثبوت مما يروى ، أو الأخذ عمن لا يصح الأخذ عنه ... ونحو ذلك ، مما يعرف في علم الحديث بنقد السند ، أو الجرح والتعديل .

(١) مرآة الإسلام ٢٣٧

وترتب على هذا المنهج رفض آلاف من الأخبار والأقوال المنسوبة للرسول ، فقد أثبت الإمام محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه أربعة آلاف حديث هى التى صحت عنده من ستمائة ألف قول وخبر ، ونحو ذلك فعل الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه ، ويقول ابن خلدون (١) : « واعلم أن الأئمة المجتهدين ، تفاوتوا فى الإكثار من هذه الصناعة (يعنى رواية الحديث ونقده وتدوينه) والإقلال ، فأبو حنيفة ، يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً ، ومالك إنما صح عنده ما فى كتاب الموطأ ، وغايته ثلاثمائة حديث أو نحوها » .

بيد أن هذا المنهج لم يكن كافياً تماماً فى نقد الحديث ، والتمييز بين الصحيح منه والزائف ، بل أصبح لازماً على دارسى النثر النبوى الاستعانة بالنظر فى نص الحديث ، وشكله اللغوى والإنشائى ، ومدى مسابرة للعقل والمنطق ، ومطابقته لروح عصره وثقافته ، وبراءته من النزعات السياسية والمذهبية ، وموافقته لما جاء فى القرآن وما ألف من سيرة النبى وعمله ، حتى يطمئن إلى أن ما بين يديه من نصوص أقوال الرسول يمكن أن يعد وثائق صحيحة يعتمد عليها فى دراسة النثر النبوى .

وقد يكون من المفيد إيراد طائفة من الأحاديث ، التى ينبغى على الباحث تجنب أمثالها ؛ لمخالفتها المنهج النقدى المتعلق بمتن الحديث :

١ - ينسب إلى عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العربية كلام أهل الجنة ، والعربية كلام أهل السماء ، وكلامهم إذا وقفوا بين يدى الله عز وجل فى الموقف » (٢) .

ففضلاً عما فى هذا الخبر من تكرار غير مفيد ، يبعده عن روح البلاغة النبوية ، فإنه واضح الدلالة على مناهضة الشعبية ، أو هو على الأقل من قبيل الدعاية للغة القومية للعرب .

(١) المقدمة ٤٤٢ (مطبعة التقدم - القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

(٢) التاريخ الكبير (ابن عساكر) ٨٢/٢ (طبعة الشام ١٢٢٩ هـ) .

٢ - ما يروى من أن الرسول قال : « الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » ^(١) فإنه وليد نزعة سياسية مناهضة لحكم بنى أمية ، وإنكار لحق الأمويين في الخلافة .

٣ - وما نسب إلى الرسول ﷺ : « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » ^(٢) ، فهو انتصار للقدرية ضد فرقة الجبرية ، أى أنه وضع في الخصومة بين هاتين الفرقتين .

٤ - ومن ذلك : « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه ... » ^(٣) ، فهو مناهض لأصل من أصول العقيدة الإسلامية ، وهو وجوب الاعتقاد في الله وحده ، وأنه هو الضار والنافع .

٥ - ومن ذلك ما ينسب إلى الرسول ﷺ أنه قال ^(٤) : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » ، فلما عرض هذا القول على عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) أنكرته ، وقالت : اقرءوا قول الله عز وجل : ﴿ ولا تزر وازرة أخرى ﴾ ، أى أن عائشة أنكرت أن يصدر هذا القول عن الرسول ؛ لأنه يعارض نصا قرآنيا صريحا ، وليس معقولا أن يصدر عنه ما يناقض حكما قرآنيا ^(٥) .

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول (ابن الديبع الشيباني) ٣٢٢/١ (مصر ١٣٣٠ هـ) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٦/٢ (المطبعة الميمنية - القاهرة ١٣١٣ هـ) .

(٣) المرجع السابق ، وانظر في كل هذه الأحاديث الموضوعة : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (السيوطي) المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة بلا تاريخ .

(٤) مرآة الإسلام ٣٣٨

(٥) ومع هذا فالحديث في ضمن الأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري في صحيحة ، وللعلماء فيه تأويلات وروايات منها ما ذكره الذهبي في (كتاب الكباير ص ٢٠٢ طبعة الرياض ١٩٧١ م) حيث عدّه من الأحاديث الصحيحة ثم ذكر أنه ليس على ظاهره وإطلاقه بل هو مؤول واختلف العلماء في تأويله على أقوال ، أظهرها - والله أعلم - أنه محمول على أن يكون له سبب البكاء ، إما أن يكون قد أوصاهم به ، أو غير ذلك . ١ هـ .

٦ - ومنه : « لو كان الرز (كذا !!) رجلا لكان حليما ، ما أكله جائع إلا أشبعه » . ولا يخفى ما فيه من سماجة ، وإثارة للسخرية ، مما لا يليق بمقام الرسول الكريم .

ونكتفى بهذا القدر للتدليل على أهمية نقد متن الحديث ، على ضوء الأسس التي أشرنا إليها ؛ تمييز صحيحه من زائفه .

والمشكلة الأخرى : هي ما أثاره بعض العلماء القدماء ، من أن ألفاظ الحديث وعباراته لا يمكن القطع بأنها هي بعينها ألفاظ الرسول ﷺ ، وعباراته ؛ وذلك لجواز رواية الحديث بالمعنى ، لما كان لفظه ليس مقدسا كلفظ القرآن .

وقضية رواية الحديث بلفظه أو بمعناه ، أثارت جدلا طويلا بين علماء العربية ، واحتج كل فريق لمذهبه فيها ، وليس مما يعنينا هنا ، أن نفصل القول في هذه الآراء والحجج ^(١) ، غير أننا نشير إشارة موجزة إلى ما بين أيدينا من أقوال ، تدل على مدى تشدد القوم في إجازة الرواية بالمعنى .

من ذلك قول ابن الصلاح في مقدمته ^(٢) : « ينبغي لمن يروى حديثاً بالمعنى أن يتبعه بأن يقول : « أو كما قال » « أو نحو هذا » وما أشبه ذلك ، من الألفاظ التي تدل على تشكك الراوى في أن لفظة أو أكثر ليست من

(١) انظر - مثلا - في هذه الآراء والحجج : جامع الأصول في أحاديث الرسول (مجد الدين بن الأثير) ٥١/١ وما بعدها (مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٠ م) ، ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ص ٥٩ وما بعدها (طبعة بومباي ١٣٥٧ هـ) ودراسات في العربية وتاريخها (محمد الخضر حسين) ١٦٨ - ١٧٧ (طبعة دمشق ١٩٦٠ م) ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الرافعي) هامش ص ٣٥٧ - ٣٥٩ (مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٥٢ م) .

(٢) ص ١٠٦

كلام الرسول ، روى ذلك عن الصحابة ، عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وأنس ، رضى الله عنهم ، قال الخطيب : والصحابة أرباب اللسان ، وأعلم بمعانى الكلام ، ولم يكونوا يقولون ذلك إلا تخوفاً من الزل ؛ لمعرفتهم ما فى الرواية على المعنى من الخطر .

كذلك يذكر ابن الصلاح : أنه مما يشهد على شدة حرصهم على لفظ الرواية ، أن أكثر الأشياخ كانوا إذا وجدوا فى الرواية لحناً نقلوها كما وصلت إليهم ، ولا يغيرونها فى كتبهم .. وقد وقع ذلك فى الصحيحين والموطأ وغيرها (١) .

كما يذكر ابن خلدون : أن التشدد فى ضبط ألفاظ الحديث ، والتحرى فى نقلها بأعيانها كان شائعاً بين الرواة (٢) .

ويروى ابن قتيبة فى كتابه : (تأويل مختلف الحديث) كثيراً من الأخبار ، التى تدل على حرص الصحابة ، ومن روى عنهم ، على رواية الحديث بنصه الذى سمع من الرسول ﷺ (٣) .

وإذن ، فيمكننا أن نقول : إن أقوال الرسول ﷺ التى يمكن استخلاصها بعد تطبيق المنهج النقدى السابق ، تمثل لفظ الرسول وأدبه ، عن طريق غلبة الظن ، المفضية إلى الاطمئنان النفسى ، إلى أن أكثر ألفاظ هذه الأقوال وعباراتها مما تلفظ به الرسول ﷺ ، ونحن نكتفى بغلبة الظن فى دراسة ما نقل إلينا من إنتاج أدبى عن القدماء ؛ حيث لا يمكن القطع بأن هذا الذى وصل إلينا هو نص ما قاله أدباؤهم ، بدليل وجود الروايات

(١) مقدمة ابن الصلاح : ص ١٠٩

(٢) دراسات فى العربية ١٧١

(٣) انظره ص ٨٨ - ١٠٣ (طبعة الكردى - القاهرة ١٣٣٦ هـ) .

المختلفة للنص الواحد ، فينبغي أن نكتفى بغلبة الظن أيضاً في الدراسة الأدبية للحديث الشريف ، بل هو أولى للتشدد الذي ذكرناه في روايته ، والذي لم ترتفع الرواية الأدبية إلى حده ، بالإضافة إلى ما عرف به أهل الصدر الأول من الحفظ والإتقان .

- ٣ -

مكانة النثر النبوي :

تعد أقوال الرسول في قمة النصوص الأدبية المروية عن عهد النبوة ، بعد القرآن ، فصاحة وبلاغة ؛ لما عرف به الرسول ﷺ من أنه كان أفصح العرب ، وأن فصاحته كانت توفيقاً من الله وتوقيفاً ؛ لأنه سبحانه ابتعته للعرب ، وهم قوم تنقاد أرواحهم لألسنتهم ، فيقادون من ألسنتهم ، وقد وصف الرسول ﷺ نفسه بالفصاحة ، فقال : « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش » وقال : « بعثت بجوامع الكلم » (١) ، وكثيراً ما أدهش أصحابه بفصاحته ، فيروى أن أبا بكر قال له يوماً (٢) :

« لقد طُفْتُ في العرب وسمعتُ فصحاءهم ، فما سمعتُ أفصح منك ، فمن أدبك (أى علمك) ؟؟ فقال الرسول : أدبني ربى فأحسن تأديبى » .

لذا جاءت أقوال الرسول ﷺ ممثلة للبلاغة الإنسانية في قمة بيانها ، ليست وليدة الصنعة والمعاناة ، وإن بدت في إتقانها وعلو طبقتها كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على سهولتها ممنوعة ، بعيدة المنال .

(١) اللؤلؤ والمرجان (محمد فؤاد عبد الباقي) ١١٤/١ (طبعة الحلبي - القاهرة

١٩٤٩ م) .

(٢) تاريخ آداب العرب (الرافعي) ٣٠٩/٢

نعم ، هي : « ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ، ولكنها جاءت من سبيله ... محكمة الفصول ... محذوفة الفضول ... إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء ... ^(١) وهما بعد ذلك كأنهما سواء في سهولة الإطماع ، وصعوبة الامتناع » .

من هنا كان لما أثر عن النبي ﷺ من قول انعكاس واضح على مجالات اللغة والأدب والثقافة .

نعم ، كان تأثير البلاغة النبوية قوياً في أدب هذا العصر ، وبخاصة في باب النثر الفني ، وعلى الأخص في ميدان الخطابة ، حيث أمدت الخطباء بالماعون القوى ، والمدد الفياض ، فتمثلوها ، وحذوا حذوها ، وحاولوا تقليدها ، باقتباس ألفاظها وأساليبها ، وموافقة معانيها وأغراضها ، وسوق الأدلة والبراهين على غرارها ، كما أكثروا من الاستشهاد بنصوصها في ثنايا كلامهم .

ولسنا في هذا الحديث نلقى الكلام على عواهنه ، ونطلق الأحكام جزافاً ، منبعثة عن عواطف المحبة والإجلال للرسول الكريم ، فها هي ذى أقواله ﷺ بين أيدينا شاهد صدق على ما ذكرنا ، وذكر غيرنا من قبلنا ، ممن تذوق حلاوة البلاغة النبوية ، وأدرك سر تفوقها ونبوغها ، من أمثال : أبى عثمان الجاحظ ، الذى يقول عن كلام النبوة :

« هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الرافعى) ٣١٢

الصنعة ، ونزه عن التكلف ... استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن المهجين السوق ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفر بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعاداته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ » (١) .

ولكى تطمئن القلوب والعقول معاً ، إلى صدق ما حدثنا به ورويناه ، عن أقوال الرسول ﷺ ، كان لا بد لنا أن نحتكم إلى أذواقنا ، ومقاييس البلاغة والجمال في لغتنا ، في طائفة من أقواله ﷺ في شتى الأغراض ؛ لنقف من خلال ذلك على بعض مجالى هذه البلاغة النبوية .

وقد حرصنا على اختيار هذه الأقوال ، من جملة ما اتفق على روايته وضبط سنده صاحبها الصحيحين (البخارى ومسلم) ؛ لتكون بريئة من الطعن ، خالية من الشوائب ، واضحة الدلالة على أنها من صحيح ما روى عنه ﷺ ، يدعو به إلى فضيلة ، أو ينهى عن رذيلة ، أو يقرر حكماً ، أو يسوق حكمة ، أو يعالج أمراً من أمور الدين أو الدنيا .

* * *

دراسة نماذج من النثر النبوى :

قال الرسول ﷺ : « لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالاً لَأَحَبَّ أَنْ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ ، وَلَا يَمْلَأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » (١) .

فانظر كيف يتدسس الرسول في النفس البشرية ؛ ليكشف عما ركز في طبعها ، وغرس في جبلتها من حب المال والحرص عليه ، والتهالك على طلبه ، والتطلع الدائم إلى المزيد منه !! وتأمل تعبيره الرائع عن غريزة الطمع ، والضرارة في جمع المال ، حتى لا تقنع عينه بأى قدر منه مهما كثر ، فيستهلك صحة بدنه ، وسنى عمره في طلب هذا العرض الزائل ، مع أن حفته يسيرة من التراب الذى لا قيمة له ولا خطر ، تملأ هذه العين وتفيض !! .

بيد أن الرسول الكريم - وهو الرحمة المهداة من الله إلى عباده - يرشد الإنسان إلى ما يخلصه من إفسار المال ، وذلل استعباده النفوس ، ويأخذ بيده إلى باب الرحمة والخلاص ، الذى إن ولجه في صدق وإخلاص استرد راحة نفسه ، ورضا قلبه ، وفاز بمغفرة ربه وتوفيقه ، فيقول : « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » فمن قاوم هذا الطبع الذميم ، وجاهد نفسه فيه ، وغلبها على هواها ، يسر الله عليه التوبة والبراءة من الطمع ، ووقفه فيها ، وقبلها منه .

وعبارة الرسول بعد هذا تؤدى هذه المضامين ، وتوحى بأكثر منها ، على قلة ألفاظها ، وبراعتها من الغموض والكزازة والحشو ، وسهولة بيانها ، وعلو فصاحتها ، فهى لا تتكلف القول ، ولا تقصد إلى تزيينه ، وتنساب مع ذلك لتعبر عن إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، بحيث يصدر الكلام وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد ، وبراعة القصد .

ومن هذا الباب ما روى عن حكيم بن حزام أنه قال : « سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : « يا حَكِيمُ !! إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِيرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةٍ نَفْسُ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسُ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، كَالَّذِي يَأْكُلُ ، وَلَا يَشْبَعُ ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » (١) .

فقد لاحظ الرسول الكريم أن السائل يلحف في السؤال ، ويوشك أن يتخذ من المسألة باباً للارتزاق ، فأراد أن يرشده بهوادة ولين ، إلى أن ذلك لا يليق بالمسلم ، فالإسلام دين العزة والكرامة ، وهو يريد للإنسان المسلم ألا يريق ماء وجهه في طلب المال ، صوناً لكرامته ، وعزة نفسه .

والرسول في إرشاده الحكيم ، حريص على غرس الخلق الإسلامي في المسلمين ، عن طريق الإقناع ، مستغلاً هذا الموقف من حكيم بن حزام ، وقد سلك في ذلك طريقين : أولهما : الإبانة عن مدى إغراء المال للإنسان ، وشدة تأثيره في اجتذاب النفوس ، وقد أبرز هذا المعنى في صورة قوية معبرة ، جسمته للعيون ، وقربته إلى الأفهام ، بعقد مشابهة بين المال والثمرة اليانعة الناضجة ، فكما أن هذه الثمرة تستهوى النفوس ، وتحرك الرغبة في نيلها والاستزادة منها لحلاوتها ، كذلك المال يفتن النفوس ، فيضعف مقاومتها أمام سلطانه ؛ لأنه زينة تبهر ، وكما أن نهم الإنسان في تناول الثمر اليانع يكون وبالاً على صحة بدنه كذلك حرصه على طلب المال ، والجرى وراء إغوائه ، فيه الخطر كل الخطر على صحة نفسه وكرامته ، بل إنسانيته ؛ إذ ينقلب عبداً للمال ، وكما أذل الحرص أعناق الرجال !!

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣٤٧/١ . إشراف النفس : ارتفاعها وتطلعها ، والمراد هنا شدة الحرص على الطلب ، اليد العليا : مجاز ، والمراد : المعطى ، اليد السفلى : مجاز ، والمراد : السائل .

ولكن المال مع ذلك من المقومات الهامة في الحياة ؛ إذ هو من الدعائم الهامة التي ترتكز عليها معاش الناس في هذه الحياة الدنيا ؛ ولذا نرى الرسول ﷺ يرسم المنهج الصحيح ، الذي ينبغي أن يلتزمه المسلم في سعيه وراء المال ، حيث يوجه السائل إلى أن طلب المال غير محظور ، إذا تخلى الإنسان عن الطمع والحرص والإلحاح في الطلب ، وبذلك يبارك الله له فيما أصاب منه ، وهذه البركة يغدو قليلة كثيراً ، مع وفرة الكرامة ، والحفاظ على العزة ، والتمسك بالثقة في الله ، الذي يرزق ويبارك في الرزق لمن يشاء ، أما التهالك على طلب المال وجمعه فإنه يورث المذلة ، ويطبع النفس على الجشع ، ويجرمها نعمة الرضا ، فهي دائماً في طلب المزيد ، لا يقنعها قدر منه مهما كثر ، تماماً كالذي يأكل ولا يشبع .

والآخر : ذلك الحكم الدامغ الذي أوجزه الرسول في آخر الحديث ، حيث نفر من المسألة ، بجعل المعطى فاضلاً ، موفور الكرامة ، ممتعاً بالعزة ، وعلو المكانة ، وهو بذلك يكون خيراً من السائل .

وهكذا تتجلى البلاغة النبوية ، قدرة فائقة على الإيحاء بالمعاني وإثارتها ، في غزارة وثراء ، بألفاظ قليلة ، وعبارات موجزة محكمة ، خالية من الفضول ، بعيدة عن تكلف الزخرف ، بريئة من معاناة الصنعة ، ومع ذلك فهي تحوى من قيم الجمال الفنى ، وروعة التصوير ، ما يجعلها جديرة باحتلال القمة في عالم البيان ، ويكفى أن نلاحظ هذا التنوع في الأسلوب بين الحقيقة والمجاز ، وهذه الدقة ، وذلك الوضوح في تركيب عناصر الصورة الأدبية ، بحيث تنفذ إلى القلوب ، فتحدث أثرها المطلوب ، في العقل والوجدان معاً ، كل ذلك مع حس لغوى ممتاز في اختيار اللفظ ، ووقوعه موقعه ، ومناسبته لمعناه ، بحيث لا يغنى عنه سواه ، نرى هذا - مثلاً - في التعبير بكلمة (سخاوة) ووضع كلمة (إشراف) في مقابلتها ، وكذلك في المقابلة بين (العليا) و (السفلى) ، ثم انظر إلى حذفه الموصوف في قوله :

« خضرة حلوة » ليطلق لخيالنا العنان ، فيذهب في تخيل العنصر المحذوف من الصورة كل مذهب .

ولعلنا قد لاحظنا أن هذين النصين من أقوال الرسول ﷺ يعالجان موضوعا واحدا تقريبا ، يدور حول وجوب مقاومة هوى النفس في جمع المال ، والرغبة في الاستزادة منه ، وعدم القناعة بأى قدر منه مهما كثر . ولما كان المقام مقام توجيه ، وإرشاد وتهذيب ، فإن الأسلوب في هذين النصين يميل إلى الهدوء واللين ؛ إذ كان القصد اجتذاب النفوس إلى الاستجابة إلى هذا الإرشاد الحكيم ، عن طريق التأثير في الوجدان ببعض العبارات والصور ، التى من شأنها أن تحقق هذا التأثير ، مع إقناع العقول بصواب هذا الهدى النبوى .

من مثل قوله ﷺ فى النص الأول : « ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » فإنه يقوم مقام الدليل والبرهان على بطلان الطمع والجشع فى طلب المال ، وعدم جدواهما فى تحقيق سعادة الإنسان نفسيا ، وصحيا ، واجتماعيا .

كما تقوم الصورة فى النص الثانى : « كالذى يأكل ولا يشبع » بوظيفة هامة فى تأكيد هذا المعنى وإبرازه وتجسيمه للعيان والأفهام .

وفى قوله ﷺ ، « إن هذا المال خضرة حلوة » صورة دقيقة توحى بما للمال من سطوة قوية فى إغواء النفوس ، ودفعها إلى التهالك على طلبه ، والتهافت على جمعه وتثمينه ، وهى بكشفها عن هذه الحقيقة ، وترسيخها فى القلوب والعقول إنما تنبه إلى خطر هذا الإغواء ، وتحذر من الاستجابة إليه ، وتدعو إلى شحذ الإرادة لمقاومته ، وهكذا تتعاون العبارات والصور ، وصولا إلى التأثير فى القلوب ، وإقناع العقول ، بما يتطلبه المقام من هدى وإرشاد .

هذا هو الطابع العام للأسلوب في النصين السابقين ، في مقام التبصرة والتهذيب ، إلى جانب ما سبق أن أشرنا إليه ، من ميل العبارة إلى الإيجاز ، واللفظ إلى السهولة ، والمعاني إلى الوضوح مع البعد عن تكلف الصنعة لزخرفة الكلام .

والقول في هذا الباب يطول ، فيكفي ما قدمنا منه ، ولنتقل إلى حقل آخر من حقول المعاني والموضوعات التي غزاها الأدب النبوي .

قال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لقد هممت أن آمر بحطب فيخطب ، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ، والذي نفسي بيده ، لو يعلم أحد أنهم أنه يجد عرقاً سمياً ، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء » (١) .

فالمقام مقام زجر وتهديد ، لطائفة من الناس ، كانوا يتخلفون عن أداء الصلاة لوقتها مع الجماعة في المسجد ؛ ولذا نجد الأسلوب يأخذ طابع الشدة والعنف ، ويصطنع لذلك الوسائل الفنية المناسبة للمقام ، من اختيار الألفاظ الموحية بمعاني التهديد والوعيد ، وبعواطف الغضب والضيق والسخط ، والعبارات المؤكدة لكل ذلك ، والمعبرة عنه من مثل : (والذي نفسي بيده) وهو قسم عظيم ، يكرره زيادة في تأكيد ما أراد من معان ، ومثل (أخالف فأحرق) مع ما في تضعيف الفعل ، من قوة زائدة في أداء المعنى عن الفعل (أحرق) ثم هذه السخرية المرة ، والتأنيب الموجه لهؤلاء الذين يؤثرون عرض العاجلة ، مهما كان تافهاً حقيراً على ثواب الآجلة . هذا ، على أن للرسول الكريم من الابتكار في اللغة ما أحدث به

(١) اللؤلؤ والمرجان ١٠/١ . العرق . بقيه اللحم ، المرماتان : ما بين ظلف الشاة من

اللحم .

جديداً من الاستعمال في بعض المفردات والتراكيب ، ومن هذا الباب هنا هذا التركيب الجديد في القسم (والذي نفسى بيده) .

وقال ﷺ : « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هِمَّةً وَسَدَمَةً (طَلِبَتْهُ) جَعَلَ اللَّهُ فَقْرًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ » (١) .

أى من جعل متاع الدنيا وزخرفها ولذائذها شغله الشاغل ، فاشتغل بذلك عن العمل لآخرته ، والتزود لها ، عاقبه الله بأن يزيده فقر نفس ، فلا تسد مفاخرة كثرة ما جمع وعدد ، وعظيم مائمه ، فكأنه يرى الفقر بين عينيه فهو أبداً خائف من الوقوع فيه ، والانهاء إليه ، فلا يزال آكلاً لا يشبع ، وشارباً لا ينقع ، فمعه حرص الفقراء ، وله مال الأغنياء .

ولله ما أروع قوله : « جعل الله فقراً بين عينيه » في إبراز المعنى بالمبالغة في وصفه بتصور الفقر ، فكأنه جد قريب منه ، غير غائب عنه .

ومن ذلك قوله ﷺ للشارب والطاعم في آنية الذهب والفضة : « إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » (٢) .

جعل النبي ﷺ جرع الإنسان الماء والتهام الطعام ، في هذه الأواني المخصوصة ، لوقوع النهى عن الشرب والطعام فيها ، واستحقاق العقاب على استعمالها ، كمن يجر في بطنه ناراً ، وقال (يجرجر) طلباً لتضعيف اللفظ الدال على تكثير المعنى ، والمراد : كأنما يتجرع نار جهنم ، تغليظاً للوعيد .

(١) المجازات النبوية (الشريف الرضى) ص ٩٦ الحلبي - القاهرة ١٩٥٥ م .
أخرجه ابن ماجه بنحوه في سننه عن زيد بن ثابت في كتاب الزهد باب الهم بالدنيا ١٣٧٥/٢ هـ ط عيسى الحلبي بمصر .

(٢) أخرجه البخارى عن أم سلمة بلفظه في كتاب الأشربة ، باب آنية الفضة ٩٦/١٠ فتح البارى طبعة السلفية بمصر ، وأخرجه مسلم عن أم سلمة بلفظه في كتاب اللباس والزينة باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة ٢٧/١٤ صحيح مسلم بشرح النووي ط دار الفكر بيروت ١٩٨١ م .

ومن باب الحكمة والنظرة الصائبة :

قوله ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » (١) .

وهي كلمة يعالج بها الرسول داء من أدواء النفس الإنسانية ، كثيراً ما يودي بها ، وهو الغفلة والانسياق مع الهوى ، فالإنسان إذا أحب الشيء أغضى عن مواضع عيوبه ، كأنه لا ينظرها ، وأعرض عن الملام والمعاتب من أجله ، كأنه لا يسمعها ، فصار من هذا الوجه كالأعمى لتغاضيه ، والأصم لتغاضيه .

وعبارة الرسول هنا أجود وأقوى وأدق في التعبير عن المعنى من قول الشاعر : (٢)

وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا
حيث اقتصر البيت على حاسة البصر ، وجعلها ضعيفة ، لا لمحاجة ، كما في قول الرسول ، وزاد النبي حاسة السمع ، فأتى على المعنى من أطرافه ، مع فضل الإيجاز في العبارة .

وهناك طائفة أخرى من أقوال الرسول في مختلف الأغراض والمعاني ، لا يتسع المجال هنا لدراستها وتحليلها ، نورد منها - فوق ما ذكرنا - بعض ما يدخل في باب « جوامع الكلم » .

(١) أخرجه أبو داود في سنة عن أبي الدرداء بلفظه في كتاب الأدب ، باب في الهوى ٣٣٤/٤ طبعة دار إحياء السنة النبوية بيروت ، كما أخرجه أحمد في مسنده عن أبي الدرداء بلفظه ١٩٤/٥ ط المكتب الإسلامي بيروت .

(٢) البيت ضمن أبيات في ديوان الشافعي بتحقيق محمد عفيف الزغبى ص ٩١ ط بيروت ١٩٧١ [ولا أظنها للشافعي] . وهو لعبد الله بن معاوية في زهر الآداب ٨٥/١ والحيوان ٤٨٨/٣ والكامل للمبرد ٢١٢/١ وعيون الأخبار ٧٦/٣

من ذلك قوله ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير » (١) .

وقوله : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (٢) .

وقوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (٣) .

وقوله : « آفة العلم النسيان ، وإضاعته أن تُحدث به غير أهله » .

* * *

(١) اللؤلؤ والمرجان ١٠/١

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢٥١/١

(٣) اللؤلؤ والمرجان ٢٠/١

نظرات فنية في النثر النبوي

(أ) الأغراض والموضوعات :

١ - الإحاطة والشمول :

يستطيع الناظر في أقوال الرسول ﷺ ، أن يدرك ما تمتاز به من إحاطة وشمول ، من حيث معالجتها لشتى الأغراض والموضوعات ، في جوانب العقائد : (إلهيات ، نبوات ، مغيبات ... إلخ) والعبادات : (الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج ، الصدقة ... إلخ) ، وشئون الاجتماع : (المعاملات - الأسرة - الآداب والسلوك والتربية - العلاقات الإنسانية - تنمية الحس الجماعي - محاربة العادات والأدواء الاجتماعية الفاسدة) وضرورات الحياة : (المال - الشراب ، والطعام واللباس ... وغيرها) ونظم الحرب والسياسة ، والوصف ، والحكمة ، والمثل ، والوصايا والعظات ، والحكاية أو الأقصوصة ، وغيرها مما يندرج تحت الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، والوعظ والزجر ، والتشريع والتقنين ، والتمييز بين الخير والشر ، والنفع والضرر ^(١) ، والحلال والحرام ، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة ، التي من شأن صاحب الرسالة أن يضطلع بها ؛ ليسموا بالجوانب الروحية ، والمادية للإنسان .

٢ - التأثير بالقرآن الكريم :

ويلاحظ أن أقوال الرسول ﷺ متأثرة إلى حد كبير بأغراض القرآن وموضوعاته ، والقرآن - كما نعلم - بحر زاخر في هذا الباب ؛ ولذا يقول الرسول الكريم :

(١) الضر : بالفتح وبالضم : ضد النفع ، وبالفتح فقط : مصدر ضر يضر .

« أوتيت الكتاب ، ومثله معه » ^(١) يعنى السنن .

٣ - جدة الأغراض والموضوعات :

كما يلاحظ أن جملة كبيرة من هذه الموضوعات والأغراض ، تعد إضافة جديدة ثرية لمجالات القول ، التي طرقها العرب قبل الإسلام ، ولا عجب ، فقد جاء الإسلام - ممثلاً في القرآن والحديث - بكل ما يعالج شئون الإنسان في حياته العاجلة والآجلة .

(ب) المعانى :

ارتياذ حقول جديدة للمعانى :

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال ، وقد كسا أسامة بن زيد قبطية ^(٢) ، فكساها امرأته ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« إني أخاف أن تصِفَ حَجَمَ عِظَامِهَا » ^(٣) .

وقد علق الشريف الرضى على هذا المعنى بقوله : « ... فكان رسول الله صلى الله عليه وآله أبا عذرة هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك نهجه ، وطلع فجحه » ^(٤) .

وفيما قدمنا من نماذج ، شواهد أخرى من المعانى التي جاءت في أقواله ﷺ ، وكان فاتق أحكامها ، فاقتران الحياء بالخير ، وكون الغنى في

(١) تأويل مختلف الحديث (ابن قتيبة) ص ٢٠٧ .

(٢) قبطية : بالضم على غير قياس : نسبة إلى قبط مصر (بالكسر) صانعوها ، وقد تكسر .

(٣) لم أقف عليه في كتب الصحاح ، وانظر : المجازات النبوية ١٢٩

(٤) المرجع نفسه : العذرة : البكارة .

القناعة والرضا ، وعدم الحرص على المال والجشع .. كل ذلك وغيره ، مما تزخر به أقوال الرسول ، من المعاني التي جاء بها الدين الجديد لأول مرة . وقد أشار بعض العلماء والنقاد ، القدماء والمحدثين ، إلى كثير من المعاني التي تعد بحق حقولا جديدة ، ارتادها الرسول ﷺ في كلامه ، ولم يسبق إليها ، فكانت بذلك روافد ثرة ، أمدت العربية بثروة قيمة من المعاني المبتكرة ، غنمها من بعده أرباب اللسان والقلم ، وزينوا بها نتاج بلاغتهم . ويكفي أن نلمح هنا إلى هذا الفيض من الأقوال ، التي بثها الرسول في ثنايا كلامه ، وسارت من بعده مسرى الأمثال ، وهي في جملتها معان جديدة ، ونظرات صائبة ؛ لأنها إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل .

من ذلك - على سبيل المثال :

« إن المُنبِت لا أرضاً قَطَعَ ، ولا ظَهراً أَبْقَى - كل الصيد في جَوَفِ الفِرا (١) - لا يُلْبِغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ - الأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا - إِنَّ مِمَّا يَنْبُثُ الرِّبِيْعُ مَا يَقْتُلُ حَبْطاً (٢) أَوْ يُلِمُّ - هَدَنَةٌ عَلَى دَخْنٍ (٣) - الْجَارُ قَبْلَ الدَّارِ ، وَالرَّفِيقُ قَبْلَ الطَّرِيقِ » وغير ذلك كثير .

هذا فضلا عما استمده الرسول ﷺ من معاني القرآن الكريم ، المنبع الثمر ، والمعين الذي لا ينضب ، وبخاصة المعاني العقديّة ، والتشريعية ، والتي تتحدث عن الدار الآخرة وما فيها ، وهي في جملتها لم تكن من المعاني المعروفة في نظم الحياة الجاهلية قبل الإسلام .

(١) الفِرا : حمار الوحش ، وكان من أفضل الصيد عند العرب ، والعبارة مثل يضرب للشئ الواحد يجمع فوائد جمة .

(٢) الحَبْطُ : وجع بطن البعير إذا أكثر من أكل الكَلَأ ، فينتفخ منه ، يضرب مثلاً للإسراف في الأمر الذي يؤدي إلى الضرر .

(٣) الدَخْنُ : الدخان ، ومعنى العبارة : إيقاف القتال لعله ، لا لسعي في الصلح ، أو رغبة فيه .

(ج) اللفظ والعبارة :

كان الرسول ﷺ فوق كونه مشرعاً وهادياً ، ومعلماً ، أخلاقياً ، ومصلحاً دينياً واجتماعياً ، فنناً ملهم الحس ، مرهف الذوق ، دقيق الإدراك بمواقع الكلمات ، ووضعها في بيئتها ، واثنائها مع معانيها ، يتمتع بدرجة عالية من الحس اللغوى ، والمزاج الفنى .

أ - مناسبة الألفاظ للمعاني :

في تحليلنا السابق لبعض أقواله ما يشهد لذلك ، ونأتى هنا بمزيد إيضاح لما امتازت به البلاغة النبوية ، من دقة في اختيار اللفظ المناسبة للمعنى ، ووضوح الصلة بينهما ، وبراعة في الملازمة بين الكلام ومعانيه .
روى أبو هريرة أن رسول الله قال : « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ بِجَارِهِ بَوَائِقِهِ » (١) .

فمع إيجاز العبارة وقصاحتها ، نجد أن الرسول قد أجاد اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، كما في إطلاق كلمة (بوائق) التى تحمل معنى الاغتيال والهلاك والفتك ، على ما يمكن أن يؤذى به الجار جاره ، من النظر إلى حريمه ، أو التجسس على أحواله ، أو نحو ذلك مما من شأنه إيذاء الجار .

ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى أن رسول الله قال : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَقْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ » (٢) .

فالتعبير بقوله : (يوشك) يدل على التوقع والقرب ، أى أن الفتن

(١) صحيح مسلم ٦٨/١ (بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٥٥ م) ، البوائق : جمع بائقة : وهى الداهية والفتك .

(٢) صحيح البخارى ٧/١ (طبعة القاهرة ١٩٣٢ م) ، وشعف الجبال : رعوسها .

متوقعة وقريبة ، وقد صدق ، فما هى إلا سنوات بعد وفاته ﷺ ، حتى اندلعت شر فتنة أصابت الإسلام ، وهى التى بدأت بالثورة على عثمان ، وأدت إلى قتله ، وافتراق الأمة شيعاً وأحزاباً .

ثم اختيار كلمة (يفر) التى توحى بصورة الفتن ، وقد أطبقت على المؤمن كأنها السجن ، فهو يجد فى الهرب منها ، فاللفظة دقيقة فى تعبيرها وإيحائها .

يضاف إلى ذلك ذكر (الغنم) خاصة ؛ لما فيها من توفر الحد الأدنى من العيش مع خشونته ، وإمكان الاستغناء بما تمده به من كساء وغذاء .

وتتجلى جودة التعبير عن المعانى أيضاً فى قوله ﷺ : « ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ أَخْفَاهَا ، لَا تَعْلَمُ شِمَالَهُ مَا تَنْفَقُ يَمِينُهُ » (١) .

فالمراد المبالغة فى صفته بكتمان نفقته ، وإخفاء صدقته ، فإذا كانت شماله لا تعلم بما تنفق يمينه ، وهى جارتها وقسيمتها ، ولصيقتها ، فأجدر ألا يعلم بذلك غيرها ، ممن شط داراً ، وبعد جواراً ، والعبارة تصور شدة الحرص على إخفاء الصدقة ، بطريق المبالغة التى لا تخرج بحد المعنى عن المراد ، مع إفهام المطلوب .

ب - ملاءمة الألفاظ بعضها لبعض :

الملاءمة بين الألفاظ سمة من سمات البلاغة النبوية ، لاحظناها عند دراستنا لبعض نصوص أقواله ، ونضيف هنا نموذجاً آخر لهذه الظاهرة :

(١) صحيح البخارى ٨٣/١ ، وصحيح مسلم ٧١٥/٢ . والعبارة قطعة من حديث مروى فيها بتمامه .

روى أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَكَانَ لَهُ مَسْلَحَةٌ مِنْ أَوَّلِ نَهَارِهِ إِلَى آخِرِهِ ، مَا لَمْ يَعْمَلْ يَوْمئِذٍ عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ » (١) .

فإن الرسول لما أقام تلك الكلمات مقام السلاح (وكن له مسلحة) لقائلها ، جعل ما في مقابلتها من إثم موبق بمنزلة القاهر لها ، ملائمة بين صفحات الألفاظ ، ومزاوجة بين فرائد الكلام .

ومن ذلك قوله ﷺ : « الْحَجَرُ يَمِينُ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ صَافَحَهُ بِهَا » (٢) .
فقد عبر عن طاعة الله والقرب منه بكلمة « اليمين » ، ثم جاء بكلمة « صافحه » المناسبة لليمين ؛ ليوفى الفصاحة حقها ، ويبلغ بالبلاغة غايتها .
وهكذا تمضى ألفاظ الرسول وعباراته ، خالية من حرف مضطرب ، أو لفظة مستكرهة مجلوبة لمعناها ، أو كلمة غيرها أتم منها في أداء المعنى .

ج - السهولة والبساطة والخلو من التعقيد والتكلف :

وتناسب الألفاظ والعبارات في الأدب النبوي ، فترتاح لها الأسماع ، وتقبلها الأفئدة بقبول حسن ، مع براءتها من تكلف الزخرف والصناعة

(١) المجازات النبوية ص ٢٨٦ . المسلحة : مجتمع السلاح الكثير ، يقهرن : أى يعمل ما يغلب إثم على أجر هذه الكلمات .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٩ : الحجر : يريد الحجر الأسود بالكعبة . رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ : « الحجر يمين الله في الأرض يضافح الله بها عباده » والحديث حسن وإن كان ضعيفا بحسب أصله . انظر : كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعجلوني ١/١٧٤ ط مكتبة التراث الإسلامى بحلب .

اللفظية ، التى يتعمد فيها السجع ، والازدواج ، وغيرها من قيم الجمال اللفظى ، التى تعرف بالمحسنات البديعية ، إلا ما جاء من ذلك عفو الخاطر ، بوحى من الفطرة والطبع ، دون تكلف له ، أو قصد إليه .

ومن هنا كانت السهولة والبساطة ، والخلو من التعقيد - فى اللفظ والمعنى على السواء - من السمات الفنية البارزة فى أدب الرسول ، متأثراً فى ذلك بأداب القرآن ، وبالطابع العام للإسلام ، دين اليسر ، والفطرة السمحة ، التى تكره التعقيد والتعقيد ، فى الكلام ، وفى الحياة بعامه ، والمعروف عن الرسول أنه كان يحب اليسر فى كل أمره ، وأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وأنه كان يقول لأصحابه : إنما بعثتم ميسرين ، لا معسرين ، وأنه كان يكره الغلو حتى فى العبادة والدين ، فقد نهى عبد الله بن عمرو بن العاص عن صيام الدهر كله ، وقيام الليل كله ، واشتد عليه فى ذلك ، ذاكراً أن لجسمه عليه حقاً ، ولأهله عليه حقاً ، وأمره بالاعتدال فى العبادة ^(١) ، وقد انعكس هذا الميل إلى الاعتدال والبساطة على الأدب النبوى ، فكان على ما ذكرنا .

ولننظر فى قوله - ﷺ - : « خير المال عينٌ ساهرة ، لعين نائمة » ^(٢) .

ففيه جناس بين (عين) الأولى ، والمراد بها عين الماء الجارية ليلاً ونهاراً ؛ ولذا سماها ساهرة ، و (عين) الثانية ، وهى عين الإنسان ، كما أن فيه مقابلة وتضاداً فى (ساهرة - نائمة) وفضلاً عن هذه المحسنات ففيه استعارة فى (ساهرة) ولفظ السهر فى هذا الكلام لا يقوم مقامه غيره ، فى عقد المناسبة المعنوية بين الكلام ، ومع هذا ، فالكلام مرسل ، لا تحس فيه تكلفاً أو صنعة .

(١) انظر : مرآة الإسلام ٢١٧ ، ٢٨٥ .

(٢) لم أقف عليه فى كتب الصحاح ، وانظر : المجازات النبوية ٧٩

أ - دقة الصورة ووضوح تعبيرها عن المعنى :

وكما جاءت محسنات الكلام في كلام الرسول عفو الخاطر ، كذلك وقعت صورته الفنية بعيدة عن التعامل والقصد والمعاناة ، تمتاز بدقة اختيار عناصرها ، وحسن الملاءمة بينها ، وجودة التعبير عن المعنى الذى سيقى من أجله .

من ذلك قوله ﷺ : « فَإِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » (١) .
فقد شبه عليه السلام العابد الذى يستفرغ قواه ، ويستنفد طاقته فى العبادة ، بالمنبت وهو الذى يغذ السير ، ويكد الظهر ، منقطعاً عن رفقته ، فتضعف مطيته ، ولا يقطع شقته ، فالعابد وعبادته ، والمسافر ومطيته ، عناصر الصورة ، والمناسبة بين طرفيها (المشبه والمشبه به) لطيفة الخيال ، والصورة فى أدائها للمعنى جيدة التعبير ، شديدة التأثير بالعظة التى أرادها الرسول ، مما جعل الشريف الرضى يقول عنها : « وهذا من أحسن التمثيلات ، وأوقع التشبيهات » (٢) .

وهناك العديد من أمثال هذه الصورة ، أشرنا إلى بعضها فى دراستنا السابقة للنماذج .

(ب) الجدة والابتكار فى الخيال :

أما حظ الصورة الأدبية فى أقوال الرسول من الجدة والابتكار ، فقد فازت من ذلك بفيض من البراعة ، والتحليق فى أجواء جديدة ، من سماء الجمال والخيال ، ولنضرب لذلك مثلاً قوله ﷺ :

(١) رواه الزوار عن جابر بلفظ : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت ... » كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى ٣٠٠/١
(٢) المجازات النبوية ص ٩٥ ، المنبت : الذى يجهد دابته فى السير فيقطع ظهرها .

« إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ » (١) .

فقد شبه الحسناء بالروضة الخضرة لجمال ظاهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحه باطنها ، وهى صورة مبتكرة ، أبدعتها عبقرية الرسول ؛ لتكون أوقع فى النهى عن نكاح المرأة ، إذا كانت معيبة فى نفسها ، أو مطعوناً عليها فى نسبها ؛ لأن أعراق السوء تنزع إلى ولدها ، وتضرب فى نسلها .

ألا يحق لنا بعد هذا أن نقرر مآذركه بعض المحدثين (٢) فى حديثه عن الأسلوب النبوى ، وأنه : « مسدد اللفظ ، محكم الوضع ، جزل التركيب ، متناسب الأجزاء فى تأليف الكلمات ، فخم الجملة ، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه ، واللفظ وضريه فى التأليف والنسق ... » وأنه قد : « سلم من التعقيد والعى والختل ... وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له ، من أصول البلاغة ، كالمجاز البعيد ، الذى يغوص إلى الأعماق الخيالية ، وضروب الإيالة ، وفساد الوضع المعنوى ، وفنون الصنعة ، وما إليها مما هو فاش فى كلام البلغاء ، يعين جفاء البداوة على بعضه ، ورقة الخضرة على بعضه ، وهو فى الجهتين باب واحد » .

وهناك ناحيتان فئتان تنبغى الإشارة إليهما فى هذا المجال ، من الحديث عن ألفاظ الرسول وعباراته : إحداهما : ميل البلاغة النبوية إلى الإيجاز فى العبارة ، والأخرى : ما استحدثه الكلام النبوى من ألفاظ وتراكيب فى اللغة .

(١) المرجع نفسه ص ٦١ ، الدمنة ، الأبعاد المجتمعة تركبها الرياح ويعلوها التراب ، فإذا أصلبها المطر أنبت نباتاً خضراً يروق نظره ويسوء مخبره .

(٢) إعجاز القرآن (الرافعى) ٣٥٩ ، ٣٧٥

غلبة الإيجاز :

أما ميل البلاغة النبوية إلى الإيجاز ، فهو الطابع الغالب عليها ؛ وذلك لما منحه الرسول من كمال عقله ، وغلبة فكره على لسانه ، فقل كلامه ، وتنزه من الحشو ، وبرىء من شوائب الإطالة بما يجاوز مقدار القصد ، وأعرب عن ميله هذا في قوله لرجل تكلم بحضرته فأطال :

« كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ ؟ فَقَالَ : شَفَتَايَ وَأَسْنَانِي ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ اللَّهَ يَكْرَهُ الْإِنْبِغَاقَ (١) فِي الْكَلَامِ ، فَنَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ رَجُلٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ ، - وَاقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ » .

ومن دلائل إشارته ﷺ إلى الإيجاز في المنطق قوله (٢) :

« أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا ، الْمُوْطَأُونَ أَكْنَافًا ، الَّذِينَ وَيَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفَيِّهِقُونَ » .

فالرسول ﷺ يريد الصدق في المنطق ، والقصد ، وترك ما لا يحتاج إليه ؛ ولذا قال أيضاً لجرير بن عبد الله البجلي :

« يَا جَرِيرَ ، إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ ، وَإِذَا بَلَغْتَ حَاجَتَكَ فَلَا تَتَكَلَّفْ » (٣) .

(١) الانبغاق : الاندفاع في الكلام ، وهو مظنة الخطأ ، وقلما سلم صاحبه من الزلل .

(٢) لم أقف عليه في كتب الصحاح ، وهو في الكامل (المبرد) ٣/١ (طبعة دار العهد الجديد بالخرنفس بلا تاريخ) ، الموطأون : دمثوا الأخلاق ، لينوا الجانب كرماء ، المتفهيقون : تفهق في الكلام : تنطع ، وتوسع فيه ، كأنه ملأ به فمه ، لأن أصله من فهق الإناء : امتلأ .

(٣) المرجع نفسه ٥/١

واجتماع كلام الرسول وقلة ألفاظه ، مع اتساع معناه ، والإبانة عن المعنى ، واستغراق أجزائه ، في غير تعقيد ولا تكلف ، أمر لم يعرف في العربية لغيره ﷺ ، بالقدر الذي عرف له ، خص به توفيقاً وتسديداً من الله ، الذي يخاطبه بقوله :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

من أجل هذا كثر في كلامه ﷺ ما قل حروفه ، وكثرت معانيه من قبيل ما يعرف بـ « جوامع الكلم » وجاء من ذلك ما لا ترقى إلى سمائه بلاغة إنسانية ، إلا تلك البلاغة الملهمة ، بلاغة النبوة .

وقد مرت بنا نماذج من هذا الضرب في أقوال الرسول ، سردناها سرداً هناك ، ونقف هنا عند بعضها ؛ لننظر فيها بعين الدرس والتحليل ، فعسى أن نوفق إلى تجلية بعض مواطن الروعة فيها ، من ذلك قوله ﷺ : « كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً » .

فتحت هذه الكلمات القليلة المبنى ، معان غزيرة ، لو بسطنا القول فيها لحبنا صفحات ، وجملة معناها : أن السلامة تفضي إلى الأدواء القاتلة ، والأعراض المهلكة ؛ لأن طولها يؤدي إلى موت الشهوات ، وانقطاع اللذات ، وآفات الهرم ، وعودى السقم ، فحسن من هذا الوجه أن تسمى داء ؛ إذ كانت مؤدية إليه ، موقعة فيه ، وقد أكثر الشعراء نظم هذا المعنى في أشعارهم ، بيد أن كلمة النبي ﷺ أبهى من جميع ما قالوا ، وأبعد منزعا ، وأوجز في تمام ، وأكثر إفادة مع قلة كلام .

فمما جاء في هذا المعنى : قول حُميد بن ثور الهلالي (١) :
أَرَى بَصَرِي قَدْ رَأَيْتِي بَعْدَ صِبْحَةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِيحَ وَتَسْلَمَا

(١) ديوانه ص ٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ) ، والكامل المبرد ٢٨/١

وقول التَّيْمَرِ بنِ ثَوَلَب (١) :
يَسِّرُ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا
فكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
وقول لُبَيْدِ بنِ رِبِيعَةَ (٢) :
وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ
ومن ذلك قوله ﷺ في الخيل : « ظَهَرُهَا حِرْزٌ ، وَبَطُونُهَا كَنْزٌ » .
أراد أن أصحابها ينتجونها من الأفلاء (جمع فلو وهو المهر بلغ
السنة) ما تنمي به أموالهم وتحسن معه أحوالهم ، فهم باستيداع بطونها
نطف الفحول كمن كنز كنزاً ، إذا أرادته وجده ، وإذا لجأ إليه ، دعم
ظهره ، كما يكون الكانز عند الرجوع إلى كنزه ، والتعويل على ما تحت
يده ، وظهورها حِرْزٌ ؛ لأنها منجاة من المعاطب ، وملجأ عند المهارب ،
فانظر كيف جمع الرسول فوائد الخيل في السلم والحرب في هذه الكلمات
الأربع !!

ليس معنى هذا أن كلام الرسول قد قل فيه استخدام بعض أساليب
البسط والتكرار ، فكثيراً ما كان الرسول يلجأ إلى مثل هذه الأساليب ،
استجابة لدواع نفسية أو دينية ، أو نحوها ، كالذي نراه من تكرار عبارة :
« مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إلى جانب كل أمر أو نهى في قوله :
« مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ
خَيْرًا أَوْ لِيَصْنُمْتُ » (٣) .

(١) الكامل للمبرد ١٢٨/١

(٢) ديوانه ، ملحق الديوان ٣٦١ (بتحقيق إحسان عباس - الكويت ١٩٦٢ م)
وفيه خلاف في نسبة البيت للبيد ، وهو في الكامل للمبرد ١٢٨/١ منسوباً لبعض شعراء
الجاهلية .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ١١/١

وذلك ليؤكد أن ما أمر به ، أو نهى عنه من كمال الإيمان بالله واليوم الآخر ، بالإضافة إلى ما في هذا التكرار من حث على امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

أما ما استحدثه الرسول من فصيح الكلم في اللغة ، فقد روى العلماء باللغة غير قليل منه ، وصرحوا بأنه لم يسبق إليه :

من ذلك قوله ﷺ في يوم حُنين ، لما رأى مُجْتَلِد المسلمين والمشركين ، واشتداد القتال : « الآن حَمَى الوطيس » (١) .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، أنه قال : « ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسمعت يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربى قبله » (٢) وأمثال هذا كثير يطلب في مظانه (٣) .

على أن هذه الملاحظة لا تقتصر على ابتداع التراكيب ، فقد وردت ألفاظ غير قليلة في كلام النبي ﷺ لا يعرف لها علماء العربية شاهداً في كلام العرب ، كما ترد بعض الألفاظ على وجه من الاستعمال ، لا يعرف إلا من كلامه ﷺ (٤) .

-
- (١) لم أقف عليه في كتب الصحاح ، وهو في الأوائل (السيوطي) ٩ (طبعة المدينة المنورة ١٩٦٦ م) وجمع الأمثال للميداني ١٤٥/٢ (بولاق - القاهرة ١٣٢٠ هـ) . وانظر أيضاً ، السيرة لابن هشام ق ٤٤٥/٢ ، الوطيس : التنور ، يستعار للحرب ، والمعنى : اشتدت الحرب .
- (٢) المجازات النبوية ٦١ وما ذكره الإمام على لا يعنى أن هذه العبارة لم تستعمل في العربية قبل عهد النبي : فللسموع بن عادياء الشاعر الجاهلي بيت يقول فيه :
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
(ديوانه ص ١٣ نشرة عيسى سابا - بيروت ١٩٥١ م) .
- (٣) انظر مثلاً : إعجاز القرآن (الرافعي) ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ .
- (٤) انظر أمثلة لذلك في : النهاية في غريب الحديث (ابن الأثير) مادة : هرو ؛ ستر (المطبعة الخيرية - القاهرة - ١٣٢٢ هـ) ، وانظر أيضاً : دراسات في العربية ١٦٧

ومن هذه الألفاظ على سبيل المثال : كلمة (أستاؤه) فى قوله :
« أئما رجل أغلق بابهُ على امرأته وأزحى دُونها أستاؤه ، فقد ثمَّ
صدّاقها » .

فقد قال علماء اللغة والغريب : لم تستعمل (أستاؤه) إلا فى هذا
الحديث .

ومنها : كلمة (المخيلة) فى قوله لأبى تَمِيمَة الهُجَيمى : « إِيَّاكَ
والمَخِيلَة » .

فقال يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال عليه السلام :
« سبل الإزار » وسارت الكلمة على هذا الوضع يراد بها الكبر ^(١) . ومنها :
كلمة (أفلج) استعملت استعمالا لا يعرف إلا فى الحديث ؛ حيث
استعملت غير مضافة إلى الأسنان ، وعلماء اللغة يقولون : لا يقال رجل
أفلج إلا إذا ذكر معه الأسنان .

نخلص من هذا كله إلى أن أسلوب الرسول فى أقواله بعامّة ، أسلوب
« لا يضطرب به الضعف ، ولا تزايله الحكمة ، ولا يجافيه الصواب ، بل
يخرج رصيناً غير متهافت ، متسقاً غير متفاوت ، لا يغلب على النفس التى
خرج منها بل تغلب عليه ، ولا تسترسل به الخيلة ، بل يضبطه العقل ،
ولا يتوثب به الهاجس ، بل يحكمه الرأى ، تراه على استواء واحد ، فى شدة
وقوة ، واندماج وتوثيق » ^(٢) .

(١) يبدو أن هذه اللفظة (المخيلة) لم تكن معروفة فى لهجة بنى هجيم ؛ لا أنها لم تكن
معروفة فى اللغة العربية كلها ؛ بدليل ورودها فى قول امرئ القيس :

لعمرك ما إن ضرى وسط حمير وأقيالها إلا المخيلة والسكر

(٢) إعجاز القرآن (الرافعى) ص ٣٢٤

ويحتفظ أسلوب النبي بطابعه هذا ، ولا ينزل عن طبيعته في البلاغة ، حتى وإن كان الكلام في التشريع ، وتقرير النظر ، وتبيين الأحكام ، ونصب الأدلة ، وإقامة الأصول ، والاحتجاج لها ، والرد على خلافها ، وغير ذلك من الأغراض ، التي إن جنح إليها البليغ ، جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه في غيرها ، تقع فيه على اللفظ المستكره ، أو المعنى المستغلق ، أو السياق المضطرب ، والأسلوب المتهافت ، أو الصنعة التي لا روح فيها ؛ ولذا يتوخى البلغاء - عادة - الأغراض والمعاني التي يعذب فيها الكلام ويتسق القول ، وتحسن الصنعة ، مما يكون أكبر حسنه في مادته اللغوية ، واتصاله بالعواطف البشرية .

وبين أيدينا أقوال الرسول في أبواب الاعتقاد والتشريع والعبادة ، وليس في أسلوبها مثل ما يقع للبلغاء إن دخلوا في هذه الأغراض ، مع أنها قد جاءت خالية - غالباً - من وسائل تزيين الكلام ، لا يجاوز الرسول بعبارة فيها حد الإبلاغ عن المعنى الذي يريده ، غير أن المتذوق لأسلوبها كثيراً ما يسرى في روحه الإحساس بالجمال ، فإذا ما ذهب يلتمس مواطن هذا الجمال فإنه قد يعجز عن التماسه في ناحية بعينها من نواحي الأسلوب ، فيعود ممتلئ اليقين بأن هناك روحاً خفية ملهمة ، تنشر فيه الجمال ، وتنفض هذا السحر الحلال .

ولا يفوتنا أن نلاحظ تنوع الأساليب في البلاغة النبوية ، بتنوع الموضوعات والمواقف ، واختلاف المقامات ، والأغراض ، فالدارس للأسلوب النبوي يجده مردداً بين أنماط كثيرة من الأساليب ، لكل منها غايته التي لا يصلح لها سواه ، من تفصيل بعد إجمال ، أو تفسير بعد إبهام ، أو توكيد بالتكرار ، أو إجراء الكلام على طريقة القص والحوار ... ، إلى غير ذلك من وسائل الأداء في الأسلوب النبوي .

وبعد ، فإنما آثرنا أن نقف عند أقوال الرسول هذه الوقفة ، التى تبدو وكأنها قد طالت ؛ لما هالنا من إهمال علمائنا ونقادنا ، من قدامى ومحدثين ، لدراسة الحديث دراسة أدبية نقدية ، إهمالا يكاد يكون تاماً ، اللهم إلا ما كان من بعض شواهد الحديث التى نجدها متناثرة ، قليلة فى بعض كتب النقد والأدب القديمة ، كبديع ابن المعتز ، وبيان الجاحظ ، والصناعتين لأبى هلال ، ونحوها ، وهى عناية وقفت عند حد بيان بعض ما فى الحديث من ألوان البيان ، ولم نجد من بينهم من تناول الحديث فى دراسة أدبية شاملة ، تعالج نصوصه ، وتحللها ، وتنقدها ، وتضع أمامنا ملامح البلاغة النبوية فى ظواهرها الأدبية ، ومعارضها الفنية ، بل إن الجهد الوحيد - فيما نعلم - الذى أفرد صاحبه لدراسة الحديث دراسة فنية ، وهو كتاب : « المجازات النبوية » للشريف الرضى ، لم يخرج عن نطاق دراسة ألوان المجاز فى طائفة من الأحاديث ، وأسلوب المجاز - على روعته فى الحديث - إنما هو قطرة من بحر ، أو غصن من شجرة ، فى دوحة البلاغة النبوية .

ومع ذلك فنحن - بهذه الدراسة - لا ندعى أننا سدنا الثغرة وأكملنا النقص ؛ إذ إن ذلك لا يكون إلا بدراسة مستوعبة ، لا تتاح لها فرصة المكان هنا .

وإن عنى هذا الذى قدمناه شيئاً ، فإنما يعنى أن ما أوردناه من أحكام على أدب الحديث ، من حيث خصائصه ، وأسلوبه ، ووسائله التصويرية ، وقيمته المختلفة ، الفنية والجمالية والموضوعية ، كل ذلك لا يرقى بالطبع إلى درجة البرهان القاطع ، ولا يزيد على درجة التمثيل والتدليل ، والقارئ نفسه متروك له أن يشاركنى فى إتمام هذا العمل ، بمزيد من التأمل فى الحديث الشريف على ضوء ما ذكرنا فى هذه الدراسة ؛ ليعرف بنفسه مدى صحة ما قدمنا من أحكام ؛ وليضيف إليها ما يراه ، أو يعدل فيها ، أو يصحح ، أو يتحفظ ، وبهذا تتضافر الجهود لتحقيق الفائدة المرجوة من مثل هذه الدراسات .

على أن استيعاب الكلام في البلاغة النبوية وخصائصها ، إنما هو طلب لغاية في السماء العالية ، ولا نجد ما نختتم به هذه الدراسة الموجزة أفضل من هذه المناجاة الأدبية ، التي يتوجه بها أمير الشعراء ^(١) ، إلى إمام البلقاء :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبةً	حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطلي جيد البيان به	في كل منتشر في حسن منتظم
بكل قول كريم أنت قائله	تحبي القلوب وتحبي ميت الهمم

* * *

(١) هو أحمد شوقي ، انظر الشوقيات ٢٤٧/١ (مطبعة مصر بلا تاريخ) .

الفصل الثاني

الكتابة الفنية

- ١ -

الكتابة فن إسلامي النشأة :

عند دراسة الكتابة الفنية في صدر الإسلام ، يثير مؤرخو الأدب عادة مشكلة نشأة هذا الفن في اللغة العربية ، وتختلف آراؤهم في محاولاتهم للإجابة عن التساؤل الآتي : هل فن الكتابة جاهلي أم إسلامي النشأة ؟؟ أو بعبارة أخرى : هل عرف العرب في جاهليتهم هذا اللون من فن النثر ، أم هو فن إسلامي خالص ؟ .

حقاً لا نجد من المؤرخين من ينكر معرفة العرب الكتابة ، باعتبارها وسيلة من وسائل تسجيل بعض شئون حياتهم ومعاملاتهم ، وما كان في وسعهم أن ينكروا معرفتهم الكتابة على هذا المستوى ، على الأقل في بعض بيئاتهم ، وخاصة في الحضر ، إذ كان القرآن الكريم - وهو وثيقة تاريخية لا يتطرق إليها الشك - شاهداً على ذلك ، في كثير من آياته التي تشير إلى أن الكتابة كانت معروفة في بعض البيئات الجاهلية ^(١) .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمناً قليلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٢) .

(١) انظر : تطور الأساليب النثرية ٩/١ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة : ٢ - ٧٩/

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ... ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ن ، والقلم وما يسطرون ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (٤)

وآيات أخر ، كلها تبين أن العرب عرفوا الكتابة واستعملوها (٥) ، وبخاصة في بيئات اليهود بالمدينة وحواليها ، وفي مكة ، حيث قريش ونشاطها التجارى ، المتطلب استعمال الكتابة ؛ ولذا يذكر المؤرخون ورواة الأخبار ، أن الإسلام ظهر وفي قريش عدد غير قليل من الكتاب (٦) ، وأن العرب كانت تؤرخ في كتبها وديونها من عام الفيل ، ثم عام الفجار ، حتى جاء

(١) سورة البقرة : ٢٨٢

(٢) سورة الفرقان : ٥

(٣) سورة القلم : ١

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٥

(٥) استخدم القرآن الكريم مادة القراءة والكتابة ، وما يتطلبان من أقلام وصحف ودرس ونحو ذلك في كثير من آياته ؛ فوردت مادة القراءة في سبع عشرة آية ، والكتابة (بمعنى الخط) في نحو ثلاث مائة ، والقلم في أربع ، والصحف في ثمان ... إلخ . انظر : القرآن والتفكير (الحوفى) ١١ - ١٢

(٦) هم في رواية البلاذرى سبعة عشر كاتباً . انظر : فتوح البلدان ٤٧١ (دار النشر للجامعيين القاهرة ١٩٥٧ م) وجعلهم ابن عبد ربه أربعة عشر كاتباً ، انظر العقد الفريد ١١٤/٣ (طبعة الجمالية - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩١٣ م) .

الإسلام فأرخ المسلمون بعام الهجرة ^(١) ، ولقد نعلم أنه كان للنبي كتاب يكتبون له الوحي ، ولهم نواب ينوبون عنهم إذا غابوا ^(٢) .

كل ذلك يؤكد معرفة الكتابة واستخدامها في الحياة الجاهلية ^(٣) ، ويرى فريق من مؤرخي الأدب ، أن استخدام الجاهليين الكتابة لم يتعد شئون معاملاتهم التجارية ، وبعض أغراضهم الأخرى ؛ إذ على الرغم من معرفة العرب الكتابة فإنها لم تكن شائعة فيهم ^(٤) ، أو بعبارة أخرى : كانت القراءة والكتابة معروفتين في البادية والحضر في الجاهلية « ولكن لم تكونا ثقافة عامة في الجاهليين » ^(٥) ، مستخدمة في مختلف أغراضهم ؛ وعلى ذلك فأغلب الظن أن هذا اللون من النثر الجاهلي ، كان نثراً مرسلًا للتعامل ، مطلقاً من كل صنعة ، ساذجاً ، خالياً من قيم الجمال الفني ، فالجاهليون إذن لم يعرفوا النثر الفني في الكتابة وإن عرفوا الكتابة الخطية التي مهدت له ^(٦) .

على أن من المؤرخين من يرى أن الكتابة أخذت طريقها إلى التجويد والافتتان على أيدي الجاهليين ، وأن عدم وصول نماذج منها إلينا ليس دليلاً

(١) أخبار مكة (محمد بن عبد الله الأزرق ١٠٢) (طبعة مكة ١٢٧٥ هـ) .

(٢) العقد الفريد ٥/٣

(٣) من هذا يتبين خطأ المستشرق نيكلسون فيما ذهب إليه من أن عرب الجاهلية لم يكن لهم إلمام حتى بهذا المستوى من الكتابة (الكتابة الخطية) انظر :

A literary History of the Arabs, P.31

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١٨٩/١

(٥) تاريخ الجاهلية (عمر فروخ) ٦١ ، ١٦٤ (طبعة بيروت ١٩٦٤ م) .

(٦) ممن ذهب إلى هذا الرأي : طه حسين في : من حديث الشعر والنثر (دار المعارف بمصر ١٩٣٦ م) وأنيس المقدسي في : تطور الأساليب النثرية ، وجورجي زيدان في : تاريخ آداب اللغة العربية .

على جهالة العرب نثر الكتابة الفنية (١) ، ويسوقون في مقام التدليل على رأيهم ، ما رواه أبو هلال العسكري (٢) ، من أن أكتم بن صيفي حكيم العرب وبلغها ، كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : « افصلوا بين كل منقضى معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعبءه في بعض » وأن الحارث بن أبي شمر الغساني - أحد ملوك العرب الغساسنة - كان يقول لكتابه المرقش : « إذا نزع الكلام إلى الابتداء بغير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق ، نفرت القلوب عن وعيها ، وملتها الأسماع ، واستثقلت الرواة » .

فهذه الرواية وسابقتها تدلان على أن الكتابة ارتقت في الجاهلية إلى حد ما ، ووضع لها بعض كتابهم أصولاً فنية ، تجود على أساسها ، وما رواه القلقشندي ، من أن قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب المشهور ، كان أول من كتب : « من فلان إلى فلان » (٣) ، غير أن أمثال هذه الروايات لا تبرأ من الشك في صحتها تاريخياً ، وقد أحسن من استشهدوا بها بما يمكن أن يوجه إليه من نقد ؛ ولذا نجد الدكتور زكي مبارك يعلق عليها قائلاً : وليشك من شاء في صحة هذه النصوص ، فهي على كل حال صورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية (٤) .

(١) انظر في هذا الرأي : السياسة في العصر الأموي (الخوف) ٤٤٥ وما بعدها (طبعة نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٩ م) . والنثر الفني في القرن الرابع (زكي مبارك) ٢٣/١ . وانظر أيضاً : بلاغة الكتاب في العصر العباسي (نبيه حجاب) ٤٧ ، ٤٨ (المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٦٥ م) .

(٢) الصناعتين ٣٥١

(٣) صبح الأعشى (القلقشندي) ٣٢٧/٦ (طبعة الأميرية ١٩١٣ - ١٩١٩ م) .

(٤) النثر الفني ٤٨/١

ويحاول أصحاب هذا الرأي تدعيم وجهة نظرهم أيضاً ، بأنه لا خلاف في ازدهار فن الخطابة الجاهلية ، وما الخطابة إلا نثر فني « والمعقول أن الذي يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة »^(١) ، ثم يكتبها إن أحسن الكتابة أو يملأها إن لم يكن كذلك ، ويعلل عدم وصول وثائق صحيحة للكتابة الفنية الجاهلية ، مع بقاء نماذج للخطابة مع أنها نثر شفهي ، يصعب حفظه وروايته ، بأن الخطابة كانت تلقى في المناسبات الهامة ، والمواسم الكبرى والأحداث الخطيرة ، فظل صداها عالماً في الأذهان ، أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى أخرى ، أو بين زعماء القبائل ، وملوك العرب ، ويجرى بها الرسل بينهم ، وكانت في الأغلب مما يكتبه المرسلون .

والذي نراه أن البيئة الجاهلية بعامة لم تكن تتوفر فيها دواعي الكتابة الفنية ، اكتفاء بذبوع الشعر فيهم ، وكثرة الخطباء بين ظهرائهم ، ولهم من شعرائهم وخطبائهم خير عون على تسجيل محامدهم ، وإذاعة مآثرهم ، والسفارة بين ملوكهم وزعماء قبائلهم ، مما قلل من فرص استخدام الكتابة في مثل هذه الشؤون ، وجعلها تقف - غالباً - عند تسجيل معاملاتهم التجارية ، وما يشبه ذلك من كتابة عهد ، أو عقد حلف ، في صورة بسيطة ، بعيدة عن محاولة التأنيق ، أو تحقيق قيمة من قيم الجمال الفني .

ولسنا بهذا ننكر احتمال ظهور لون من الكتابة الفنية في الجاهلية ، بل إننا نميل إلى ظهوره ، خاصة في الممالك العربية المجاورة للحضارات الفارسية واليونانية ، وعلى يد بعض عظماء البيان من العرب ، الذين كانوا على صلة قوية ببعض هذه البيئات العربية المتحضرة ، ولعل في هذا ما يفسر لنا روايات أبي هلال والقلقشندي السابقة ، إن قلنا بصحتها ، وسلامتها من الوضع بعد الإسلام .

(١) المصدر نفسه ٢٣/١

وإذا كانت نماذج هذه الكتابة لم تصل إلينا لظروف نجهلها ، فإننا نفتقد العنصر الأساسي في الحكم على خصائص هذا النثر ، ومبلغ حظه من الفن ، وهى النصوص التى تقوم عليها الدراسات الأدبية ، وتستنبط على هديها ما يوافق الحقيقة ، أو يقارنها في الحكم عليها .

يضاف إلى ذلك أن ما جاءنا من رسائل الفترة المبكرة من صدر الإسلام (عهد النبوة) ، يحمل خصائص الكتابة الفنية في طور نشأتها - كما سنرى - ففعل ذلك مما يستأنس به ، للرأى القائل بأن النثر الفنى للكتابة إسلامى النشأة .

تلك مقدمة لازمة ، وهى وإن لم تحسم القول في قضية الكتابة الفنية في اللسان العربى ، فهى تساعد على إلقاء أضواء أكثر كشافا لحياة الكتابة في صدر الإسلام .

- ٢ -

الإسلام والكتابة :

جاء الإسلام فحث على تعلم القراءة والكتابة ، باعتباره ديناً يقوم على المعرفة ، ويعلى من مكانة الفكر والعقل ، ويرفع العلم والعلماء درجات^(١) ، فكان عليه لكى يعبد الطريق أمام الفكر والمعرفة ، أن يعمل على مناهضة الأمية في العرب ، ويجد في محوها ، أو الحد من شيوعها ، والخطوة الأولى في هذا المجال هى تشجيع تعلم القراءة والكتابة .

وكان من مظاهر حرص الرسول الكريم على نشر الكتابة بين المسلمين ، أنه جعل فداء القارئ الكاتب من أسرى بدر تعليم عشرة من

(١) انظر في تشجيع الإسلام العلم والفكر ، وتقديره العلماء : القرآن والتفكير

(الحوفى) ٩ - ١٢ ، ٢٤ - ٢٩

أبناء الصحابة القراءة والكتابة (١) ، كما أن إلحاح القرآن الكريم على العقل العربى ، يدعوهم إلى إعمال النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ؛ ليهتدى بالخلق إلى خالقه ، وبالصنعة إلى صانعها ؛ أى ليصل إلى المعرفة ، جعل العرب يدركون أهمية القراءة والكتابة ، ويقبلون على تعلمهما ، باعتبارهما أهم خطوة على طريق المعرفة المنشودة ؛ وبذا شاعت الكتابة بين المسلمين ، واستخدموها فى أغراض دينهم ، فكان الرسول يملئ رسائله على كتّابه ، كما كان خلفاؤه وصحابته من بعده ، ينشئون بملكهم ، ويكتبون بأيديهم ، أو يستكتبون غيرهم ، واقتضت ظروف الدعوة الجديدة ، والدولة الناشئة ، اصطناع الكتابة فى مجالات شتى ، كالكتابة إلى العمال والولاة ، وقادة الجيوش ، ورعايا الدولة الجدد فى الأمصار المفتوحة ؛ لشرح سياسة الدين والدنيا ، أو لتنظيم العلاقة بينهم وبين العرب الفاتحين ، هذا فضلاً عن الكتابة إلى الأبناء موصين أو واعظين .

والفن بعامه ، والأدب بخاصة ، إنما يزدهر ، ويدرج بقوة فى طريق النضج إذا كانت ظروف العصر والبيئة تتطلبانه ، وتوفران دواعيه ، فأثمر ذلك كله نوعاً من النثر ، يمكن أن يعد جديداً فى البيئة العربية ، لم يكن معروفاً بها قبل الإسلام بشكل واضح ، هو الكتابة الفنية ، وعلى الأخص كتابة الرسائل ، التى أخذت تتدرج فى طريق النضج ، حتى أينعت فى عصر بنى أمية ، وبخاصة فى أخريات هذا العصر ، على يد الأديب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور (٢) .

(١) انظر : فجر الإسلام ١٧١

(٢) انظر فى تطور الكتابة على يد عبد الحميد بن يحيى : بلاغة الكتاب فى العصر

العباسى (بنيه حجاب) ٦٦ - ٦٨

دراسة نماذج من الكتابة في صدر الإسلام :

مرت الكتابة في صدر الإسلام بمراحل عدة على طريق النمو ، واكتساب ملامح فنية بارزة ، وهذه المراحل متداخلة أشد التداخل ، وقد يكون من العسير إبراز كل مرحلة منها على حدة ، وتحديد معالم نمو الكتابة فيها .

ولكننا مع ذلك - وبقصد التبسيط الدراسي - يمكن أن نلخص هذه المراحل في مرحلتين بارزتين : إحداهما : فترة النبوة ، والأخرى : فترة الخلفاء الراشدين :

(أ) الرسائل والعهد النبوية :

كتب رسول الله ﷺ إلى بني ضمرة بن بكر من كنانة (١) :
« أنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من دهمهم بظلم ، وعليهم نصر النبي ﷺ ، ما بلّ بحر صوفة ، إلا أن يحاربوا في دين الله ، وأن النبي إذا دعاهم أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله ، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى » .

- وكتب إلى نعيم بن مسعود الأشجعي (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما حالف عليه نعيم بن مسعود بن

(١) الطبقات الكبرى (أبو عبد الله محمد بن سعد) ج ١ قسم ٢ ص ٢٧ (طبعة بيروت ١٩٥٧ م) .

(٢) المرجع نفسه ج ١ ق ٢٦/٢

رُخَيْلَةُ الْأَشْجَعِيّ ، حالفه على النصر والنصيحة ، ما كان أحدٌ مكانه ،
ما بَلَّ بَحْرَ صَوْفَةٍ .

.. وتمثل هذه العهود طابع نثر الكتابة ، في السنوات الأولى من حياة
الرسول بالمدينة ، وهى كما نرى تقف فى عرضها عند حد مقتضى الأداء
للمعنى المراد ، وتبليغه ، دون محاولة للتنسيق ، ففيها ترسل العبارة لإرسالا ،
وتقد على قدر المعنى ، وتكاد تخلو من أساليب البيان الفنى ، اللهم
إلا نادراً ، وهى إن جاءت ، فإنما تكون عفوَ الخاطر ، دون قصد إليها ،
أو تكلف لها ، كما نرى من استخدام الكناية فى قوله : « ما كان أحد
مكانه ، ما بل بحر صوفة » (١) .

كما يلاحظ أنها لا تراعى أية قواعد فنية فى البدء والختام ، وتخلو تماماً
من أساليب المبالغة والتفخيم .

فإذا ما تقدم بنا الزمن قليلا وقفنا على نماذج أخرى منها :

- كتب رسول الله ﷺ إلى هُوْدَةَ بنِ علي صاحب الإمامة (٢) :
« من محمد رسول الله إلى هُوْدَةَ بنِ علي :

سلامٌ على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهرُ إلى مُنتهى
الحُفِّ والحافِر ، فأسلِمَ تَسْلِمٌ ، وأجعلُ لك ما تحت يديك » .

(١) وردت هذه العبارة فى حديث الخلاف بين أبناء عبد مناف ، وعبد الدار بن
قصي ، على تولى شئون الكعبة ، حيث تحالف كل منهم ضد الآخر ، ونصها : « ما بل بحر
صوفة » ، انظر : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (الحافظ تقي الدين القاسى) ٧٦/٢ (طبعة
الخليى ١٩٥٦ م) قال فى هامشه : « من عادة قريش إذا أبرمت عهداً أن تقول : ما أقام
ثبير ، وما بل بحر صوفة » وانظر حلف الفضول فى المرجع نفسه ١٣/٢

(٢) صبح الأعشى ٣٧٩/٦

- وكتب إلى خالد بن الوليد (١) :

« من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد :

سلام عليك : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن كتابك جاءني مع رسولك ، يُخبرني أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تُقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهُداً ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل ولتقبل معك وقد هم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وأول ما يلاحظ : بدء ظهور نوع من التقنين لنظام البدء والختام في الرسالة ، وإن لم يأخذ دائماً طابعاً واحداً ، كما يظهر في الرسالتين ، حيث تضمنت الثانية خاتمة ، وخلت الأولى منها ، وأيضاً : اشتغال الثانية على عبارة « أما بعد » في صدر الغرض ، بينما خلت الأولى منها .

أما من حيث الأسلوب : فيبدو التردد بين الإطناب والإيجاز ، إذ كان طابع الرسالة الأولى الإيجاز ، الذي يتجلى في قوله : « أسلم تسلم » فتحت هاتين الكلمتين كل ما جاء به الإسلام من سبل خلاص المسلم وسلامته ، في دنياه وآخرته ، أما الرسالة الثانية فيغلب عليها طابع البسط ، الذي يظهر في أداء المعنى ، في صور متعددة من العبارة ، فكلمة « أسلموا » في صدر الرسالة ، تغني عن كل ما جاء بعدها إلى قوله : « بهداً » وإن كان في البسط زيادة مزية ؛ إذ قصد به تأكيد إيجابتهم داعي الإسلام ، ويعني ذلك كف سيف الإسلام عنهم ، كما فيه النص على فوزهم بالهداية ، بدخولهم في الإسلام .

ونلاحظ أيضاً بدء ظهور محاولة لرعاية فن البيان في الأداء وإيثار الصورة البيانية على أسلوب التعبير المباشر بأسلوب الحقيقة ، ويتضح هذا في عبارة : « واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر » بدل أن يقول : سيظهر في الجزيرة العربية كلها .

وفي أخريات العهد النبوي نميز لونا من التطور اليسير في شكل الرسالة ومضمونها ، ولنضرب لذلك مثلاً الرسالة التالية :

- كتب رسول الله ﷺ إلى أَكْبَدِرِ دُومَةَ (١) :

« من محمد رسول الله لِأَكْبَدِرِ دُومَةَ ، حينَ أجابَ إلى الإسلام ، وتخلع الأنداد والأصنام ، مع خالد بن الوليد ، سيف الله في دُومَةِ الْجَنْدَلِ وأكنافيها : أن لنا الضاحية من الضحيل والبور والمعاصي ، وأغفال الأرض ، والحلقة والسلاح ، والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ، لا تعدل سارحتكم ، ولا تعدل فاردتكم ، ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤدون الزكاة بحقها ، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

فمن حيث المضمون : تعددت مناحي القول وتنوعت أغراض الكلام ، فقد استقر الدين الجديد ، وفصلت أحكامه ، واكتملت سياسته

(١) صبح الأعشى ٧٠/٦ . الضاحية : الناحية البارزة ، والمراد هنا : أطراف الأرض . الضحيل : القليل من الماء . البور : الأرض لم تزرع . المعاصي : الأرض التي لا عمران فيها . أغفال الأرض : التي لا أثر فيها يعرف . الحلقة : الدروع . الضامنة من النخل : ماتضمنته القرى منه . لا تعدل سارحتكم : أى لا تحول دوابكم الراعية عن المرعى . لا تعدل فاردتكم : لا تضم إلى مال الصدقة ، والفاردة : الزائدة على الفريضة ، فلا تجب فيها الصدقة .

ومن هنا تناولت الرسالة تفصيل الحقوق والواجبات ، على نحو لم نجده في رسائل الرسول ، وعهوده السابقة .

ومن حيث الشكل : أخذت بؤادر التحجير ، وتحسين الكلام تظهر في الأسلوب ، كالازدواج والسجع في قوله : « لا تعدل سارحتكم ، ولا تعد فاردتكم » والموازنة والسجع في قوله : « تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤدون الزكاة لحقها » والموازنة في قوله : « عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء » كما مال الأسلوب إلى إثارة لفظة على أخرى للملاحظة الدقيقة والجمال في الأداء ، وذلك مثلاً في اختيار كلمة (وخلع) بدل كلمة (وترك) أو نحوها ، لما في الأولى من معنى الترك وزيادة ؛ لأنها توحى بمعنى الإصرار على الترك وعدم الرجوع إلى عبادتها ، كما يخلع الإنسان الثوب البالي فلا يعود إلى لبسه ، أو القيد فيشعر بالحرية والخلاص ، وفي خلع عبادة الأصنام ، ما يلمح إلى التخلص من عبادة فاسدة بالية ، والخلاص من أسر الوثنية التي تغل العقول ، والأرواح .

وعلى الرغم من طول الرسالة نوعاً ما ، فإن أسلوب المساواة هو الغالب عليها ، وإن مالت إلى الإيجاز في بعض عباراتها ، كالإيجاز بالحذف في قوله : « لا تعدل سارحتكم » أى عن المرعى ، « ولا تعد فاردتكم » أى في مال الصدقة الواجبة .

على ضوء هذه الدراسة نماذج من رسائل النبي وعهوده ، يمكن استنباط بعض الملاحظات الفنية الآتية :

السمات الفنية العامة للكتابة في عهد النبوة :

١ - كان الطابع العام للكتابة في السنوات الأولى من الهجرة (حتى سنة ٥ هـ تقريباً) هو الميل إلى البساطة والسهولة في التعبير عن المضمون ، والبراءة من اصطناع أساليب الزخرف وفن البيان - إلا نادراً ، ودون قصد

أو إيثار - مع إيثار الإيجاز ، والنفاذ إلى القصد مباشرة ، فهي مختصرة غالباً ، خالية من التنيق والتحير ، لا يقصد منها سوى الأداء والتبليغ ، في غير تفنن أو إثارة لجمال فنى خاص .

فإذا ما تقدمت سنوات أخرى من عهد النبوة ، أخذت تظهر بعض الملامح لفن الرسالة ، من تقسيمها إلى مقدمة وغرض وخاتمة ، تستوفى هذه الأسس حيناً ، وتهمل بعضها أحياناً ، وعرفت الصورة البيانية البسيطة طريقها إلى الرسالة ، وتردد أسلوبها بين المساواة والبسط والإيجاز .

فإذا ما انتهت إلى أخريات عهد النبوة ، لحنا فيها بوادر التنيق ، وإيثار بعض الألفاظ على بعض ؛ لمكانها من دقة الأداء وجمال التعبير ، واستخدام بعض الأساليب الفنية ؛ لتحلية العبارة وتحقيق بعض القيم الجمالية فيها ، ومع ذلك فقد ظل طابعها العام يمتاز بالبساطة ، وقلة المحاولات الفنية والتأثير الأنفعالي ، إذ كان همها هو الأداء والتبليغ .

٢ - ضعف الميل إلى الالتزام بعناصر بناء الرسالة ، والخضوع لقواعد معينة في البدء والختام ، فالرسول ﷺ لم يلتزم نهجاً واحداً في بدء رسائله أو ختامها ؛ إذ كان يفتتح بعض رسائله بعبارة : « من محمد رسول الله إلى فلان » وبعضها بعبارة : « أما بعد » أو بالبسملة ، أو بعبارة : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان » .

وكان يأتي في صدر كتبه بالسلام ، فيقول للمسلم : « سلام عليك » أو « السلام على من آمن بالله ورسوله » وفي خطاب غير المسلم ، يقول : « سلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام في صدر كتابه ، وقد يتبع السلام بالتحميد ، كما في رسالته إلى خالد بن الوليد ، وربما ترك التحميد ، وقد يأتي بعد التحميد بالشهادة ، أو لا يأتي به .

أما التخلص إلى الغرض ، فكان بعبارة : « أما بعد » وتارة يهملها

ويكثر أن يكون السلام ختاماً لرسائله ، فيقول للمسلم : « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وربما اقتصر على لفظ : « والسلام » ، ويقول لغير المسلم : « والسلام على من اتبع الهدى » وقد يسقط السلام من الختام جملة .

٣ - الخلو من عبارات التعظيم وألقاب التفخيم - إلا في النادر ، فكان الرسول ﷺ يذكر اسمه مجرداً إلا من ألزم صفاته ، وهي الرسالة ، التي باسمها ومقتضاها يكتب إلى الناس ، داعياً ، أو هادياً ، أو مشرعاً ، كما كان يذكر اسم المرسل إليه مجرداً من ألقاب التعظيم ، ونادر أن يقرن اسماً في رسائله بلقب يعظمه ، كما في رسالته السابقة إلى أكيدر ، حيث لقب خالد بن الوليد بلقب : « سيف الله » تعظيماً له وتشريفاً .

أما عبارته عن نفسه بالضمير ، فكانت تأخذ صورة الأفراد ، نفوراً من التعظيم ، وتواضعاً ، فيقول مثلاً : « أنا » أو « جاءني » « يخبرني » وما أشبه ذلك ، ويعبر عن المرسل إليه عند الأفراد بكاف الخطاب ، وعند الشئبة بلفظها ، وعند الجمع بلفظه .

وهذا الذي ذكرنا يشبه أن يكون تأثراً بالروح العامة للإسلام ، وطابعه التهذيبي الذي ينفر من المبالغة والتهويل ، وينهى عن الكبر والخيلاء ، ويثبت العظمة لله وحده .

٤ - الاقتصاد إلى حد كبير في استخدام أساليب البيان الفنية ، من تشبيه واستعارة وكناية ، وإيثار التعبير بلغة الحقيقة على لغة المجاز غالباً .

(ب) الرسائل والعهود في عهد الراشدين :

في هذه المرحلة من حياة الكتابة الفنية ، يخطو فن الرسائل خطوات بارزة على طريق النمو ، جعلته أدخل في عالم الفن من المرحلة السابقة ، ومهدت له سبيل الارتقاء ؛ ليحتل من هذا العالم مكاناً مرموقاً في عهد بني أمية .

وليبيان ملامح هذا التطور لفن الكتابة في عهد الراشدين ، علينا أن نبدأ بدراسة بعض نماذجها :

— عهد أبو بكر الصديق إلى عمر بالخلافة لما حضرته الوفاة فقال (١) :
« بسم الله الرحيم الرحيم :

هذا ما عهد به أبو بكر ، خليفة محمد رسول الله ﷺ ، عند آخر عهده بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يُؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر .

إنني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن برّ وعدل ، فذلك علمي به ، ورأيت فيه ، وإن جار وبدل ، فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .
فموضوع العهد مجال جديد للكتابة ، استحدث بعد وفاة الرسول ، فهو عهد بتولى خلافة المسلمين ، والخلافة منصب لم يكن من قبل .

كما أخذت المعاني تخطو نحو معالجة شؤون الحياة الإسلامية في الدولة الجديدة ، الآخذة في التطور والاتساع ، فأبو بكر يحدد لخليفته أساساً عاماً لحكم المسلمين من بعده ، يقوم على البر والعدل ، واجتناب الظلم ، والانحراف عن كتاب الله وسنة رسوله .

يضاف إلى هذا ما يلوح في الأسلوب من احتفال ، يميل بالعبارة إلى الجودة ، وجمال الأداء ، كما يظهر في قصر الفقرات ، ومحاولة الموازنة بينها ، وتقدير المفعول لإبرازه في قوله : « والخير أردت » ثم اختيار هذه العبارة القرآنية المناسبة للمقام لختام العهد .

(١) تاريخ الأدب العربي (السباعي) ص ١٨١

ومع ذلك فالكتاب يحتفظ بالطابع العام ، الذى كانت تتصف به الكتابة فى العهد النبوى ، وبخاصة فى أواخره ، من حيث البساطة وعدم التكلف ، والقصد إلى الغرض ، فى معنى محكم ، ولفظ جزل مختصر غالبا ، والكلام - كما يقول أبو هلال - : « إذا سلم من التكلف ، وبرىء من العيوب ، كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة » (١) .

- كتب أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب (٢) :

« من أبى عبيدة بن الجراح ومُعَاذِ بن جَبِيل إلى عُمَر بن الخطاب : سلامٌ عليك : فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

أما بعد : فَإِنَّا عَهْدُنَاكَ ، وَأَمْرُ نَفْسِكَ لَكَ مُهِمٌ ، فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ وُلِّيتَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا ، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْكَ الصَّدِيقُ وَالْعَدُوُّ ، وَالشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ ، وَلِكُلِّ حَصْتَةٍ مِنَ الْعَدْلِ ، فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ يَا عَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ !! وَإِنَّمَا نُحَدِّثُكَ يَوْمًا تَعْنُو فِيهِ الْوُجُوهُ ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ ، وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحُجَجُ ، بِحُجَّةٍ مَلِكٍ قَهَرَهُمْ بِجَبْرُوتِهِ ، وَالْخَلْقُ دَاخِرُونَ لَهُ ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ ، وَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعِلَاقِيَّةِ ، أَعْدَاءُ السَّرِيرَةِ ، وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُنْزَلَ كِتَابَنَا هَذَا سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي تَزَلُّ مِنْ قُلُوبِنَا ، فَإِنَّا إِنَّمَا كَتَبْنَا إِلَيْكَ نَصِيحَةً لَكَ ، وَالسَّلَامَ » .

فالرسالة نصيحة مخلصة من صحابييين جليلين إلى أمير المؤمنين ، وولى أمر المسلمين ، تبصره ببعض القواعد ، التى يجب أن يراعيها الحاكم

(١) الصناعتين ص ٢٠٥

(٢) تاريخ الأدب (الزيات) ص ٨٠

المسلم في قضائه بين الرعية ، من المساواة بين الناس في العدل ، والتنزه عن الهوى في القضاء ، فلا يميل مع العرى تعصبا للجنس ، أو مع الصديق ، تأثراً بعواطف المودة ، أو مع ذى المكانة مراعاة لعلو طبقته ، وشرف أرومته ؛ لأنه مسئول عن الأمة جمعاء ، وأفرادها سواسية في الحقوق والواجبات ، فعليه أن يراقب ربه الذى ولاه أمر عباده ، وسيحاسبه حين يقف بين يديه في يوم عظيم ، تخضع فيه رقاب العباد لبارئها ، وتضطرب القلوب خوفاً من عقابه ، ورجاء في رحمته وثوابه ، يوم لا نجاة إلا لمن فاز برضاه ، وأخلص في طاعته . إلخ .

والمعاني كما نرى ذات صبغة دينية ، واضحة التأثير بالقرآن الكريم ، بل هي مستمدة منه ، ولم يقف هذا التأثير عند حد المعاني ، فقد تجاوزها إلى غير قليل من الألفاظ والعبارات ؛ ولذا تعد هذه الرسالة نموذجاً من النماذج ذات الدلالة القاطعة على ظهور تأثير الكتاب في هذه الفترة بالقرآن الكريم ، الذى ملك عليهم عقولهم وقلوبهم وألسنتهم ، فأخذوا يحتذونه لفظاً ومعنى وأسلوباً .

وبهنا هنا أن ننبه إلى أن الكتابة الفنية قد حظيت منذ عهد عمر بن الخطاب باهتمام ملحوظ ، وأخذت تسعى حثيثاً إلى احتلال مكانة مرموقة بين فنون الأدب ، فالفتوح الكثيرة في عهده ، جعلت الإسلام ييسط سلطانه على أُمم جديدة ، وأراض شاسعة ، وجه إليها الخليفة ولاته وعماله ، وكان لابد أن يظل على صلة بهم وبأعمالهم ؛ ليكون على بينة من أمر الأمة ، وإدارة شئونها ورعاية مصالحها .

من هنا كثرت الرسائل المتداولة في أنحاء الدولة الإسلامية ، واصطنعها الخليفة والأمراء والقواد ، وطبيعى أن يثمر ذلك تطوراً ملحوظاً في فن الرسالة ؛ حيث اتسعت مجالاتها ، وتجددت أفكارها ، وتنوعت موضوعاتها ، تبعاً لتطور الحياة الإسلامية ، تطوراً بعد بها بعض الشيء ،

عن الحياة البسيطة التي كانت معروفة في حياة النبي ﷺ ، ومن أبرز النماذج التي تعبر عن هذه المرحلة من تطور فن الكتابة ، رسالة عمر بن الخطاب المشهورة في القضاء ، التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري ، وهي الرسالة التي جمع فيها - كما يقول المبرد - جمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، وهذا نصها (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس :
سلام عليك .

أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا تفاذ له ، آس بين الناس في وجهك ، وعدلك ، ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في خيفك ، ولا يتأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً ، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت بحقه ، وإلا استحلت عليه القضية ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ،

(١) صبح الأعشى ٣٨٨/٦ ، والعقد الفريد (الطبعة الأولى) ٤٥/١ ، والكامل

أو ظَنِيناً في ولاء أو نَسَب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، وذرّاً بالبينات والأيمان ، وإياك والعلَق والضَجْر والتَأْدَى بالخصوم ، والتَنَكُّر عند الخصومات ، فإنَّ الحقَّ في مواطن الحقِّ يُعْظَمُ الله به الأَجَر ، ويُحَسِّن به الذُّخَرَ ، فمن صَحَّحت نِيَّتَه وأَقْبَلَ على نفسه كِفَاةَ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تَخَلَّق للناس بما يَعْلَمُ الله أَنَّهُ ليس من نفسه شَأْنُهُ الله ، فما ظَنُّكَ بثواب الله عَزَّ وجل ، في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسلام .

فاليل إلى التعبير والاحتفال ، واختيار جيد اللفظ ، ومحكم العبارة في هذه الرسالة واضح لكل من رزق نعمة الذوق ، وحسن الفهم ، ومرن على تمييز وجوه الحسن في الكلام .

وإننا واجدون فيها فوق ذلك من المعنى العميق ، واللفظ الجامع الرشيق ، ما جعل بعض عبارتها يجري مجرى الأمثال ، ويجرى على الألسنة في كل زمان !! ألسنا حتى اليوم نتمثل بقوله : « لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له » وقوله : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » وقوله : « ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل » .. وغيرها من العبارات التي تجمع بين دقة المعنى ، وبلاغه اللفظ ، دون الاعتماد على المبالغة والتحويل والإطناب واقتناص المحسنات البديعية ، والحلى اللفظية !!

وما إن انتهى عهد عمر ، ويستظل الناس بأخريات أيام عثمان ، حتى تندلع الفتنة التي أودت بحياة الخليفة ، وأوقعت الفرقة والشقاق بين المسلمين ، وخلفتهم وقد مزقهم الخلاف شيعاً وأحزاباً ، وكان من أثر ذلك كله أن غزت الكتابة ميادين الحزبية والخصومات وما نجم عنها من جدل واحتجاج ، وتبادل المطاعن ، أو إبراز المناقب ، فظهر التنميق والتأنق ، على صورة أوضح في الرسائل المتداولة في أواخر عهد عثمان ، ثم في الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية ، واكتسب فن الرسالة بعض الخصائص الأدبية ، التي لم تكن له من قبل ، والتي نستطيع أن نلاحظها في النماذج التالية :

- كتب عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما -
حين أحيط به - (١) :

« أما بعد : فإنه قد جاوز الماء الرُّبى ، وبلغَ الحِزَامَ الطُّبِّيَّ ، وتجاوزَ
الأمرَ بى قَدَره ، وطَمِعَ فى مَنْ لا يدفع عن نفسه .

فإن كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وإلاَّ فَأَذْرِكْنِى وَلَمَّا أَمَزَّقِ

فالرسالة عبارة عن طائفة من الأمثال اختيرت بدقة ؛ لتعبر عن
الموقف الشديد الذى كان يعاينه الخليفة عثمان ، ويكفى هذا دليلاً على غلبة
العنصر البيئى فيها ، وهو من أبرز دلائل تطور الرسالة فى هذا العهد ،
والميل إلى تجويدها ، كما يلاحظ أن الرسالة قد ختمت بيت من الشعر ،
وهو اتجاه لم نعرفه فى فن الكتابة قبل هذه المرحلة (٢) .

- وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى علي بن أبي طالب ، وقد وجه
إليه رسولا ليأخذ البيعة له : (٣)

(١) الكامل للمبرد ١١/١ ، قال أبو العباس المبرد : وتمثله (يعنى عثمان) بالبيت
يشاكل قول القائل :

فإن أك مقتولاً فكُنْ أنت قاتلى فبعض منايا القوم أكرم من بعض

الزبى : جمع زبية ، وهى حفرة يصاد فيها السبع ، ولا تكون إلا فى الأماكن العالية ،
كقمم الجبال ، والرواى والهضاب ، وهذه العبارة كناية عن اشتداد الأمر ، والطبيان : تثنية
طبيب : وهو من السبع والخيل موضع الخلف من ذوى الظلف والخف ، والذى من الإنسان ،
وإذا بلغ حزام الدابة طبيبها فقد انتهى فى المكروه ، لأن الحزام إنما يكون حيثئذ عند صدر
الدابة ، فالعبارة كناية عن خطورة الموقف . المقلب . الذى غلب كثيراً .

(٢) أعنى بالنسبة للمراحل التى تحدثنا عنها من قبل ، لا بالنسبة للعصر الجاهلى إن
صححت الرسائل التى تروى عن بعض الأدباء فى البيئات الجاهلية المتحضرة فمنها ما يجمع بين
النثر والشعر - انظر : بلاغة الكتاب فى العصر العباسى (نبيه حجاب) ٤٩

(٣) الكامل للمبرد ١٩١/١

« بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية بن صخرٍ إلى عليّ بن أبي طالب .

أما بعد : لعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ، لكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ؛ فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمري ماحجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايعاك ، ولم أبايحك ، وماحجتك على أهل الشام ، كحجتك على أهل البصرة ؛ لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك في الإسلام ، وقربتك من رسول الله ﷺ ؛ أو موضعتك من قريش ، فلست أدفعه .

— فرد عليّ على هذه الرسالة برسالة قال فيها (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من عليّ بن أبي طالب ، إلى معاوية بن صخر .

أما بعد : فإنه أتاني منك كتابٌ امرئ ليس له بصيرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه .

زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في حق عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا يضرهم بالعمى .

(١) الكامل للمبرد ١٩٣/١

وبعد : فما أنْت وعثمان !! إنما أنت رجلٌ من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه ، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل فيما دَخَلَ فِيهِ المسلمون ، ثم حاكم القومِ إلَيَّ .

وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير ، وأهل الشام وأهل البصرة ، فلعمري ما الأمرُ فيما هنالك إلا سواء ، لأنها بيعَةٌ شاملةٌ ، لا يُستثنى فيها الخيارُ ، ولا يُستأنفُ فيها النظرُ ، وأما شرفي في الإسلام ، وقرابتي من رسول الله ﷺ ، وموضعي من قرائشي ، فلعمري لو استطعت فعُهُ لدفعته .

فهاتان الرسالتان من النماذج الدالة على تطور جديد لفن الرسالة في هذا العهد ، وأبرز ملامح التطور فيهما اصطناع أسلوب الجدل والاحتجاج والبرهنة ؛ حيث يأخذ معاوية في دفع حق على في الخلافة ، ويتصيد الحجج في الخروج عليه ، واعتزام قتاله ، ويبرهن على أنه لا حق له في بيعته وبيعة أهل الشام ، فيرد عليه على مؤنباً ، دامغاً إياه بالميل عن الحق ، واتباع الهوى ، ثم يأخذ في نقض حججه وبراهينه ، وبيان فسادها ؛ ليُشكك حجته ، ويدحض باطل خصمه ، وتكاد البرهنة والاحتجاج يستغرقان الرسالتين من أولهما إلى آخرهما .

أما العناية بالأسلوب ؛ ودقة حبك العبارة ، وحسن تحليلتها ، فأمر لا يحتاج إلى بيان ، فالرسالتان تمثلان قمة ما وصلت إليه الكتابة الفنية في العصر الذي نتحدث عنه ، رتعبان في الوقت نفسه عن نقلة جديدة في هذا الفن استجابة لأحداث الصراع على الخلافة ، بعد مقتل عثمان ، وبهذه النقلة ، أو هذا التطور ، دلفت الكتابة الفنية إلى عصر بنى أمية ، فاتسعت آفاقها ، وتنوعت دواعيها وتعددت ، مما اقتضى أن يخصص لها ديوان ، عرف بديوان الرسائل ، وكان له أكبر الأثر في إنضاجها ، وتقعيد قواعدها .

الملاح الفنية العامة في عهد الراشدين :

أحرز فن الرسالة تقدماً ملحوظاً في عهد الراشدين ؛ لاتساع مجالات الكتابة - إلى حد ما - وتوفر كثير من دواعيها ، مما أمدّها بأفكار وموضوعات ومعان جديدة ، وألبسها ثوباً رشيقيّاً من اللفظ والعبارة جعلها أدخل في باب فن الكلام ، ولم يحرمها من جمال البساطة ، فكان اتساع نطاقها ، وجنوحها الواضح إلى التعبير الفني ، مدعاة إلى أن يعدها بعض الباحثين المحدثين ، أكبر تطور حدث في العهد الراشدي (١) .

ومع أن الرسالة في هذه الفترة لم تستوف دائماً منهجها في بنائها العام الذي يقوم على مقدمة وعرض وخاتمة ، وأنها لم تختلف كثيراً عن عهد النبوة في هذه الناحية ، وأيضاً في الطابع العام للبدء والختام ، والخلو من ألفاظ التعظيم وعبارات التفخيم ، واقتصرت على ذكر اسمي المرسل والمرسل إليه ، مجردين إلا من الصفات اللازمة ، كالخلافة أو الإمارة وما إلى ذلك ، نقول : مع هذا التشابه بين فن الرسالة في العهدين ، فثمة بعض الملامح الواضحة ، التي تكشف عن تطور غير قليل في رسائل عهد الراشدين ، أبرزها :

١ - ظهور بوادر التأثير بالقرآن الكريم لفظاً ومعنى وأسلوباً ، ومن شواهد ، ما جاء في رسالة أبي عبيدة ومعاذ إلى عمر ، كقولهما : « تعنو فيه الوجوه » فهو معنى مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ (٢) وقولهما : « والخلق له داخرون » لوحظ فيه قوله تعالى : ﴿ كل أتوه داخرين ﴾ (٣) ، وما جاء في عهد أبي بكر إلى عمر بالخلافة ،

(١) صدر الإسلام (جورج غريب) ١٤

(٢) سورة طه : ١١١

(٣) سورة النمل : ٨٧

كقوله : « لكل امرئ ما اكتسب » مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لكل امرئ منهم ما اكتسب ﴾ ^(١) وغير ذلك كثير في النماذج السابقة .

كما أخذ الاقتباس من عبارة القرآن ، والاستشهاد بآياته يظهر في بعض رسائل الخلفاء والصحابة ، ومن ذلك قول أبي بكر في عهده إلى عمر : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ ^(٢) ، وقول على بن أبى طالب في رسالته إلى معاوية بعد موقعة الجمل : « .. وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون » فعبارة ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ ^(٣) هى نص عبارة القرآن .

(٢) بروز عنصر الخيال فى التعبير والتصوير - نوعا ما - وإن اتسم بالوضوح ، والبعد عن الإغراق والتكلف ، كقول عمر فى رسالة القضاء : « وأجلى للعمى » فقد استعار العمى لاشتباه الأمر ، وعدم الاهتمام إلى الحق ، وقول عثمان فى رسالته إلى على : « فقد جاوز الماء الزنى ، وبلغ الحزام الطبيين » كناية عن اشتداد الأمر ، وخطورة الموقف ، وقول على فى رسالته إلى معاوية : « دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه » فيه من التعبير بالاستعارة ما لا يخفى ... إلى غير ذلك ، مما نجده مبعوثاً فى رسائل هذه الفترة .

غير أن عنصر الخيال فى هذه الرسائل لم يبلغ من الكثوة والتنوع ، والتناسق والتحليق ، ما بلغه فى أواخر العصر الأموى ، فقد خطا النثر فيه خطوة ملحوظة إلى ميدان الشعر ليزاحمه فى التخيل والتصوير .

(١) سورة النور : ١١/

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٧

(٣) سورة التوبة : ٤٨

٣ - الاستشهاد بالشعر في ثنايا الرسالة ، أو في ختامها ، وقد مر بنا ذلك في رسالة عثمان إلى علي ، وكما نجد مثلاً في بعض رسائل معاوية إلى علي ، ورد على عليها ، ورسائل الحسن بن علي إلى معاوية ، ورده عليها (١) .

على أن الاستشهاد بالشعر في الرسائل على عهد الراشدين ، لم يكن من الكثرة بحيث يعد ظاهراً أسلوبية ، كما جاء في العصر الأموي ، حيث استفاد الشعر في الرسائل حتى جاءت بعض رسائله شعراً خالصاً (٢) .

٤ - ومن مميزات أسلوب الرسائل في هذه الفترة ، القصد إلى الغرض دون إطالة ، أو تكلف ، فالمعاني يقتصر فيها على الحقائق - غالباً ، في غير مبالغة ، أو تهويل ، والأغراض يقصد إلى الضروري منها ، بلا زيادة أو تطويل ؛ ولذلك كانت بعض رسائلهم تطول فيها الجمل ، وتمتد العبارات ، ومع ذلك تعد موجزة ؛ لوفائها بالغرض دون تزيد .

على ضوء ما قدمنا يمكن القول : بأن الكتابة ، وإن خطت في طريق التطور خطوات ليست هينة في هذا العهد ، فقد وقف هذا التطور عند نهضة محدودة ؛ لكونه الخطوة الأولى في ميدان الكتابة الفنية ، ولكون الثورات النثرية لا تحدث دفعة واحدة ، وإنما هي بحاجة إلى عامل الزمن ، وإلى الثقافة ؛ ليرق التعبير على يديهما .

من هنا كانت الأقلام العالية في العهد الراشدي معدودة ، وكان على ابن أبي طالب أبرز من هيأت له ثقافته ، ومداركه وبلاغته ، النهوض بأقواله ... إلى أرقى ما عرف العصر في حقل الكتابة الفنية (٣) .

(١) انظر مثلاً مقاتل الطالبين (أبو الفرج الأصفهاني) ص ٥٣ (بتحقيق السيد أحمد صقر - الحلبي ١٩٤٩ م) .

(٢) انظر أدب السياسة (الحوفي) ص ٤٣٣

(٣) صدر الإسلام (جورج غريب) ١٧

وإذن ، فقد ظل فن الكتابة بعيداً - إلى حد ما - عن طابع الصناعة الفنية لما ذكرنا ، ولقرب العهد بالبداوة من ناحية ، وانعدام الكتابة الديوانية ، بالمعنى الاصطلاحي المعروف ، من ناحية أخرى ؛ إذ كانت الدواوين مازالت في كل بلد بلغة أهله ، ومعلوم أن من أهم أسباب نهضة الكتابة الفنية في العصر الأموي ، وبلوغها مرتبة عالية من النضج والتجويد في العصر العباسي ، صيرورة الكتابة صناعة ، يختص بها طائفة من الكتاب ، توظفهم الدولة في دواوينها ، وبخاصة ديوان الرسائل ^(١) ، الذي تخرج فيه طائفة من أئمة هذا الفن في العصرين الأموي والعباسي .

* * *

(١) أنشئ ديوان الرسائل في خلافة عبد الملك بن مروان : انظر : أدب السياسة (الحوفي) ٤٢٣

الفصل الثالث

الخطابة في ظل الإسلام

تمهيد :

الخطابة قبل الإسلام :

كان عرب الجاهلية قوماً أعظم صناعتهم الكلام ، ولغلبة الأمية عليهم قامت ألسنتهم وحوافظهم مقام الأقلام والدفاتر ، في تسجيل حياتهم ، والتعبير عما يضطرب في عقولهم وقلوبهم ؛ ولذا كانت الفصاحة واللسن وقوة الذهن من أبرز مواهبهم ، وإذا صدر الكلام عن هذه المواهب فهو ضارب في سماء الفن ، محلق في عالم البلاغة .

لم يكن بد من أن يصطنع عرب الجاهلية فن القول ، وأن ينبغوا فيه ، وكان هذا الفن يتمثل عندهم - غالباً - في شكلين أدبيين هما : الشعر والخطابة ، حتى قيل : كان الكلام الجاهلي خطابة وشعراً (١) .

على أن العرب الجاهليين كانوا أكثر احتفالاً بالشعر ؛ ولذا قدموه على الخطابة ، وقدموا الشاعر على الخطيب ، وما ذلك إلا لأنه يمتاز بالإيقاعات الموسيقية الناشئة عن أوازنه وتفاعيله ، فهو بهذه القيمة أحلى وقعاً في أسماعهم ، وأسهل حفظاً على حوافظهم ، وأسرع ظيранاً على ألسنتهم في جنبات الصحراء .

وهم قوم كانوا يحرصون الحرص كله على تسجيل مفاخرهم ومآثرهم

(١) تاريخ الأدب (السباعي) ص ١٧٤

وإذا عتبا بين القبائل ، كما كانوا يفخرون الفخر كله بقوتهم واقتدارهم على حماية أعراضهم وأحسابهم مما يدنسها ، وينال من علو منزلتها في الشرف والمنعة ، والشعر بما هيء له من أسباب الذبوع والانتشار ، أجدى وسائلهم في تحقيق ما يحرصون عليه ، ويفخرون به ، فإذا أراد شاعر إذاعة مآثر قبيلته ، أو إرهاب عدوها ، أو تقييد فكرة عامة ، أو حدثاً هاماً ، أو حكمة سائرة ، انطلق لسانه بالأبيات أو القصيدة ، فلا تكاد تجاوز شفثيه حتى يتلقفها الرواة ويطيروا بها كل مطار ، فلا تلبث أن تذيع في القبائل ، ويتغنى بها الركبان والحدادة ، وتردد صداها دروب البوادي ومفاوزها .

وما كان للخطابة أن تنازع الشعر في هذا المضمار « فلم تكن الخطابة تدوى في القبائل كما يسير الشعر » (١) .

من أجل هذا كانت حفاوة الجاهليين بالشعر عظيمة ، بحيث « كانوا لا يهتفون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج » (٢) .

على أن تقديم الجاهليين الشعر على الخطابة لا يعنى أن الخطابة كانت قليلة الخطر في مجتمعهم ، أو هينة المكانة في نفوسهم .

ففى أخبارهم ما يدل على شدة عنايتهم بهذا الفن ، وتقديرهم لخطره ، وأنه كان يتولاها من بينهم أهل السيادة والرياسة من شيوخ القبائل ، وزعمائها وقوادها ، وأهل البلاغة والكياسة فيها ، فارتبطت مكانة الخطيب بالشرف والرياسة والمهابة في مجتمعهم ، واشترأت إليها نفوسهم ، فكان من مظاهر عنايتهم بها أن جعلوا يدرسون فتيانهم عليها في حدائهم (٣) .

(١) تاريخ الشعر السياسى (أحمد الشايب) ص ٢٩ (طبعة النهضة المصرية ١٩٤٥ م) .

(٢) العملة ٣٧/١

(٣) البيان والتبيين ١٢٦/١

وليس من شك في أن وراء هذه العناية بفن الخطابة ، وتقدير الجاهليين مكانتها ، ما حفلت به بيئتهم من دواعٍ إلخاطبة تطلبها ، ومواقف تقتضيها كالتحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثأر ، والدعوة إلى إصلاح ذات البين ، والسفارة بين القبائل ، والوفادة على ملوك العرب وزعمائهم ، والتحكيم في الخصومات ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والمباهاة بقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، وشرف النسب ، كل ذلك إلى جانب المناسبات الاجتماعية الهامة في حياتهم ، كالزواج ، والتهاني ، والتعازي .. وما إلى ذلك ، فكانت الحاجة ماسة في كل هذه الأغراض إلى تناول هذا الفن من القول ، الذي تفيض به قرائحهم بديهة وارتجالاً ، لا يتحملون فيه عناء ، أو يتكلفون رهقاً .

نفهم من هذا أن الخطابة نهضت وازدهرت في العصر الجاهلي ؛ لتوفر أدلتها ودواعيها ، ومن دلائل نهضة الخطابة وازدهارها آنذاك ، تفضيل الجاهليين نماذج منها ، واختصاصها بأسماء ، تبرزها وتنبه على مكانتها من نفوسهم ، فقد ذكروا من خطبهم : « العجوز » وهي خطبة لآل رقية ، متى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ، و « العذراء » وهي خطبة قيس بن خازجة ؛ لأنه كان أباً عذرتها ، و « الشوهاء » وهي خطبة سحبان بن وائل ، وقيل لها ذلك من حسنها ^(١) ، تماماً كما أفردوا بعض قصائدهم وخصوصاً بالاستحسان وسموها « المعلقات » .

وتأثير الخطابة الشديد في نفوس عرب الجاهلية شاهد على مكانتها وازدهارها ، ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى الأثر النفسي الذي تركته خطبة قس بن ساعدة في النبي ﷺ ، وكان بين من استمع إليها في سوق

(١) الخطابة في صدر الإسلام (طاهر درويش) ١/٥٤ (دار المعارف بمصر

عكاظ قبل البعثة ، وقد ظل هذا الأثر ماثلاً في نفسه الشريفة بعد مبعثه ، يشهد بتقديره للخطيب ، وإعجابه بخطبته ، فما إن وفد عليه وفد إياد ، قبيلة قس بن ساعدة ، حتى سألهم عنه ، فلما قالوا : إنه هلك ، قال : « يرحمه الله ، كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول : أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ... » ^(١) .

ويتقوى هذه الدلائل ويعززها كثرة ما روى من أسماء خطبائهم ، وأغلبها أسماء لِسادة القبائل وزعمائها وذوى المكانة فيها ، وليس لنا أن نعجب من كثرة خطبائهم ، مع قلة ما وصل إلينا من خطبهم ، إذا عرفنا أنه كان لكل قبيلة خطيب أو أكثر ، كما كان لها شاعر أو أكثر ، أما قلة خطبهم بين أيدينا فلذلك أسباب فنية وتاريخية ، ليس هنا مجال الكلام عنها ، ويسهل الوقوف عليها في مظانها ^(٢) ، وإلى هذا يشير القلقشندي في قوله ^(٣) : « واعلم أنه كان للعرب بالخطبة والنثر غاية الاعتناء ، حتى قال صاحب الريحان والريعان : إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشرة ؛ لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذى يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحملات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد » .

(١) مروج الذهب (المسعودى) ٢٩٤/١ (المطبعة البهية - القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

(٢) انظر مثلاً : الخطابة في صدر الإسلام ٥٧/١ - ٦٦

(٣) صبح الأعشى ٢١٠/١ ، وانظر : العمدة ٥/١

ومن أشهر خطبائهم : قيس بن خارجة ، خطيب داحس والغبراء ،
وقس بن ساعدة الإيادي ، خطيب عكاظ ، وسحبان بن وائل الباهلي ،
وأكثم بن صيفي حكيم العرب ، وكبير قضاتها ، وزعيم خطبائها ، وحاجب
ابن زرارة التميمي ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريان ، والحارث
ابن ظالم المري ... وكثير غيرهم ، تطالعنا أسماؤهم في المصادر العربية
القديمة .

وإذا كان من الضروري لدراسة تطور فن الخطابة في صدر الإسلام ،
أن نقف على الملامح الفنية للخطابة الجاهلية ، نرى من المناسب أن نقدم
بعض نماذج من خطب الجاهليين ، تكون بمثابة شواهد على بعض ما نذكره
لها من سمات فنية .

- خطب هانيء بن قبيصة الشيباني يحرض قومه يوم ذى قار^(١) :
« يا معشر بكر ، هالك معذور ، خير من ناج فرور ، إن الحذر
لا يُنجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنيّة ولا الدنيّة ،
يا معشر بكر ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور ،
أكرم منه في الأعجاز والظهور ، يا آل بكر : قاتلوا فما للمنايا من بُد » .

- وخطب مرثد الخير - أحد أقيال اليمن في الجاهلية - في الصلح
بين قومين متشاحنين^(٢) :

(١) هو من أيام العرب في الجاهلية كان بين بنى شيبان والفرس : انظر أمالي القالي
١٦٩/١ (دار الكتب ١٩٣٦ م) .

(٢) أمالي القالي ٩٣/١ . لا تنشطوا : لا تحلوا . العون : جمع عون وهي الثيب ،
والمراد لا تشعلوا نار الحرب . أرت النار : زاد من اشتعالها . الجائحة : التي تحتاح كل شيء .
الأيلة : الثكل . أبلاد الكلم : آثار الجرح . سبيع وميثم : حيان من أحياء العرب اليمنية .

« لا تُنشطوا عَقْلَ الشَّوَارِدِ ، وتُلْقِحو عَوْنَ القَوَاعِدِ ، ولا تُورثوا نيرانَ الأحقادِ ، ففيها المتلفةُ المستأصلةُ ، والجائحةُ والأليَّةُ ، وعَفُوا بالحِلْمِ أبلادَ الكَلَمِ ، وأنبيوا إلى السبيلِ الأرشدِ ، والمنهجِ الأقصدِ ، فإنَّ الحربَ تقبِلُ بزيرجِ الغرورِ ، وتُذِيرُ بالويلِ والثُّبورِ ، ثم قال :

ألا هل أنى الأقوامَ بذلى نصيحةً حَبِثَ بها مِنى سُبُعاً ومَيْثاً
وقلتُ اعلموا أنَّ التَّدَابِرَ غادرتُ عَوَاقِبُهُ للذَّلِّ والقَلِّ جُرْهُمَا
ولا تَجْنِيا حرباً تَجُرُّ عليكما عَوَاقِبُهَا يوماً من الشرِّ أشاماً

- وخطب قس بن ساعدة بسوق عكاظ خطبته المشهورة ، فقال (١) :

« أيها الناسُ : اسمعوا وعوا ، مَنْ عاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ ، لَيْلٌ دَاجٍ ، ونهارٌ سَاجٍ ، وسَمَاءٌ ذاتُ أَبْراجٍ ، ونجومٌ تَزهَرُ ، وبحارٌ تَترخَرُ ، وجبالٌ مَرساةٌ ، وأرضٌ مُدحاةٌ ، وأَنْهارٌ مُجرَّةٌ ، إِنَّ في السَّماءِ لَحَبراً ، وَإِنَّ في الأَرْضِ لَعَبْراً ، ما بَالُ الناسِ يَذْهبونَ ولا يَرجعونَ ، أَرْضُوا فَأَقَامُوا ؟ أمْ تُرْكُوا فَنَامُوا ؟؟ يُقَسِّمُ قُسٌّ بِاللَّهِ قَسْماً لا إثمَ فيه : إِنَّ للهِ ديناً هو أَرْضَى لهُ ، وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه ، إثمكم لتأتونَ مِنَ الأمرِ مُنْكَراً ، وأنشأ يقول :

في الدَّاهِبِ الأوَّلِينَ م مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِداً للموتِ ليس لها مَصَادِيرُ
ورَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضِي الأَكَابِرُ والأَصَاغِرُ
لا يَرْجِعُ المَاضِي إلَيَّ م ولا مِنَ الباقِينَ غَايِرُ
أَيَقِنْتُ أَنِّي لا مَحَالَةَ م حيثُ صارَ القَوْمُ صَائِرُ

(١) العقد الفريد ٣٨٥/٢ ومروج الذهب ٢٩٤/١ (البهية) .

(ب) أهم الملامح الفنية للخطابة في الجاهلية :

(١) البديهة والارتجال : فقد كانت الفصاحة موهبة فيهم ، كما كانت ظروف البيئة البدوية لا تطلب منهم التأنيق في شأن من شئونهم ، وكثيراً ما كانت تفاجئهم بالمواقف والأحداث التي تستدعي الخطابة ، فينهض خطبائهم بالقول ارتجالاً ، ثمدهم قريحة حاضرة ، ولغة طيبة .

(٢) استمدت الخطابة موضوعاتها ومعانيها من أغراض حياتهم ، وطبيعة اجتماعهم وعلاقاتهم ، وهي على تعددها كانت محصورة في نطاق هذه الحياة البدوية البسيطة ، وتمتاز معانيها أيضاً بقربها ووضوحها وبعدها عن التفلسف ؛ إذ كان خطبائهم يستمدونها من بيئتهم الفطرية ، ومن شئون حياتهم الخالية من التعقيد .

(٣) قوة العبارة وفصاحتها ، واشتمالها على كثير من الألفاظ الغريبة الخشنة ، المستمدة من واقعهم اللغوي المتأثر بهذه المرحلة الحضارية من الحياة العربية .

ولقيام خطبتهم على البديهة والارتجال ، خلت عبارتها من المعاناة التي تظهر في تكلف الصنعة ، كما قلت فيها ألوان الزخرف اللفظي - غالباً - عدا السجع الذي كان شائعاً فيها ، وبخاصة في خطب المفاخرة والمناقب والتحريض على القتال ؛ إذ كان السجع محبباً إلى نفوسهم ؛ لما فيه من نغم موسيقى ، يقربه من الشعر الذي كانوا يهيمون به ، ويستجيبون لتأثيره ، ومن ثم استعانوا بالسجع في خطابتهم على التأثير في نفوس السامعين ، ويأتى قصر العبارة وميلها إلى الازدواج في المرتبة التالية للسجع شيوعاً في خطبتهم .

(٤) الإكثار من استخدام الترادف المعنوي ، فيعبرون عن المعنى الواحد بعبارات شتى ، تأكيداً للمعنى ، وربما كان للارتجال أثر في ذلك .

(٥) اعتمادها على لغة الحقيقة في التعبير عن المعاني مع الاستعانة أحياناً بالتخييل والتصوير ، لاستثارة العاطفة ، وإيقاظ الوجدان .

(٦) اشتغالها على كثير من أمثالهم وحكمهم ، لما لها من أثر في قوة المعنى ، والإقناع به ، وتهيئة النفوس لقبوله ، فهي تؤدي في خطابهم ما تؤديه الحجج والبراهين .

(٧) لم تخل خطابتهم من الشعر يطعمون به خطيبهم من حين لآخر ، إذ كان كثير من خطبائهم يتمتعون بموهبة الشعر أيضاً ، كعامر بن الطفيل ، وحاتم الطائي ، وحاجب بن زرارة وغيرهم ، فالقول يخلو الخطب الجاهلية من الشعر فيه بعد عن الحقيقة (١) .

(٨) الإيجاز هو الأسلوب الغالب عليها ؛ إذ كان في طبعهم ، ومناط البلاغة عندهم ، على أنهم كانوا يميلون إلى الإطناب في أنواع خاصة من خطبهم يرونها أنسب لمناسبتها ، كخطب المفاخرة ، والصلح بين العشائر ، وكان الترادف المعنوي من أهم وسائلهم في الإطناب ، كما قدمنا .

(٩) الاعتدال في الخطب من حيث الطول والقصر ، فقلما بالغوا في طول الطويل وقصر القصير منها .

(١٠) اضطرابها في مراعاة العناصر الأساسية في الخطابة ، وهي المقدمة والغرض والخاتمة ، فقلما اكتملت هذه الأجزاء في خطبة من خطب الجاهليين التي وصلت إلينا .

على هذا النحو كانت الخطابة في الجاهلية ، فإلى أي حد تأثرت بالإسلام ؟؟ :

- ١ -

ازدهار الخطابة في ظل الإسلام :

يشهد التاريخ بأن الخطابة سارت منذ أقدم العصور في ركاب

(١) ممن ذهب إلى ذلك الأستاذ السباعي بيومي في : تاريخ الأدب العربي ص ١٧٨

الثورات والنهضات ، وأنها كانت سلاحاً ماضياً في الدعوات ، والأحداث الكبار .

وقد مر بنا أن الإسلام كان بمثابة ثورة على الحياة العربية الجاهلية ، وأنه أحدث تحولاً خطيراً ، ونهضة شاملة في حياة العرب ، تخطت حدود البيئة والعصر ، ومن شأن هذا أن ينهض بالخطابة ، ويخلق الخطباء .

ففي ظل الإسلام ارتقت الخطابة مدارج نهضة كبرى ، قطعت بها شوطاً بعيداً إلى عصرها الذهبي ، في أخريات عهد الراشدين ، وفي عصر بنى أمية ؛ وذلك لشدة حاجة الدعوة الإسلامية الجديدة إليها ؛ إذ كانت وسيلتها المباشرة الوحيدة لمخاطبة الجماعات وإقناعها والتأثير فيها ، ثم لاستنفارها لنشر مبادئها ، بالجهاد ، والغزو ، وتقويض حصون الكفر والشرك ، أو بالتبصير بتعاليمها ، وغزو العقول والقلوب بها ، متخذة الوجدانية والثقیف سبيلاً إلى الأسماع ، وعظاً ، وإرشاداً ، وهداية ، وترغيباً ، وترهيباً ، أو للرد على خصومها ، وتزييف باطلهم بالبراهين والحجج .

ومعنى هذا أن الإسلام أخذ بيد الخطابة ، فزاد من دواعيها ، وارتاد بها حقولاً جديدة ، لم تكن تعهدا في الجاهلية ؛ لأنه دين لم يقف عند المطالب الأخروية للإنسان ، بل جاوزها إلى أمور حياته الدنيا ، فاهتم بها وأولاه عناية شديدة ، ورفع أمور الاجتماع درجات ، حتى في عباداته ، فلم يدع فرصة للاجتماع إلا حث عليها ، أو أوجبها ، وطلب فيها من القول ما هو ضروري له ، كخطبة الجمعة والعيد والوقوف بعرفات ... وغيرها ، ولم تكن الخطابة في هذه المواقف تقتصر على الوعظ والإرشاد ، والترغيب ، والترهيب ، بل تعدت ذلك إلى ميادين السياسة والاجتماع .

كل ذلك ساعد على ازدهار الخطابة في ظل الإسلام ، فانبرت

تشرح الدعوة وتؤيدها وتدافع عنها وتبين أهدافها ، وكان الطريق أمامها منفسحاً عريضاً ؛ لأنها أقدر على شرح الحقائق والدعوات والإقناع بها ، فهي - في حقيقتها - فن هدفه التوجيه والاستمالة والإقناع ، فن يجمع بين البراهين والأقيسة الفكرية والعقلية من جهة ، والعاطفة والخيال ، وجمال البيان من جهة أخرى ؛ ولذا كان هذا الفن لسان الثورات والنهضات والدعوات - كما قلنا .

ثم إن الخطابة مجال تتسع له أفهام العامة والخاصة ، ولم يتعرض لها القرآن بما ينفر منها ، أو يزهّد فيها ، فلم يقف منها موقفه من الشعر ، بل حث عليها ، حيث جعلها شعيرة من شعائره في بعض المواقف الدينية . كما أنها كانت عدة الرسول في شتى الأمور ، من دعوة إلى الدين ، إلى بيان لأحكامه ، ومن وعظ وتذكير ، إلى وعيد وتهديد ... وغير ذلك من جلائل الأمور .

واقترى بالرسول من بعده خلفاؤه ، فحادوا عن ألوان معينة من الشعر كما حاد ، وتناولوا في خطبهم ما كان يتناول ، وزادوا على ذلك ، فاقترحوا بالخطابة ميادين جديدة ، هيأتها الظروف التي جددت بعد وفاة الرسول ، كالحلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وردة العرب عن الإسلام في خلافة أبي بكر ، واتساع الفتوح في خلافة عمر وعثمان ، وما اقتضاه ذلك من الحث على الجهاد ، وجمع الكلمة والقلوب ، ورسم السياسة لأمراء الجيوش ، والقواد والولاة والمجاهدين ، وتنظيم الجماعة الإسلامية ، والخروج بها من فوضى الجاهلية ، والتهاني بالنصر ، وشكر نعمة الله بالفتح ، إذكاء لروح الجهاد ، وإبرازاً لفضيلته ، بالتركيز على أنه سبيل المسلم إلى الجنة ، وثناء الشهداء ، إكباراً للاستشهاد وتذكيراً بما أعدّه الله للشهداء من رفيع المنزلة يوم القيامة .

ولما اندلعت الفتنة بين جماعة المسلمين في أخريات خلافة عثمان ، وطوال خلافة علي ، ودخل المسلمون من بابها إلى خلاف لم يأت بعده اتفاق ، فرق جمعهم ، وشتت كلمتهم ، وجعل منهم شيعاً وأحزاباً ، كثرت الخطب من دعاة الأحزاب ، كل يدعو لصاحبه ، ويحرض على القتال معه ، ويدافع عن حقه في الخلافة ، أو يدفع حق الآخرين فيها ، وقام كل ذلك على سطوع الحجة ، ووضوح القصد من جهة ، وعلى حلاوة البلاغة وسحر البيان من جهة أخرى ، وليس هناك ما ينهض بهذه الأغراض نهوض الخطابة .

بهذه العوامل وغيرها تهيأت تربة صالحة ، جعلت من الخطابة شجرة مزدهرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فقد رحب ألقها ، وتعددت مقاماتها ، وعظم شأنها ، وكثر رجالها ، وتولاها كل ذى مكانة .

وإذن ، فقد ازدهرت الخطابة في صدر الإسلام ، واحتلت المقام الأول في ميادين القول ، فزحزحت الشعر عن مكان الصدارة التي كانت له في الجاهلية ؛ ليتقدم الخطيب على الشاعر .

ولم يقف أثر الإسلام عند هذا الحد في تطوير الخطابة والنهوض بها ، وصبغها بصبغة تختلف إلى حد كبير عما كانت عليه قبل ظهوره ، فقد نستطيع أن نضيف إلى ذلك تحولات أخرى في الأغراض ، وفي الطابع العام للخطابة أهمها :

١ - القضاء على بعض مجالات الخطابة الجاهلية ، كخطب المنافرات والمفاخرات ، والتعصب القبلي ، التي كانت تشعل نيران التباغض ، وتؤجج الأحقاد ، وتمزق وحدة الشعب العربي ، فقد جد الإسلام في القضاء على بواعث هذه الألوان من الخطابة ، بتشديد النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب ، وبما شنه من حرب لا هوادة فيها على العصبية القبلية وبواعثها .

٢ - تحويل مواقف خطابية جاهلية إلى مواقف خطابية إسلامية ، كخطب الغزو والجهاد ، التي حلت محل خطب التحريض على الغارة ، والأخذ بالثأر ، وغيرها مما كان ينبعث عن الصراع القبلي .

٣ - اتخاذ كثير من الخطب في الإسلام طابعاً دينياً لم يكن موجوداً في الجاهلية ، كخطب الدعوة إلى الإسلام ، وشرح عقائده ، وخطب الوعظ والترغيب والترهيب ، ونحوها من الأمور الروحية ، التي تتصل بالعقائد والتشريع ، أو تحت على الفضائل ، مبشرة بخير الدنيا والآخرة .

ولا ينبغي أن نقارن هذه الخطب بما كان في الجاهلية من خطب في الوعظ أو الإرشاد الديني ، أو التأمل الذهني في الكون ودلالته ، فهذا اللون من الخطابة الجاهلية - على ندرته في كلامهم - إنما كان وليد خواطر وتأملات قلقة ساذجة ، لا ينبعث عن إيمان راسخ ، أو يقوم على عقيدة واضحة المعالم والأهداف .

٤ - ظهور ملامح الخطابة السياسية ، وتدرجها في طريق النمو والتطور واكتمال العناصر ، حتى أصبحت قسماً هاماً من الخطابة الإسلامية في أواخر هذا العصر ، وفي العصر الأموي ، كالخطب التي دارت حول الخلافة ، وسياسة الرعية ، وكذلك خطب الجهاد والوقائع ؛ لأنها ، وإن كان باعثها ديني ، فإنها ارتدت ثياب السياسة ، حين أصبح من أهدافها أن تقيم للإسلام دولة ، تعلن مبادئه ، وتبسط سلطانه ، وتجمع الناس تحت لواء الطاعة لولي الأمر في الإسلام .

على أن الخطبة السياسية في صدر الإسلام لم تخلص تماماً للسياسة ، بل امتزجت فيها السياسة بالإرشاد الديني ، بل والاجتماعي أحياناً ، على نحو ما سنرى في دراسة نماذجها .

نعم كانت هناك خطابة في الجاهلية حول النزاع القبلي ، والسفارة بين القبائل ، ونحوها ، ولكنها كانت في الغالب ترتدى ثوب المفاخرة ،

وتتشع بالعصبة القبلية ، مما جعل الطابع السياسى فيها ضعيفاً ، لا يتمتع بوجود متميز ، أو ملامح بارزة .

يتضح مما تقدم أن الخطابة فى هذه الفترة التى نؤرخ لها ، قد تنوعت أغراضها وموضوعاتها ، فهى حيناً دينية ، تدعم الدعوة ، وتبذ الكفر والشرك ، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أو سياسية تعالج أمور الدولة الناشئة ومشكلاتها ، وتوضح سياسة الحكم وترسى قواعده ، وتنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، أو بين الدولة الإسلامية ومن دخل فى عهدها وذمتها من أهل الكتاب ... أو غير ذلك ، من شئون الحكم والسياسة فى الإسلام ، وقد علا نجم هذا اللون من الخطابة بعد وفاة الرسول ؛ لاختلاف الآراء حول مصير الخلافة ؛ ولمن تكون ، وقد تمتزج فيه العناصر السياسية والدينية ، كما ذكرنا ، وكما سنرى فى دراستنا نماذج من خطب هذا العصر .

ولمى جانب الخطب الإسلامية فى الدين والسياسة ، احتلت الخطابة الاجتماعية الإسلامية مكاناً مرموقاً ، ونهضت برسالتها فى دعم النظام الاجتماعى الإسلامى ، القائم على العدل والمساواة بين المسلمين ، وحمايته من الآفات التى كانت تشوب الحياة الاجتماعية قبل الإسلام .

هذا فضلاً عن خطب المحافل والوفود ، فمن المعلوم أن وفوداً كثيرة كانت تفد على النبى وعلى خلفائه ، وفى طليعتهم الخطباء « يبايعون باسمهم ، أو يفاخرون ، أو يهتثون ، أو يعرضون مايشغلهم من كبريات الأمور » (١) .

وقد ازدهرت كل هذه الألوان من الخطب ، وبخاصة الدينية والسياسية منها ، وذلك استجابة لتيار الدعوة الجديدة ، واستجابة لأحداث العصر .

(١) صدر الإسلام (جورج غريب) ١٢٠ ، وانظر السيرة ق ٥٦٢/٢

ولعل في مقدمة ما يميز الخطابة في عهد النبوة والراشدين ، عن الخطابة الجاهلية ، ما امتازت به تلك الخطب من ظواهر معنوية وأسلوبية ، تعد صدًى مباشراً لأثر القرآن الكريم في نفوس المسلمين وعقولهم وألسنتهم ؛ إذ كان من الطبيعي أن يكون مجرى الدين الجديد هو المنبع الثر ، الذي تستقى منه الخطابة ، ومن ثم أقبل الخطباء ينهلون من بلاغة القرآن التي لا تنضب .

وقد ذكرنا آنفاً ، كيف أحس العرب عند سماع القرآن بالروعة والدهشة ، وأوجزنا القول في تفسير مناط هذا الإعجاب ، وسقنا بعض الشواهد التي تدل على تميز الأسلوب القرآني وتفوقه وإعجازه ، وقلنا : إن المسلمين أقبلوا على القرآن ، وأصبح همهم حفظه وتلاوته وتدبره ، وتأمل إعجازه ، ثم انقلبوا ينهلون من معينه في خطبهم ، فعالجوا موضوعاته ، وقلدوا أسلوبه ، ونهجوا نهجه في البرهنة والاحتجاج والإقناع ، إلى حد جعل من آياته محجة لمعظم الخطباء ، فارتفعت بذلك كله معانيهم ، وتهذبت ألفاظهم ، وارتقت أساليبهم في سماء الفصاحة درجات .

يضاف إلى هذا حرصهم في خطبهم على الاستشهاد بآياته ، والاقتباس من عباراته ، والاستمداد من معانيه ، والاتجاه إلى أغراضه ، فكان القرآن هو المدرسة العظمى التي تخرجت فيها الخطابة الإسلامية ، مترسمة خطاه ، متتبعة هداه ، محاولة أن تبلغ بعض مداه ، ويتضح هذا فيما نورد ، من نماذج لخطب صدر الإسلام ، وتعليقنا عليها .

- ٢ -

دراسة نماذج من خطب العصر :

(١)

- خطب رسول الله ﷺ الجمعة الأولى بالمدينة ، فقال (١) :

(١) الطبري ٢/٢٥٥ ، أكفره : كفره وكفر به : جحدته ، وهو معنى إسلامي =

« الحمد لله ، أحمده وأستعينه : وأستغفره وأستهديه ، وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطيع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصيه فقد غوى وقرط ، وضلّ ضلالاً بعيداً (١) .

وأوصيكم بتقوى الله ، فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه (٢) ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وإن تقوى الله لمن عمل به (٣) على وجل ومخافة من ربه ، عون صديق على ما تبغون من أمر الآخرة .

ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية ، لا ينوي بذلك إلا وجه الله (٤) ، يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سيوي ذلك ، يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ﴿ ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ﴾ (٥) .

= أصله من كفر الشيء : غطاه ، كفرا (بالفتح) وكفرا بالضم . الفترة : ما بين كل رسولين من رسل الله . انقطاع من الزمان : ذهاب أكثر الزمان ، وقرب انتهاء الحياة الدنيا . والذخر ، والذخيرة : ما ادخر لوقت الحاجة . الخلف : الاسم من الإخلاف (مصدر أخلف) وهو أن تعد عدة ولا تنجزها .

(١) جملة مقتبسة من قوله تعالى في سورة النساء : ١١٦ : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، وقوله في السورة نفسها آية ١٣٦ : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ .

(٢) عبارة مقتبسة من قوله تعالى في سورة آل عمران : ٢٨ ، ٣٠ : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ .

(٣) عمل به : أى بالأمر بالتقوى المفهوم من قوله السابق : وأن يأمره بتقوى الله .

(٤) وجه الله : أى الله ، والمقصود مرضاته ، وما يترتب عليها من ثواب .

(٥) اقتباس من قوله تعالى في سورة آل عمران : ٣٠ : ﴿ يوم تجد كل =

والذى صدق قوله ، وأنجز وعده : لا تحلف لذلك ؛ فإنه يقول عز وجل : (١) ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية ، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجره (٢) ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً (٣) . إلى أن يقول فى ختامها : « الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم » .

فالخطبة كما نرى تقوم على الوعظ والإرشاد الدينى ، حيث يوصى الرسول السامعين بتقوى الله ، والحرص على مرضاته ، والخوف من غضبه ، ويقرر أن هذه الوصية هى خير ما يوصى به المسلم المسلم ، ويعلل لذلك بما تحققه هذه النصيحة - لمن يعمل بها مخلصاً - من عون صادق فى التزود للدار الآخرة ، والفوز بالنعيم الذى أعده الله لمن اتقاه .

كما يحرص الرسول على ربط قيمة هذه التقوى ، وقبولها عند الله ، وترتب الثواب عليها ، بالإخلاص فى النية ، والبراءة من الرياء ، بمطابقة السر العلانية .

وهذا الإخلاص فى التقوى يضمن للمسلم فوزاً عاجلاً ، بما يناله من حسن الأحداث ، وخلود الذكر الطيب بين الناس ، وآخر آجلاً ، يوم يقف المرء بين يدى ربه ، وليس له من زاد أفضل من التقوى .

= نفس ما عملت من خير محضاً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴿ .

(١) سورة ق : ٢٩

(٢) اقتباس من قوله تعالى فى سورة الطلاق : ٥ : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ﴾ .

(٣) أكثر ألفاظ هذه العبارة مقتبس من قوله تعالى فى سورة الأحزاب : ٧١ ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ .

وهكذا تتمتع هذه الخطبة بالوحدة الموضوعية ، فهي تدور من أولها إلى آخرها حول الوصية بتقوى الله ، وبيان حقيقة هذه التقوى ، وإبراز نتائجها .

وإذ كانت الخطبة دينية ، فإن الروح القرآنية تشيع فيها ، وتتضح فيما جنحت إليه الخطبة من كثرة الاستمداد من معاني القرآن ، واقتباس بعض آياته ، والاستشهاد بنصوص منه .

كما نلمح تأثير القرآن في أسلوب الخطبة ، الذي يعتمد أساساً على تدعيم المضمون بالأدلة القرآنية ، وعلى سهولة اللفظ مع جزالته وقوته ، والميل إلى الترسل - غالباً - والازدواج والموازنة - أحياناً - والخلو من السجع تماماً .

والخطبة بعد هذا تعتمد أسلوب التكرار لتأكيد المعاني ، فتعرضها في معارض مختلفة من العبارة ، وهو ما يعرف بالترادف المعنوي ، فتعرضها في لون من الإطناب ، ومع ذلك فهي - على طولها - تعد أميل إلى الإيجاز إذا قيسَت بما تكون عليه مثيلاتها من خطب الجمعة عادة .

ونلاحظ كذلك اشتغال الخطبة على كل المراحل الفنية للخطبة ، من مقدمة وعرض وخاتمة .

(٢)

- وخطب ﷺ بالمدينة فقال (١) :

« إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، أَحْمَدُهُ وَأُسْتَعِينُهُ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

(١) السيرة لابن هشام ق ٥٠١/١

إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَيَّنَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَذْخَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ ، إِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ ، أَحِبُّوا مَا أَحَبَّ اللَّهُ ، أَحِبُّوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ ، وَلَا تَمَلُّوا كَلَامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ ، وَلَا تَقْسُ عَنْهُ قُلُوبُكُمْ ، فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ يَخْتَارُ وَيَصْطَفِي ، قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ خَيْرَتَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَمَصْطَفَاهُ مِنَ الْعِبَادِ ، وَالصَّالِحُ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَمَنْ كُلِّ مَا أَوْقَى النَّاسُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ .

فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَاتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَاصْدُقُوا اللَّهَ صَالِحَ مَا تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ أَنْ يُنْكثَ عَهْدُهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ » .

الخطبة دينية كسابقتها ، فهي تعالج موضوعاً دينياً ، هو حث المسلمين على الإقبال على كتاب الله ؛ وقراءته ، والتقرب بذلك إلى الله ، فهو يحب لعباده أن يحبوا ما أحب ، وقد آثر الله القرآن ، واضطفاه بحبه .

والرسول يبغي من وراء هذه العظة أن يتدبر المسلمون كتاب الله ، فيكون ذلك درعاً لهم من الانتكاث في الكفر بعد الإيمان ، وهدياً يرشدهم إلى ثقوى الله ، والاستمسك بحبل دينه ، ونبراساً يتمثلونه في سلوكهم قولاً وعملاً .

وهي كسابقتها أيضاً ، تستمد من مجرى القرآن ، وتقتبس من آياته ، كما نرى في قوله ﷺ : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له » وهو معنى قرآني اقتبس مع بعض عبارته من قوله تعالى (١) : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا تجد له ولياً مرشداً ﴾ وقوله ﷺ : « إن أحسن الحديث كتاب الله » مستمد أيضاً من قوله تعالى (٢) : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً ... ﴾ .

(١) سورة الكهف : ١٧

(٢) سورة الزمر : ٢٣

ويلاحظ اتفاق الخطبتين في المقدمة ، التي تدور حول حمد الله والثناء عليه ، واختلافهما في الخاتمة ، فقد ختمت الأولى بعبارة (الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم) بينما ختمت الأخرى بعبارة (والسلام عليكم) .
والطابع الغالب على العبارة فيهما هو الترسل ، واصطناع لغة الحقيقة في الأداء .

(٣)

وخطب رسول الله في حجة الوداع ، وهي آخر خطبة له : فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (١) :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت أمانة فليؤدها إلى من ائتمن عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا .

أما بعد ، أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحللوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله

(١) السيرة لابن هشام ق ٦٠٢/١

السموات والأرض ، وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة
حُرَّم ...

أما بعد ، أيها الناس : فإنّ لكم على نسائكم حقاً ، ولهنّ عليكم
حقاً ، لكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهنّ أن
لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن في
المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ
بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهنّ عندكم عوان (أسيرات)
لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً ، وإتاكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم
فروجهنّ بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنّي قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن
اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولي وأعقلوه ، تعلمنّ أن كلّ مسلم أخٌ للمسلم ،
وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرئٍ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب
نفسٍ منه ، فلا تظلمنّ أنفسكم .

اللهم هل بلغت ، اللهم اشهد .

وأول ما يلاحظ على هذه الخطبة تعدد موضوعاتها ، من وعظ
ديني ، وإرشاد اجتماعي ، وتشريع أحكام .

— فقد ذكر الرسول الناس فيها بالموت والحساب ، وحذرهم من طاعة
الشیطان ، وأكد حرمة الربا والنسئ في الإسلام وأوصى بالمرأة خيراً ، وعالج
جانباً من جوانب علاقتها بالرجل في ظل العدل الإسلامي ، وأبان عن حرمة
المال الخاص ، ونهى عن الاعتداء عليه ... إلى غير ذلك من أمور الدين
والدنيا .

ولعل ظروف هذا الموقف الخطابي الخاص ، الذى يودع فيه الرسول أمته ، هى التى أملت على الخطبة هذا التعدد فى الموضوع ؛ لحرصه ﷺ على تأكيد هذه الأمور ، وتقريرها فى عقول المسلمين وضمائهم قبل أن يفارقهم ، وتحديد المنهج الذى يلتزمون به ، ويسيروا على هديه من بعده ، وهو العمل بكتاب الله وسنة نبيه .

وكل هذه المواضيع مما عاجله القرآن ، فهى منه تستمد ، وعليه تعول ، وقد غلب لفظ القرآن على بعضها ، من ذلك ما ذكره الرسول ﷺ عن النسيء ، فهو يكاد يكون نص القرآن فيه ^(١) ، وقوله : ﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ وقوله : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ﴾ وقوله : ﴿ أن لا يأتين بفاحشة مبينة ﴾ وكلها عبارات ومعان قرآنية . وقد نلاحظ كذلك أن هذه الخطبة ختمت بعبارة : (اللهم هل بلغت اللهم اشهد) وهى تختلف فى ذلك عن سابقتها .

(٤)

— وخطب ثابت بن قيس بن الشماس ، بين يدى رسول الله ﷺ ، رداً على خطيب وفد بنى تميم ، فقال ^(٢) :

« الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسيع كُرسِيه علمه ، ولم يك شئ قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا مملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقَه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان

(١) انظر : سورة التوبة : ٣٧

(٢) انظر قصة هذا الوفد ، ونص الخطبة فى : السيرة لابن هشام ق ٥٦/٢

خَيْرَةَ اللَّهِ مِنَ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، فَأَمَّنَ بِرَسُولِ اللَّهِ
الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَذَوِي رَحِمِهِ ، أَكْرَمَ النَّاسِ حَسَباً ، وَأَحْسَنَ النَّاسِ
وَجُوهاً ، وَخَيْرَ النَّاسِ فِعْلاً .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ الْخَلْقِ إِجَابَةً ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
نَحْنُ ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَوُزَرَاءُ رَسُولِهِ ، نَقَاتُلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ، فَمَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَدَمَهُ ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَدًا ،
وَكَانَ قَتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا .

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالسَّلَامَ
عَلَيْكُمْ » .

ولعل خير ما نعلق به على هذه الخطبة ، لنستبين روحها الإسلامية ،
ومدى تأثيرها بالهدى الإسلامي ، أن نورد خطبة وفد بني تميم ، التي ألقاها
- مفاخرنا - عطار بن حاجب بن زارة التميمي ، أمام رسول الله ، قال
عطار (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الْفَضْلُ وَالْمَنْ ، وَهُوَ أَهْلُهُ ، الَّذِي جَعَلَنَا
مُلُوكًا ، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالًا عِظَامًا ، نَفْعُلُ فِيهَا الْمَعْرُوفَ ، وَجَعَلَنَا أَعَزَّ أَهْلِ
الْمَشْرِقِ ، وَأَكْثَرَهُ عِدْدًا وَأَيْسَرَهُ عُدَّةً ، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ ؟ ١٩ .

أَلَسْنَا بِرُؤُوسِ النَّاسِ ، وَأَوْلَى فَضْلِهِمْ ؟ فَمَنْ فَاخِرْنَا فَلْيُعَدِّدْ مِثْلَ
مَا عَدَّدْنَا ، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَأَكْثَرْنَا الْكَلَامَ ، وَلَكِنَّا نَحْيَا مِنَ الْإِكْثَارِ فِيمَا
أَعْطَانَا ، وَإِنَّا نَعْرِفُ بِذَلِكَ ، أَقُولُ هَذَا لِأَنَّا تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا ، وَأَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ
أَمْرِنَا » .

(١) المرجع نفسه .

ولقد فعل خطيب رسول الله ، فجاء بأفضل من أمرهم ، وقال أحسن من قولهم .

مجدد الله خالقا للسموات والأرض ، قادرا ، مدبرا أمر الكون كله ، عالما ، وسع كرسيه علمه ، واعتز برسول الله ، هاديا ورسولا ، وبالإيمان به ونصرته ، وقدم المهاجرين لسبقهم إلى الإسلام ، وجعل الإيمان بالله ورسوله - لا العصبية القبلية - مناط السلم والحرب بين المسلمين والمشركين ، فمن آمن عصم ماله ودمه ، ومن كفر قوتل في الله أبدا ، وعبر عن ثقة المسلمين بدينهم ، وتحمسهم للجهاد في سبيله ، وأن تلك الثقة ، وهذا التحمس ، تتضاءل أمامها قوة أهل الكفر مهما عظمت (وكان قتله علينا يسيرا) .

فشتان بين هذه المعاني والدوافع الإسلامية العليا ، والمعاني والدوافع التي أثارها ، وصدر عنها خطيب بنى تميم الجاهلي المشرك .

خطيب الإسلام يخلق في سماء دعوة سامية عامة ، ويتكئ على مبادئ إنسانية راقية ، وخطيب الشرك يحبو على أرض العصبية القبلية الذميمة ، المحدودة الأفق ، فيعتز بكثرة المال والعدد ، ووفرة العدة ، ويربط السيادة والقوة بهذا ، ويفاجر به لا بغيره .

وهذا الفرق الذي ألحنا إليه هو الذي أدهش القوم ، وحيرهم سره ، وعبروا عن هذه الحيرة بقولهم عن رسول الله ﷺ (١) : « إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أنخطب من خطيبنا ... ولأصواتهم أحلى من أصواتنا » .

وما درى القوم في دهشتهم وحيرتهم أن الأمر ليس أمر بلاغة أو حلاوة صوت ، وإنما السر كل السر يكمن في هذه الروح الجديدة ، التي يستشعرونها لأول مرة بواجداناتهم ، ولا يحققونها بعقولهم ، وفي هذه المعاني التي لم يعهدها من قبل ، ولم تجر على السنة خطبائهم .

(١) السيرة لابن هشام ق ٥٦٧/٢

(٥)

- وخطب أبو بكر الصديق عند وفاة الرسول ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (١) :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ، فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ » (٢) .

فهذه الخطبة أوضح دليل على مدى تأثير الخطابة بالقرآن الكريم في فترة مبكرة من صدر الإسلام ؛ حيث يقوم بناؤها على آية قرآنية ، تمثل أكثر عبارتها ، وتقوم فيها مقام الدليل والخاتمة معا .

وهي - على إيجازها الشديد - تمثل أسلوب القرآن في البرهنة والإقناع ، وهو أسلوب يتجه إلى العقل ، فيبسط أمامه الحقائق المسلمة ، ومنها يصل إلى النتيجة التي لا يملك العقل إلا التسليم بها .

ولقد أحدثت هذه الخطبة - من هذه الناحية - التأثير المرجو ، والإقناع المطلوب ، فما إن سمعها عمر - رضي الله عنه - حتى قال (٣) : « وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا ، حَتَّى وَقَعْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، مَا تَحْمِلُنِي رِجْلَايَ ، وَعَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ » .

(١) المرجع السابق ق ٦٥٦/٢

(٢) مابن قوسين آية قرآنية مقتبسة بعبارتها كلها . انظر : سورة آل عمران ١٤٤

(٣) السيرة لابن هشام ق ٦٥٦/٢

وما ذاك من عمر إلا أنه اقتنع - حين سمع الآية الكريمة - بأن الرسول ليس معصوما من الموت ، وأن الكارثة قد وقعت بوفاته .

(٦)

- وخطب أبو بكر أيضا في سقيفة بنى ساعدة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال (١) :

« أَيُّهَا النَّاسُ : نَحْنُ الْمُهَاجِرُونَ ، أَوَّلُ النَّاسِ إِسْلَامًا ، وَأَكْرَمُهُمْ أَحْسَابًا ، وَأَوْسَطُهُمْ دَارًا ، وَأَحْسَنُهُمْ جُوهًا ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ وَلَادَةً فِي الْعَرَبِ ، وَأَمْسُهُمْ رَجْمًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَسْلَمْنَا قَبْلَكُمْ ، وَقُدِّمْنَا فِي الْقَرْنِ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٢) .

فَنَحْنُ الْمُهَاجِرُونَ ، وَأَنْتُمْ الْأَنْصَارُ ، إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ ، وَشُرَكَائُنَا فِي الْفِتْنَةِ ، وَأَنْصَارُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ، آوَيْتُمْ وَنَصَرْتُمْ ، فَجَزَأَكُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، فَنَحْنُ الْأُمَرَاءُ ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ ، لَا تَدِينُ الْعَرَبُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَا تَنْفُسُوا عَلَى إِخْوَانِكُمْ مَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » .

وأهم ما يلاحظ في هذه الخطبة :

(أ) أنها تعالج موضوعا سياسيا ، وهو الخلاف بين المهاجرين والأنصار حول حق الخلافة ، ومن أولى به .

(ب) أن الخطيب يمزج بين الأدلة العقلية والنقلية في البرهنة والاحتجاج .

(١) البيان والتبيين ١٨١/٣

(٢) سورة التوبة : ١٠٠

(جـ) قصر الجمل والتنويع في الأسلوب ، من خبر وإنشاء ، وجمل
إسمية وأخرى فعلية ، مع غلبة الازدواج والموازنة بين العبارات ، وندرة السجع .
(د) خلت الخطبة تماما من الخاتمة .

(٧)

ونخطب أيضا حين جاءه مال من البحرين ففرقه على الناس
بالسوية فغضب الأنصار ، وقالوا : فضّلنا ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى
عليه ، وصلى على النبي ، ثم قال (١) :
« لَقَدْ صَدَقْتُمْ ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَفْضَلَكُمْ صَارَ مَا عَمَلْتُمُوهُ لِلدُّنْيَا وَإِنْ
صَبَرْتُمْ كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

يا معشر الأنصار ، إِنْ شَعْتُمْ أَنْ تَقُولُوا : آوَيْنَاكُمْ فِي ظِلَالِنَا ، وشاطرناكم
فِي أَمْوَالِنَا ، وَنَصَرْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا قُلْتُمْ ، وَإِنْ لَكُمْ مِنَ الْفَضْلِ مَا لَا يَخْصِيهِ
الْعَدْدُ ، وَإِنْ طَالَ بِهِ الْأَمْدُ ، فَنَحْنُ وَأَنْتُمْ كَمَا قَالَ طَفِيلُ الْغَنَوَى (٢) :
جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أُرْلَقْتُ بِنَا نَعْلَنَا فِي الْوَاطِعِينَ فَرَلَّتْ
أَبْوَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمَّنَا ثُلَاقِي الذِّى يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ
هُمُ أَسْكُنُونَا فِي ظِلَالِ بِيوتِهِمْ ظِلَالِ بِيوتِ أَدْفَأَتْ وَأَظْلَلَتْ (٣)

موضوع الخطبة يتصل بمبدأ من مبادئ العدالة الاجتماعية في

(١) زهر الآداب (الحصرى) ٣٩/١ (طبعة الرحمانية - القاهرة ١٩٢٥ م) .

(٢) أزلقت : زلت . الواطعين : أهل القهر والمهانة - وطفيل الغنوى : من بنى غنى
ابن أعصر بن سعد بن قيس عيلان ، شاعر جاهلى من شعراء قيس العدودين ، قيل عنه : إنه
أوصف العرب للخيل ، حتى كان يسمى عندهم طفيل الخيل ؛ لكثرة وصفه إياها .
(٣) أسكنونا في ظلال بيوتهم : كناية عن العز والمنعة .

الإسلام ، التى تفرض المساواة بين المسلمين فى كل الحقوق ، ومنها توزيع الثروة .

والخطيب يسلك منهاجاً إرشادياً لإقناع الأنصار بالعدول عن موقفهم الخاطيء ؛ ولذا اتسم الأسلوب بالرفق واللين ، وقوة التأثير ، مستعينا ببعض الوسائل الفنية فى الأداء ، ومن ذلك بعض العناية بالسجع ، الذى يصدر من الخطيب عفو الخاطر ، دون تكلف له ، أو قصد إليه ، فإذا اقترن السجع بالموازنة ، اكتسبت العبارة مزيداً من الجمال والتأثير ، مثل : (آويناكم فى ظلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا) و (ما لا يحصىه العدد ، وإن ظال به الأمد) ومن الوسائل الفنية فى النص المقابلة المعنوية . فى : (صار ما عملتموه للدنيا ، كان ذلك لله عز وجل) .

بهذه الوسائل وغيرها مما سذكره بعد ، استطاع الخطيب أن يحدث التأثير المطلوب فى قلوب الأنصار وضمائيرهم ، مما جعلهم يدركون خطأ موقفهم ، ويعتذرون للخليفة قائلين : « ما ابتغيانا بعملنا إلا وجه الله » ، وينصرفون راضين .

والعناية بالناحية الجمالية واضحة فى النص ، وهى تدل على مدى التطور السريع الذى سارت فى طريقة الخطبة ، نحو الاهتمام بهذه الناحية فى أسلوبها .

وتمدنا هذه الخطبة باتجاه أسلوبى آخر ، يتمثل فيما استشهدت به من الشعر ، وبهنا هذا الاستشهاد من ناحيتين :

أولاهما : براعة التمثيل - وهى شاهد يضاف إلى ما سبق على الاتجاه إلى التجويد والتنسيق - حتى لكأنما صنع هذا الشعر لهذا الموقف خاصة .
والأخرى : الرد على من زعم أن خطب صدر الإسلام قد خلت تماماً

من الاستشهاد بالشعر ، فقد تصدى بعض الباحثين ^(١) لبيان خصائص الخطابة في هذا العصر ، وعد في مقدمتها ، عدم الاستشهاد بالآيات الشعرية ، تمشياً مع الرسول الذي تنكر للشعر ، فما أجراه في خطبه ، وفي ذلك خروج على الخطبة الجاهلية ، التي كانت - أحيانا - مزيجاً من نثر وشعر .

وخطباً هذا الادعاء واضح ، فما خلت خطب صدر الإسلام من الشعر ، ولا تنكر الرسول للشعر ، والخطبة التي بين أيدينا شاهد صدق على بطلان الزعم الأول ، كما أننا سنبرهن خلال دراستنا للشعر في العهد النبوي على بطلان الزعم الآخر .

وليست هذه الخطبة نموذجاً فريداً في الاستشهاد بالشعر . فهناك نظائر لها في هذا الاتجاه ، وبخاصة في بعض خطب الإمام على كرم الله وجهه ^(٢) .

(٨)

- وخطب عمر بن الخطاب ، وهي أول خطبة له في خلافته ^(٣) :
« إنما مثل العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا ، فوَرَبُّ الكعبة لأحملنكم على الطريق » .

هي خطبة سياسية ، يقرر فيها الخليفة موقف العرب من قادتهم ، وواجب القادة نحوهم ، ويحدد المنهج الذي اختاره في سياستهم .

ثم إنها من الناحية الأسلوبية تمثل أقصى ما بلغت خطابة العصر في ميلها إلى الإيجاز من ناحية ، كما تشهد بمدى تقدم هذه الخطابة في ميدان

(١) هو الأستاذ جورج غريب في كتابه : صدر الإسلام ١٢١

(٢) انظر مثلاً خطبة الإمام على في : تاريخ الطبري ٤٣/٦

(٣) تاريخ الطبري ٥٤/٤ . أنف : يشتكى وجعاً بأنفه من البرة - وهي حلقة في

أنف البعير - فهو ينقاد لصاحبه بسهولة .

العناية بالناحية الجمالية في الأسلوب من ناحية أخرى ، إذ تكاد تقوم على هذا التشبيه التمثيلي ، في قوله : (إنما مثل العرب ... حيث يقوده) والكناية ، في قوله : (لأحملنكم على الطريق) .

وليس من المعقول أن يكون عمر قد أهمل تقديم هذه الخطبة بحمد الله والثناء عليه ، كما هو الشأن في خطب العصر كلها ، وهو أمير المؤمنين ، المتأدب بأدب الإسلام ، والمعروف بشدته في التمسك بتقاليده ، وغيرته عليها ، والمعقول أن تكون الرواية هي التي أسقطت مقدمتها ؛ لما كان مشهوراً بين الناس أن حمد الله والثناء عليه كان بدءاً لخطابة العصر كلها .

(٩)

- وخطب عمر أيضاً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وذكر الناس بالله عز وجل ، واليوم الآخر ، ثم قال (١) :

« يأيها الناس : إني وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استطلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ، ما توليت ذلك منكم ، ولكفى عمر مهمماً مُحزناً انتظاراً لمواقعة الحساب ، يأخذ حقوقكم ، كيف آخذها ؟ ووضعه ، أين أضعها ، وبالسير فيكم ، كيف أسير ، فربى المستعان ، فإنَّ عُمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته ، وعونه وتأييده » .

في هذه الخطبة تبرز العناصر الدينية بالعناصر السياسية ، وتبدو الملامح السياسية فيما عبر عنه عمر من أنه إنما قبل القيام بمسئولية الحكم ؛ لما توسمه في نفسه من قدرة على إقامة العدل بين الناس ، وحسن رعايتهم ،

والجد في تحقيق مصالحهم ، ثم في اعترافه بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، باعتباره حاكماً مسلماً ، مسئولاً عن سياسة جماعة المسلمين ، في أمورهم الدينية والدنيوية ؛ ولذا نراه يتجه إلى الله فيما يشبه الابتهاال والتضرع الدينى ، مستعيناً به ، مستنجداً برحمته وعونه وتأيدده ، وكلها معان دينية .

ومع أن الخطبة تتحرك في مجال يطول فيه القول ، فإنها تحتفظ بطابع خطب العصر - حتى عهد عمر - في إثارة الإيجاز ، والقصد في العبارة ، والاكتفاء منها بما يؤدي الغرض المنشود .

والخطبة بعد هذا تستمد من القرآن بعض معانيها (فرى المستعان) و (يتداركه الله برحمته) ، كما عنيت بالناحية الجمالية ، فزينت العبارة ببعض ألوان من الازدواج ، وتنوع الجمل والأساليب .

(١٢)

- وخطب الإمام على ، وهى - فيما يقال - أول خطبة له في خلافته ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (١) :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً ، بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، فَخُذُوا بِالْخَيْرِ ، وَدَعُوا الشَّرَّ ، إِنْ اللَّهَ حَرَّمَ حُرْماً مَجْهُولَةً ، وَفَضَلَ حَرَمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ كُلِّهَا ، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُسْلِمُ مِنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ (٢) ، إِلَّا بِالْحَقِّ ، لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أذى مُسْلِمٍ إِلَّا بِمَا يَجِبُ .

(١) البداية والنهاية (ابن كثير) ٢٢٦/٧ (مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣٢ م) .

(٢) الجملة الأخيرة مقتبسة من حديث نبوى بلفظه . انظر : اللؤلؤ والمرجان

بادِرُوا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإنما تخلفكم الساعة ، تحذو بكم ، فتخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بالناس أخرهم .

اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده ، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه ، ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فأوأم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ﴾ (١) .

هذه خطبة من خطب الإمام على التي اشتهر بها في الزهد والمواعظ ، والقاريء هذه الخطبة وأمثالها في هذا الباب ، يخيل إليه أن الإمام رجل لاحظ له في غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، ويكاد ينسى أنه ألبطل المغوار ، الذي ما اقتحم معركة إلا عاد منها بسيف قد ارتوى من دماء الأعداء ، والشجاع الذي ضربت بشجاعته الأمثال ، وما ذلك إلا لأن معانيه في الزهد والمواعظ تخلق في سماء عالية ، وتطوف على النفوس العاصية ، والقلوب اللاهية فتوحى إليها الرشاد ، وتقوم منها المعوج ، وتبتعد بها عن مهاوى العصيان ، لتدنيها من مغاى الفضل والكمال .

وتكاد تكون خطبته الدينية هذه تفسيراً لتعاليم القرآن ، وتفصيلاً لها ، ولا عجب ، فالإمام متشبع بإسلامه المبكر ، وبطول الصحبة لرسول الله والقرب منه .

وخطبته التي بين أيدينا تعكس هذه النواحي ، كما تعكس طابعه العام الذي لا يفصل بين الدين والسياسة والاجتماع في خطبه ؛ إذ السياسة عنده وجه من وجوه الدين ، أو هي سياسة الدنيا بالدين .

(١) مابين القوسين مقتبس من آية قرآنية بلفظها . انظر : سورة الأنفال : ٢٦ .

وأسلوب الإمام على - كما يبدو في الخطبة - يميل كثيراً إلى التحجير والتأنيق في صوغ العبارة وتزيينها ، فهو يستخدم الطباق (الخير والشر) و (أمامكم وخلفكم) والاستعارة (تخففوا تلحقوا) والصورة وسيلة هامة من وسائل الأداء في أسلوب الإمام بعامة .

ويلاحظ أن الخطبة ختمت بآية قرآنية .

(١١)

وخطب أيضاً ، وقد انتهى إليه أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار (١) فقتلوا عامله عليها حسان بن حسان البكرى ، ونهبوا الأموال ، وانتهكوا الحرمات ، فقام في أهل العراق خطيباً ، يحثهم على الجهاد ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه (٢) :

« أما بعد : فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسَه الله الذل ، وسيَمَ الحَسَف (٣) ، ودُيْتُ بالصَّغار (٤) . »

وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسيراً وإعلاناً ، وقتلت لكم : اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غزى قوم قَطَّ في عُقر (٥) دارهم إلا ذُلُّوا ، فتخاذلتم ، وتواكلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شئت عليكم الغارات .

(١) خيلاً وردت الأنبار : أرلاد فرسانا على خيل وهو مجاز ، الأنبار بلد بالعراق .
(٢) الكامل للمبرد ١٣/١ - ١٤ ديث : ذلل . أخو غامد : رجل مشهور من أصحاب معاوية من بنى غامد . الرعث : جمع رعثة ، وهى الشنوف (الحلقان) . القر والصر : شدة البرد . حمارة القيظ : وقت اشتداد الحر . طعام الأحلام : لا عقول لهم . ربات الحجال : النساء .

(٣) يقال : سام فلان فلانا الأمر . كلفه إياه ، وأكثر ما يستعمل في الشر والعذاب مثل : سامه العصا والنار : أى عذبه بهما ، والخسف : الإذلال والحمل على ما يكره .
(٤) ديث : يقال : ديته ، أى ذلله وقاده ، الصغار : المراد هنا الرضا بالذل .
(٥) عقر الدار (بالضم) : وسطها ، ويقال عقر الدار (بالفتح) أيضاً .

هذا أخو غامد ، قد وردت خَيْلُهُ الأَثَبَارَ ، وَقَتَلُوا حَسَانَ بْنَ
حَسَانَ ، وَرَجَالاً مِنْهُمْ كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ
كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْمُعَاهِدَةَ فَتَنْزَعُ أَحْجَالَهُمَا (١)
وَرَعُثَهُمَا (٢) ، ثُمَّ انصَرَفُوا مُؤَوَّرِينَ ، لَمْ يُكَلِّمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ كَلِمَةً ، فَلَوْ أَنَّ
امْرَأَةً مُسْلِمَةً مَاتَ مِنْ دُونِ هَذَا أَسْفَافاً مَا كَانَ عِنْدِي فِيهِ مَلُومٌ ، بَلْ كَانَ بِهِ
عِنْدِي جَدِيراً .

يَا عَجَباً كُلِّ الْعَجَبِ ، عَجَبٌ يُمِيتُ الْقَلْبَ ، وَيَشْغُلُ الْفَهْمَ ،
وَيُكْثِرُ الْأَحْزَانَ ، مَنْ تَضَافِرُ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ
حَقِّكُمْ ، حَتَّى أَصْبَحْتُمْ غَرَضاً ، تُرْمُونَ وَلَا تُرْمُونَ ، وَيُغَارُ عَلَيْكُمْ
وَلَا تُغَيَّرُونَ ، وَيُعَصِّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيكُمْ وَتَرْضَوْنَ .

إِذَا قُلْتُ لَكُمْ : اغْزَوْهُمْ فِي الشِّتَاءِ ، قُلْتُمْ : هَذَا أَوَانٌ قَرٌّ وَصِرَ (٣) ،
وَلِإِنْ قُلْتُ لَكُمْ : اغْزَوْهُمْ فِي الصَّيْفِ ، قُلْتُمْ : هَذِهِ حَمَارَةٌ (٤) الْقَيْظِ
أَنْظِرْنَا ، يَنْصَرِمُ الْحَرُّ عَنَّا ، وَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَفْرَوْنَ ، فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ مِنَ
السَّيْفِ أَفْرَ .

(١) الأحجال : جمع حجل (بفتح الحاء وكسر ها) وحجل (بكسر الحاء والجيم)
الخلخال .

(٢) الرعث : جمع رعث (بفتح الراء) وهى القرط ، والقرط : ما علق أسفل
الأذن ، أما ما يعلق في أعلى الأذن فهو الشنف (بفتح الشين وسكون النون) والجمع
شنوف .

(٣) القر (بالضم) : البرد ، والقر (بالكسر) ما أصاب الإنسان منه ؛ والصر
(بالكسر) : البرد ، أو شدته كالصره (بالكسر) .

(٤) الحمارة . شدة الحر ، والقيظ : أصله صميم الصيف ، ويستعمل في اشتداد الحر
بعامة ، يقال قاط يومنا : إذا اشتد حره .

يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغَامَ (١) الأحلام ، ويا عُقول رِبَّاتِ
الحِجَالِ ، والله لقد أفسدتُم على رأيي بالعصيان ، ولقد ملأْتُم جَوْفِي
غَيْظًا ، حتى قالت قريشٌ : ابنُ أَى طالب رجلٌ شجاعٌ ، ولكن لا رأى له
في الحرب ، لله دَرُهُم !! ومن ذا يكونُ أعلمَ بها مِنِّي ، أو أشدَّ لها مِرَاساً ،
فو الله لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، ولقد نَيْفْتُ (٢) اليومَ على
السَّتين ، ولكن لا رأى لِمَنْ لا يطاعُ !! لا رأى لمن لا يطاعُ !! لا رأى
لِمَنْ لا يطاعُ !!

فقام إليه رجل ومعه أخوه ، فقال : يا أَمِيرَ المؤمنين ، أنا وأخى هذا
كما قال تعالى : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ، فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ ، فوالله
لَنَنْتَهِينَ إِلَيْهِ ، ولو حالَ بيننا وبينه جَمْرُ الْعُضَى (٣) ، وشوكُ الْقَتَادِ (٤) ،
فدعا لهما بخير ، ثم قال لهما : وَأَيْنَ تَقَعَانِ مما أريد ، ثم نزل .

لهذه الخطبة أهمية خاصة ، سواء من الناحية الزمنية ؛ حيث قيلت
قبل نهاية عصر صدر الإسلام بفترة وجيزة ، أو من الناحية الفنية ؛ لأنها
تمثل آخر مرحلة من مراحل تطور فن الخطابة في هذا العصر ، وتمهد تمهيداً
قوياً لمرحلة النضج التام لهذا الفن في العصر التالي .

وتقتضينا هذه الأهمية أن نقف عندها وقفة أطول ، لنستبصّر سمات
التطور التي انتهت إليها الخطابة في العصر الذي نؤرخ له .

(١) الطغَام (بالفتح) : أوغاد الناس ، والحمقى ، والطغومة والطغومية (بضم
الطاء) : الحمق والدنائة .

(٢) النيف : الزيادة : وكل ما زاد على العقد فهو نيف إلى أن يبلغ العقد الذى يليه ،
يقال : عشرة ونيف ، وعشرون ونيف ... الخ .

(٣) الغضى : شجر مفردة غضاة ، وجره أشد ما يكون التهايا لجودة خشبه .

(٤) القتاد : شجر صلب له شوك قوى كالإبرة .

وأول إمارات هذا التطور ما يبدو واضحاً في الخطبة من استيفاء يكاد يكون تاماً لفنية البناء الخطائى (١) ، وقيامه بوظيفته خير قيام .

بدأت الخطبة بمقدمة ذات شقين :

أولهما : استهلال بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على رسوله ، وهى تجرى فى هذا على سنن الخطابة منذ أوائل هذا العصر .

والآخر : تمهيد لموضوع الخطبة بما هو شديد الصلة به ، تلميحاً إلى الغرض ، وتهية الأذهان له ، حيث ذكر الجهاد ، ورغب أتباعه فيه ؛ لتفتح لهم أبواب الجنة ، ثم لجأ إلى الترهيب ، فذكرهم بسوء المصير ، إن أعرضوا عن النهوض إلى أقدس الواجبات ؛ إذ ييوعون بغضب من الله ، يلبسهم ثوب الذل والمهانة .

والمقدمة بهذا تستوفى غرضها الفنى ، من حيث وثاقة الصلة بموضوع الخطبة والتمهيد له ، دون أن يعوزها فى ذلك وضوح ، أو تنقصها عناصر التشويق ، ولم تطل فتمل ، أو تبتسر فتخل .

وإذ أسلمت المقدمة إلى الغرض تصاعد الأسلوب ، فشف عن عنف فى تأنيب القوم على تخاذلهم عن الأخذ بنصيحة الخطيب ، وإهمال رأيه ، وتجاهل دعوته إلى مبادأة أعدائهم بالقتال ، قبل أن يعتدوا عليهم فى عقر دارهم ، فيذيقوهم ذل الهزيمة ، ومرارة الهوان ، ويتطرق الخطيب من ذلك إلى ذكر ما دعاه إلى القيام فيهم خطيباً ، يجدد الدعوة إلى الجهاد ، ويستنهض الهمم إليه ، ثم يعبر عن استيائه البالغ ، وعجبه الساخر الأسف ؛ لاجتماع الأعداء على باطلهم ، وتفرق أتباعه عن حقهم ، وفى ذلك من

(١) يقصد به استيفاء الخطبة لمراحلها الفنية الثلاثة وهى : المقدمة ، والعرض ويندرج تحته التدليل والتفنيد - والخاتمة .

الحزبى والعار ما عبر عنه الإمام بقوله : « ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون » .

ومن خلال هذا العرض تتراءى أساليب الاستدلال والاحتجاج ، فالقوم يتمسكون بالأعذار الواهية للتخلف عن الجهاد ، يتعللون بالبرد إذا نادى فيهم بالجهاد شتاء ، وبالحر إذا دعاهم إليه صيفا ، والإمام يدحض هذه التعللات ، ويأخذ عليهم سبل الاعتذار ، فيقول : (فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر) ، فيدمغهم بالجبن وخور العزيمة ، بهذا الدليل المنطقي القوى الصادق .

ولا يخلو العرض كذلك من عنصر تفنيد الدعاوى الكاذبة ، فالإمام يرد على دعوى قريش : (ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأى له فى الحرب) فيدحضها ، ويقيم الدليل على زيفها وبطلانها ، بحجة ساطعة ، وعبرة قوية ، تنهض بها الأساليب الإنشائية المناسبة لمقام الانفعال بالغضب ، كالاستفهام الإنكارى (ومن ذا يكون أعلم بها منى ، أو أشد لها مراسا ؟) والتعجب (لله درهم !!) والقسم (فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين) ، والتوكيد (ولكن لا رأى لمن لا يطاع) يكررها ثلاثا .

ولعل موطن الضعف الوحيد فى البناء الفنى لهذه الخطبة الرائعة ، هو ختامها ، إن اعتبرنا الحوار الذى دار بين الإمام على والرجل الذى استجاب لدعوته ، تأثراً بكلامه ، ودعاء الإمام له ولأخيه الذى أيدته ، خاتمة للخطبة ، وهى لعمرى حينئذ خاتمة لا نجد لها نظيراً فيما نعرف من خطب هذا العصر ، كما أنها لا تعكس شيئاً من فنية الخاتمة ، أو تؤدى وظيفتها فى تلخيص الموضوع ، وامتلاك عواطف السامعين ، قبل مغادرة الخطيب موقفه الخطائى ، وإذا لم نعد هذا الحوار خاتمة ، كانت الخطبة فاقدة أحد عناصرها ، ولكنها لا تعدم النظر فى هذا بين خطب عصرها .

ومن ملامح التطور البارزة في الخطبة أيضاً ميلها إلى البسط والإطناب - نوعاً ما - على خلاف ما عهدنا في خطب السابقين ، والإطناب أسلوب تميل إليه الخطابة عادة ؛ لأنه بسط القول ، والإلحاح على بعض المعاني ، يعرضها في معارض شتى من العبارة ، من عوامل التأثير في الموقف الخطابي .

ومن صور الإطناب فيها ، الترادف (فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً) ومؤدى هذه العبارات واحد ، وأيضاً (ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون) والمعنى واحد في العبارتين .

واعتماد البرهان الخطابي في الإقناع والاستمالة ملمح آخر من ملامح التطور في الخطبة ، وقد برع الإمام عليّ في استخدامه ، وإعداد السامعين لتأثيره ، بهذه المقابلات التي تحرك نفوسهم ، وتثير انفعالهم : (تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضاً ، ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون) ، ثم يدلف إلى البرهان : (إذا قلت لكم : اغزوه في الشتاء قلت : هذا أوان قر وصر ، وإن قلت لكم : اغزوه في الصيف ، قلت : حمارة القيظ ، .. فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من الصيف أفر) نتيجة منطقية لمقدمات واقعية مسلمة .

والخطبة حافلة بعناصر الإثارة وتحريك النفوس ، وإيقاظ الشعور ، ووسائلها في ذلك عديدة ومتنوعة ، من عبارات التقريع والسخرية : (يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربات الحجال) وأيضاً : (يا عجباً كل العجب ، عجب يميّت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان) ومنها : (لقد أفسدتم على رأيي بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظاً) ... وغير ذلك كثير .

ومنها : الألفاظ الموحية ، التي تقوم على التصوير الشامل ، والتشثيل

الدقيق ، لا التقرير والسرد . من ذلك : (فتنزع أحجالهما) والانتزاع يوحى بالعنف والوحشية ، وقوله : (ثم انصرفوا موفورين) فهى توحى بانعدام المقاومة ، وعجز المعتدى عليهم ، وحاجتهم الشديدة إلى النجدة والحماية ، هذا فضلا عن أساليب : القسم والاستفهام ، والتعجب والتكرار ، والنداء ، الحافلة بقوة الإيحاء والإثارة .

ومنها : الاعتماد على الوقع الموسيقى للعبارة ، كالازدواج فى (ليلا ونهاراً وسراً وإعلاناً) وفى (يمت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان) والموازنة فى (ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله فيكم وترضون) واتساق المد فى أواخر بعض الجمل (ولا رجال ، طغام الأحلام ، ربات الحجال) .

وهكذا يعكس هذا النموذج من نماذج الخطابة فى أواخر عصر صدر الإسلام تطور الخطابة فى سيرها الصاعد ، من البساطة إلى الوعى الفنى ، ومن التلقائية إلى جودة الصنعة ، كما تتسع رحبتها للإشارات التاريخية ، والأحداث السياسية ، والنظريات الدينية ، والجوانب الاجتماعية ، والقيم الإنسانية والأخلاقية ، يلف ذلك كله سحر البلاغة ، وروعة البيان .

(٣)

← الملامح الفنية العامة للخطابة فى عهد النبوة والراشدين :

قلنا : إن الخطابة تطورت فى ظل الإسلام ، وبيننا أسباب هذا التطور ومظاهره ، فى أنواعها ، وأغراضها ، واتجاهاتها ، ونريد هنا أن نشير - فى إيجاز - إلى ملامح تطورها فى ألفاظها ، ومعانيها وأساليبها .

١ - فمن حيث الألفاظ : كان للقرآن وأقوال الرسول والحضرة الإسلامية أثرها فى تهذيب الألفاظ ، والعناية باختيار السهل العذب المألوف

منها ، والبعد عن الغريب الخشن الذى لاحظناه فى الخطابة الجاهلية ، والتوسع فى دلالتها ، باستخدامها فى معانٍ آخر . من ذلك - مثلاً - ألفاظ : الصلاة ، الزكاة ، المؤمن ، الكافر ، الجنة ، النار ، الربا .. وغيرها مما خلج عليه الإسلام معانى شرعية خاصة إلى جانب معانيه اللغوية الوضعية .

٢ - من حيث المعانى : التوسع فى المعانى ، باستحداث كثير منها ، وغزو حقول جديد فيها لم تؤلف قبل الإسلام ، مع حسن تنظيمها وعرضها ، تبعاً للرقى الفكرى والثقافى ، الناشئ عن هدى القرآن ، مع التأثير بالمعانى القرآنية ، استمداداً ، واقتباساً ، واستشهاداً ، والميل أحياناً إلى التعبير عن المعانى تعبيراً تصويرياً ، يستعين بأساليب التخيل كالتشبيه والاستعارة والكناية ، وبخاصة فى أواخر العصر ، وقد مرت بنا أمثله لهذا فى النماذج السابقة .

٣ - ومن حيث الأساليب : يتجلى أثر القرآن فى الخطابة أكثر ما يتجلى فى الأسلوب ، حيث أكب الخطباء على القرآن ، وحاولوا محاكاة أساليبه ، والسير على دربه فى البيان ، وحسن الأداء ، فجعلوا القرآن قدوتهم ، عنه يأخذون ، وحثهم الإسلام على ذلك حين دعاهم ، بل دفعهم إلى الاستمداد منه فى خطب الجمع والعديد وغيرها ، فتأنقوا فى صوغ الأساليب ، وتفننوا فى تنويعها ، وإحكام نظامها ، ووصولها فى البلاغة إلى درجة عالية ، والشواهد على ذلك كثيرة فى دراستنا السابقة لنماذج الخطابة فى هذا العصر .

كذلك كان من أثر الإسلام ، والحياة الإسلامية التى تميل إلى البساطة فى كل شئ ، أن لاقى أسلوب الخطابة ، فخلا - أو كاد - من السجع ، الذى حفلت به الخطابة الجاهلية ، اعتماداً على قوة الألفاظ ، وعدوتها ، وإيثاراً لموسيقى الازدواج والموازنة ، وجاذبية الترسل ، كما ندرت

الحكم والأمثال في نماذج خطب العصر ، فقد شغل الخطباء عنها بالقرآن ، والاستشهاد بآياته ، اللهم إلا في النماذج المتأخرة من حياة العصر ، وفي خطب الإمام على بخاصة ، حيث احتلت الحكم والأمثال مكاناً بارزاً فيها .

من ذلك ما جاء في خطبة الإمام بعد فشل التحكيم :

« أَمَا بَعْد . فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ، الْعَالِمِ الْمُجَرَّبِ ، تُورِثُ الْحُسْرَةَ ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمْرُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَحَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونًا رَأْيِي ، لَوْ كَانَ يَطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ ، فَأَيُّيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالَفِينَ الْجُفَاءَ وَالْمُنَابِذِينَ الْعَصَاةَ ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنَصْحِهِ ، وَضَنَّ الرَّزْدُ بِقَدْحِهِ ... » (١) .

فقد اقتبس الإمام في هذه القطعة من الأمثال (لو كان يطاع لقصير أمر) و (وضن الزند بقدحه) .

ولم يعد الأسلوب وليد البديهة والارتجال - غالباً - كما كان في الجاهلية ، إذ أخذ التجويد ، وإعداد الخطبة يظهر أثرهما في خطب العهد الراشدي بخاصة ، وعلى الأخص في المواقف الخطيرة ، ذات الشأن ، التي تتطلب كلاماً محسوب الأثر والعاقبة .

وقد صرح بعض خطباء هذه الفترة بأنهم كانوا يفكرون فيما يريدون قوله ، قبل أن يخطبوا ، ويعدون لذلك عدته قبل الخطبة ، فيروى أن عمر ابن الخطاب قال يوم السقيفة : « وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني ، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر » (٢) .

فعمر كان يشعر في بعض المواطن بحاجته إلى تحسين القول وإصلاحه وإعداده ، قبل أن يلقيه في الموقف الخطابي .

(١) تاريخ الطبري ٤٣/٦

(٢) السيرة لابن هشام ق ٦٥٩/٣

٤ - التميز بوحدة موضوعية - غالباً - عمادها الترابط والإحكام بين عناصر الموضوع ، والتلاحم بين الفقرات ، يضاف إلى ذلك الوضوح الذى يقوم على التقسيم المتدرج من جهة ، وشيوع الألفاظ وسهولتها من جهة أخرى .

٥ - الميل إلى الإيجاز القائم على السجعية ، والمؤدى للفكرة من أقرب السبل : دون تعمد ، أو تكلف ، وبخاصة فى العهد النبوى ، وأوائل العهد الراشدى ، ويعبر عن هذا الميل قول أبى بكر ، يوصى يزيد بن أبى سفيان لما وجهه لفتح الشام : « وإذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً » (١) .

أما فى أخريات عهد الراشدين فنلاحظ ميل الخطيب إلى استخدام بعض أساليب الإطناب المناسب ؛ لما اضطربت الأحداث ، وكثرت الفتن ، واحتاج الخطيب إلى الإلحاح على الفكرة أو المعنى بقصد الإقناع ، وإحداث التأثير العقلى والانفعالى المطلوب .

٦ - اتخذت الخطابة فى المقدمة طريقة واحدة ، وهى البدء بحمد الله والثناء عليه وتعظيمه ، وقد تضاف إلى ذلك الصلاة على النبى .

أما الختام فلم يكن يأخذ طابعاً واحداً ، فأحياناً يكون بآية من القرآن (النموذج ١٠،٥) وقد يكون بتعظيم الله وتمجيده (النموذج ١) أو بعبارة « السلام عليكم » (النموذج ٢ ، ٤) أو بيت أو أبيات من الشعر (النموذج ٧) أو بالدعاء ، أو بالاستغفار ، ونحو ذلك ، وقد تخلو الخطبة تماماً من الخاتمة (النموذج ٦ ، ٩) .

(١) الكامل فى التاريخ (ابن الأثير) ١٩٦/٣ (طبعة الحلبي - القاهرة

وكان أبو بكر يكثر من قوله في آخر خطبه : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى فواتحه ، وخير أيامى يوم لقاك » (١) .

أما عمر فكان يقول في آخر خطبه - غالباً - : « اللهم لا تدعنى في غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين » (٢) .

من هذا يتبين لنا أن العناصر الأساسية في الخطبة كانت أكثر تحقّقاً في خطب هذا العصر ، منها في خطب الجاهليين .

وجملة القول : أن الخطابة في صدر الإسلام ، بحكم كونها خطابة عقيدة جديدة ، رجة الأفق ، موجهة إلى كافة الخلق ، قد تضمنت روحاً تنظيمية وتشريعية ، وتهذيبية ، واتسمت ببلاغة القرآن ، وعمق المعانى والأفكار ، الذى يظهر فيما اصطنعت من أساليب البرهنة والاحتجاج والجدل في كثير من مجالاتها .

هذا ، وخطباء هذا العصر لا يكادون يحصون كثرة ، وكان الرسول ﷺ أخطب خطبائه بلا منازع ، ثم من بعده خلفاؤه ، وقواد الإسلام ، وعماله ، وكثير من الصحابة ، رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

(١) تاريخ الأدب العربى (السباعى) ١٧٨

(٢) المصدر السابق .

الفصل الرابع

الوصايا والعظات

(١)

الوصايا والعظات في الجاهلية :

الوصايا لون من النثر الفني قديم في اللغة العربية ، عرفه عرب الجاهلية وتمرسوا به ، كما عرفوا الخطابة ومارسوها ، وتناولوا فيه بعض جوانب حياتهم الاجتماعية ، وضمنوه نظراتهم الحكيمة ، وخطراتهم الذهنية ، في الأخلاق والاجتماع ، ولم نر لهم منه شيئاً في باب السياسة والاعتقاد .

ونقرأ الوصايا الجاهلية فلا نكاد نحس بفارق بينها وبين خطب الجاهليين ، من حيث الأداء الفني ، فالتهج واحد في اختيار الألفاظ ، وتركيب العبارات ، وإيثار السجع ، مع الموازنة أو الازدواج بين الجمل ، وقصر الجمل غالباً ، وكثرة الأمثال والحكم في وصاياهم ، وغلبة الإيجاز عليها ، وتحليلتها ببعض أساليب التخيل والتصوير ، القرية المأخذ ، البريئة من الغموض والمبالغة ، المنبعثة عن فطره ، لا عن تكلف صنعة ، كما أن وصايا الجاهليين تنساب على ألسنتهم بديهة وارتجالاً كخطبهم .

وهكذا تعكس الوصية الجاهلية الطابع الفني العام للخطبة الجاهلية ، ولا تكاد تفارقها في شيء ، اللهم إلا في بعض مظاهر التمثل الشكلي ؛ حيث تقوم الخطبة على مقدمة وموضوع وخاتمة ، ولا يلزم ذلك في الوصية ، كما أن الوصية كلام يقال ، أو يكتب ، من رئيس أو زعيم أو سيد لقومه ، أو من أحد الأبوين لأبنائهما ، أو لأحدهم ... في أمر من أمور

الدنيا ، ويكثر أن يكون هذا عند الإحساس بدنو الأجل ، أو العزم على الرحلة والفراق ... أو نحو ذلك .

أما الخطبة فهي كلام لا يكون إلا شفويًا ، يلقيه الخطيب على الجمع من الناس ، في أمر من أمور الحياة العامة ، المتصلة بدينهم أو دنياهم ، بقصد التأثير فيهم ، وإثارة حماسهم أو إقناعهم بهذا الأمر ^(١) ، قبولاً أو رفضاً .

الوصايا والعظات في عهد النبوة والراشدين : أولاً : الوصايا :

قطعت الوصايا في هذه الفترة الشوط نفسه الذي قطعته الخطابة ، فظهرت الوصية الدينية ، كما ظهرت الخطبة الدينية ، وتناولت من الموضوعات والمعاني ما تناولته الخطبة ، متأثرة بالإسلام والقرآن فيما تأثرت به الخطبة ، من الشكل والمضمون ، كما ظهرت الوصية السياسية الممتزجة بالعناصر الدينية ، وأشبهت مثلتها من الخطب السياسية الدينية في كل ما ذكرنا .

وهناك كثير من وصايا الرسول ﷺ وخلفائه وصحابته ، وأكثرها يغلب عليه الطابع الديني ، ومن وصايا الخلفاء لمن بعدهم ما يتناول أموراً سياسية ، تتصل بنظام الحكم ، وحسن القيام على الرعية ، وتنظيم شؤون الدولة ، بخاصة في البلاد المفتوحة ، في عهد عمر ومن بعده ، ومعظمها موجه إلى الولاة والجنود ، وإلى من سيضطلع بالحكم بعدهم .

على أن من الوصايا التي نؤرخ لها في صدر الإسلام ، ما قيل

(١) النثر الفني (بليغ) ص ٧٩

في أغراض أخرى اجتماعية أو أخلاقية ، كوصية ألى الأسود الدؤل ابنته ليلة زفافها (وستأتى) ووصية أمير المؤمنين على ابنه الحسن (١) ... وغيرها .

وهذا النوع من وصايا صدر الإسلام ، لا يكاد يختلف في شكله ومضمونه عن الوصايا الجاهلية ، اللهم إلا فيما نزع إليه الأسلوب الإنشائي بعامته في هذا العصر من البساطة ، والبعد عن الألفاظ البدوية الخشنة ، والإقلال من السجع ، والبعد عن النزعات الجاهلية في الموضوعات والمعاني التي جاء الإسلام بإبطالها ، أو التنفير منها .

ومن عرضنا لبعض نماذج الوصية في صدر الإسلام يتضح ما ذكرنا :

— من الوصايا السياسية الممتزجة بعناصر دينية : وصية عمر بن الخطاب الخليفة من بعده : وصى عمر ابنه عبد الله قبيل وفاته فقال (٢) :

« أئى بُنى : إذا قام الخليفةُ بَعْدى فائته ، فَقُلْ له : إنَّ عمرَ بن الخطاب (رضى الله عنه) يُقرئك السلام ، ويوصيك بتقوى الله وحده ، لا شريك له ، ويوصيك بالمهاجرين والأنصار ، أنْ تقبلَ من مُحْسِنِهِمْ ، وتتجاوزَ عن مُسيئِهِمْ ، ويوصيك ، بأهلِ الأمصار خيراً ، فإنَّهم غِيْظُ العَدُوِّ ، وجُباةُ الفِئءِ ، لا تحمِلُ فِئْئِهِمْ إلا عن فضلٍ منهم ، ويوصيك بأهلِ البادية خيراً ، فإنَّهم أصلُ العرب ، ومادةُ الإسلام ... » .

وعلى هذا النحو تمضى الوصية ما يقرب من سطرين آخرين .

فلو أن عمر — رضوان الله عليه — وقف خطيباً ، وألقى هذا الكلام

(١) انظرها في : تاريخ الأدب العربى (الزيات) ص ٨١

(٢) المعمرون والوصايا (أبو حاتم السجستاني) ص ١٤٩ (طبعة ليدن

نفسه على النمط الشكلي للخطابة ، لما كان هناك فرق واضح بين الأسلوب في الموقفين (١) .

— من الوصايا الدينية : وصية علي بن أبي طالب — رضى الله عنه —
ابنيه الحسن والحسين عند وفاته (٢) :

« أوصيكم بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا ، وإن بعثتكم ، ولا تبكيا على شيء منها زوى عنكما ، قولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضائع ، وأضيفا الجائع ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم » .

فالمعاني ، والعبارات ، والغرض ، والأسلوب ، تحمل كلها خصائص الخطبة الدينية المتأثرة بالإسلام في هذا العصر .

— ومن الوصايا الاجتماعية : وصية أبي الأسود الدؤلى ابنته ليلة عرسها (٣) :

« يا بُنَيَّة : كان النساءُ أحقُّ بأدبكِ مِنِّي ، ولكن لا بد لي منه ، يا بُنَيَّة : إن أطيبَ الطيبِ الماء ، وأحسنَ الحُسنِ الدُّهنُ ، وأحلى الحلاوة الكُحلُ ، يا بُنَيَّة : لا تكثري مباشرةً زوجك فيملك ، ولا تباعدى عنه ، فيجفوك ، ويعتل عليك ، وكُونِي كما قلت لأُمِّكِ :

تُحْدِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

(١) وانظر نموذجاً آخر للوصية السياسية الدينية (من أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجه لفتح الشام) في : الكامل في التاريخ (ابن الأثير) ١٩٦/٣ .

(٢) المعمرين والوصايا ١٥٠

(٣) المصدر السابق ص ١٤٧

فإني رأيتُ الحُبَّ في الصدر والأذى إذا اجتمعَ عالم يلبثُ الحُبَّ يذهبُ (١)

فهذه الوصية تشبه مثيلاتها في العصر الجاهلي ، من حيث طابعها الاجتماعي ومضمونها المستمد من حياة العربى في الجاهلية والإسلام ، وأسلوبها الذى ، يظهر فيه قصر الجمل ، مع ميلها إلى الموازنة ، وإن تخلصت من السجع ، الذى لا تكاد تخلو منه نظيرتها في الجاهلية ، أما تحلية الوصية بالشعر ، فلا تخلو منها الوصية أيضاً في العصر الجاهلي ؛ إذ كان الشعر هو النشاط الأدبى الشائع على ألسنة عرب الجاهلية - كما قدمنا .

وقد يكون من المفيد أن لا نخلى المقام هنا من نموذج - على الأقل - من نماذج الوصية الاجتماعية للجاهلية ، تفيد في الكشف عن التشابه في الأسلوب ، بين هذا النوع من الوصية في العصرين .

- وصى أكم بن صيفى بنيه ورهطه ، فقال (٢) :

« يا بني تميم : الصبرُ على جَرَعِ الحِلْمِ أعذبُ من جَنِي ثَمَرِ الندامة ، وَمَنْ جعل عرضه دون ماله استهدف للذمِّ ، وكَلَّمُ اللسانِ أنكى من كَلَمِ السَّنانِ ، والكلمةُ مرهونةٌ ما لم تنجم من الفمِّ ، فإذا نَجَمَتْ فهي أسدُّ مُحَرَّبٍ ، أو نارٌ تُلْهَبُ ، ورأى الناصح اللبيب دليلٌ لا يجورُ ، ونفاذُ الرأى في الحربِ ، أجدى من الطعن والضرب » .

فهى مجموعة من الإرشادات الأخلاقية ، والمعانى الحكيمة ،

(١) قصة الوصية ، والبيتان ومعهما ثالث ، فى الأغاني ١٢٨/١٨ لأسماء بن خارجة الفزارى ، ونص أبو الفرج على أن نسبة الشعر لأبى الأسود الدؤلى غير صحيحة ، والذى يبدو أن أبى الأسود اقتبسهما للمناسبة .

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبى الحديد) ١٥٥/٤ (طبعة الحلبي القاهرة

المستمدة من تجارب الحياة العربية البسيطة ، صيغت في أسلوب يشبه من عدة وجوه أسلوب الوصية السابقة .

ثانيا : العظات :

أما العظات فهي شكل أدبي نثرى ، يمكن أن يدخل في باب الخطب أيضاً ، « إلا أنه لا يتعلق بحال من أحوال الدنيا ، أو يتناول أمراً من أمورها ، إلا بقدر ما يرغب عنها ، ويُرهد فيها ، وإنما هي عظات دينية خالصة ، قوامها التوجيه إلى الله ، والدعوة إليه ، والترغيب في الآخرة ، والتنفير من الدنيا » (١) .

وإذا كان هذا هو الاتجاه الموضوعي للعظات ، فهي إن فن إسلامي خالص ، نجم عن الإسلام ، وترى بين أحضانه .

ولا يحتاج بما كان في الجاهلية من بعض الخطرات التأملية ، والخواطر الإرهاسية القلقة ، التي تدور حول الكون ومظاهره ، ودلالته على ديانة أسمى من دياناتهم ، كما رأينا في خطبة قس بن ساعدة - مثلاً - فإنها فضلاً عن سذاجتها ، لا تنبع من إيمان راسخ ، أو تستند إلى عقيدة واضحة المعالم والغايات ، كما ذكرنا من قبل .

وأسلوب العظات الدينية يشبه - إلى حد بعيد - أسلوب الخطابة الدينية ، فلا نطيل بإعادته هنا .

ولكى يتضح هذا التشابه بين العظة الدينية ، والخطبة الدينية ، نسوق من نماذجها ما يلي :

وعظ عمر بن الخطاب رجلاً فقال (٢) :

(١) النثر الفني (بليغ) ص ٨١

(٢) المرجع السابق .

« لا يُلهيَنَّكَ الناسُ عن نفسك ، فَإِنَّ الأَمِيرَ يَصِلُ إِلَيْكَ دونهم ، ولا تَقْطَعُ النهارَ سادراً ^(١) ، فإنه محفوظٌ عليك ما عَمِلْتَ ، وإذا أسأتَ فأَحْسِنْ ، فَإِنِّي لَمْ أَرْ شيئاً أشدَّ طلباً ، ولا أَسْرَعَ ذَرْكاً من حَسَنَةِ حَدِيثِهِ لَذَنْبٍ قديمٍ » .

فالعظة كالوصية الدينية تماماً ولولا أن الوصية خاصة بمواقف الإحساس بوفاة الموصى ، أو رحيله أو نحو ذلك ، وموجهة إلى أهل الموصى أو ولده ، لسميت العظات وصايا دينية أو سميت الوصايا الدينية عظات .

ووعظ على بن أبى طالب فقال ^(٢) :

« أوصيكم بخمسة لو ضُرِبَتْ عليها آباطُ الإبلِ لكان قليلاً ، لا يَرْجُونَ أَحَدٌكم إِلَّا رَبَّهُ ^(٣) ، ولا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ ^(٤) ، ولا يَسْتَحْيَ إِذَا سُئِلَ عما لا يعلم أن يقولَ لا أعلمُ ، وإذا لم يَعْلَمْ الشيءَ أن يتعلمهُ ، واعلمُوا أن الصَّبْرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسدِ ، فإذا قُطِعَ الرأسُ ذهبَ الجسدُ » .

* * *

وبعد : فهذه جولة موجزة ، حاولنا فيها أن نلم بحياة النثر في صدر الإسلام ، وأن نتلمس أثر الإسلام بعامة ، والقرآن بخاصة ، في ألوان هذا الفن ، ومدى تطوره في ظلّهما ، ورجونا أن ينفع الله بها ، إن شاء الله .

(١) سادراً : لاهياً .

(٢) النثر الفني (بليغ) ص ٨١

(٣) المعنى مستمد من قوله ﷺ : « ... إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

(٤) المعنى متأثر بقوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

الباب الثاني

الشعر في عهد النبوة والراشدين

تمهيد :

أثار الشعر في صدر الإسلام خلافا بين كثير من مؤرخي الأدب العربي ، الذين تعرضوا للنظر فيه ، في ثنايا ما تناولوه من قضايا الأدب بعامة .

ويتركز هذا الخلاف حول أثر الإسلام في شعر هذا العصر ، ومدى ما أصابه من قوة أو ضعف ، وازدهار أو انكماش ، حتى أصبحت قضية ازدهار الشعر أو ضعفه في هذا العصر ، من القضايا الأدبية الشائكة ، لكثرة أقوال المؤرخين والباحثين ، وتشعب أوجه الخلاف بينهم فيها .

وليس من هنا في هذا التمهيد أن نتصدى لعرض الآراء المختلفة حول هذه القضية ، ومناقشتها ، وبيان أوجه الصواب أو الخطأ فيها ، فدراستنا الآتية للشعر في عهد النبوة والراشدين ، سوف تتكفل ببيان حظ هذه الآراء من الدقة .

غير أنه من الممكن هنا ، أن نقدم تفسيراً معقولاً لمدار الخلاف حول منزلة الشعر في صدر الإسلام ، ومدى ماحظى به من ازدهار ، أو منى به من ضعف أو انكماش ، يتلخص في أن هؤلاء النقاد والمؤرخين ، كانوا ينظرون إلى هذا الشعر من زوايا مختلفة .

فمنهم - مثلاً - من وقف عند ملاحظة توفر كثير من العوامل التي جاء بها الإسلام ، والتي من شأنها أن تعمل على الحد من رواج الشعر

وازدهاره (١) ، فقال بضعف الشعر في صدر الإسلام (٢) .

ومنهم من التفت إلى ما بعثه الصراع بين المسلمين في المدينة ، والمشركون في مكة ، خلال العهد النبوي ، من نشاط ملحوظ في الشعر والشعراء ، ونظر في أشعار شعراء البادية الذين نشأوا في الجاهلية ، ولم يتأثروا كثيراً بالإسلام ، ولاحظ غزارة نتاجهم الشعري ، وما يمتاز به من قوة ومتانة ، فحكم بازدهار الشعر ، وعلو منزلته في العصر كله (٣) .

ولكى يتسنى لنا أن نصدر أحكاماً صائبة - أو قريبة من الصواب - على حال الشعر في هذا العصر ، ينبغي أن ننظر إليه في مختلف بيئاته المكانية والزمانية ، التي تفاوتت فيها بين القوة والضعف ، نظراً للظروف التي أحاطت به في كل بيئة من هذه البيئات .

(١) يلخص وجهة نظر هؤلاء قول الأستاذ يحيى الجبوري : إن الإسلام حرم أكثر الأعمال التي يجود فيها الشعر ، وتنشط القرائح ، كذكر الخمر ، ومغازلة المرأة ، وإثارة الضغائن والأحقاد والتأثر لم وفضلا عن أن الحياة العامة ومثلها وقيمها قد تغيرت في ظل الإسلام ، فتغيرت تبعا لذلك الدوافع التي بها ينشط الشعر ، ويتشجع الشعراء ، فالإكرام والتشجيع الذي كان يلقاه الشعراء من الملوك ، وأصحاب الثراء والسلطان ، قد حل محله زجر عمر بن الخطاب عن المدح الكاذب والقول الذي يثير الحفاظ ، ويمس أعراض الناس . انظر : الإسلام والشعر ٣١ - ٣٢ (مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٦٤ م) .

(٢) من هؤلاء مثلا : الدكتور محمد نجيب البهيتي في كتابه (تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري) ١١٣ وما بعدها (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) والأستاذ السباعي بيومي في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ٢١٠ وما بعدها ، والأستاذ جورج زيدان في (تاريخ آداب اللغة) ١٨١/١ وما بعدها ، والأستاذ جورج غريب في (صدر الإسلام) ١٥ ، ١٢٢ .

(٣) من هؤلاء : الدكتور أحمد الحوفي في (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) ١٦٨ -

نعم ، يجب أن نفرق بين حياة الشعر في عهد النبوة ، وحياته في عهد الراشدين ، وفي كل من حضر الجزيرة العربية وبواديها ، وندرس شعر كل بيئة زمانية أو مكانية على حدة ، ثم نحكم بمدى ازدهار الشعر أو ضعفه في كل منها .

على أن من مقتضيات هذه الدراسة أن نقدم لها بموجز ، يساعدنا على تصور حال الشعر ومنزلته في إطاره العام قبل الإسلام ، فإن ذلك يعيننا على تفسير بعض جوانب هذه الدراسة .

(٢)

- الشعر قبل الإسلام :

أشرنا عند الكلام على الخطابة في العصر الجاهلي ، إلى أن عرب الجاهلية كانوا أكثر احتفالا بالشعر من الخطابة ، وأنهم كانوا يهتمون بإعداد شعرائهم ، وتكريمهم ، وتقديهم ، واهتمامهم بإعداد قادتهم وفرسانهم ، فكان يقال : « قائد القبيلة فلان ، وفارسها فلان ، وشاعرها فلان » (١) .

وما ذاك إلا لما كان للشعر عندهم من منزلة خطيرة في إثارة الحرب ، والإشادة بمفاخر القبيلة ، وهجاء أعدائها ، والخط من شأنهم .

فلا بدع إذا كان الشعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت أو الأبيات منه تقيمهم وتقعدهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة في أشعارهم ، وهي شاهدة على ما كان للشعر في نفوسهم من مكانة ، جعلتهم يرغبون فيه مشيداً بمحامدهم ، منوها بذكرهم ، ذاباً عن أعراضهم ، ويرتعدون فرقاً منه ، سالباً أمجادهم ، غاضباً من شأنهم ، طاعناً في مروءتهم وشرفهم ، دامغاً إياهم بالخزى والعار .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ٩٦/١

يقول ابن رشيقي (١) : « وعظم الشعر ، وتهيب أهله ، خوفاً من بيت سائر ، تحدى به الإبل ، أو لفظه شاردة يضرب بها المثل ، ورجاء في مثل ذلك ، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر ، بعد الخمول والاطراح ، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ، ووضع جماعة من أهل السوابق ، والأقدار الشريفة ، حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به » .

لهذا ولغيره ، كان الشعر أبرز فن عند العرب في الجاهلية ، يصلو الشعراء في ميدانه ويجولون ، ويقولون في كل ما يريدون ، مما يدور في خواطرهم ، أو تقتضيه ظروف معاشهم ، أو تهتز له عواطفهم ، متنقلين في حرية تامة فوق صدر الصحراء ، متخذين من الأسواق المنتشرة في أنحاء الجزيرة ميداناً للكلمة المنظومة الموقعة ، فيشيدون بمفاخرهم ، ومآثر قومهم حيناً ، ويهجون أعداءهم حيناً آخر ، وهم في كل حال ينفخون في نار العصبية القبلية ، ويلغون في دماء الخصوم وأعراضهم ، ويرون ذلك واجباً يحتمه الولاء للقبيلة ، والوفاء بحقها عليهم ، ولا ينسون في كل ذلك مغامراتهم العاطفية ، يرصعون بها صدور قصائدهم ، ويرضون بها شياطينهم ، وشياطين من يستمعون إليهم ، أو يروون أشعارهم .

وهكذا كان الشعر في العصر الجاهلي ، وكأنه بضاعة العرب الوحيدة ، يغدقون عليها الأموال ، ويترعون من أجلها الكئوس ، ويرفعون لها المنارات و يقيمون لها المنابر ، فاشتد التنافس بين الشعراء ، وبين القبائل مفاخرة بهم ، وأدى هذا إلى أن يحتل هذا الفن قمة عالية من الجودة ، وإتقان الصناعة ، فأمر شعراء في دولة الشعر ، وعلقت قصائدهم ، وذهبت أخرى (٢) .

(١) العمدة ٢٤/١

(٢) تحدثنا عن الشعر والشعراء في الجاهلية ، ومدى تقدير العرب لهذا الفن =

ومع ذلك لم يكن حظ الشعر من الازدهار في هذا العصر متساوياً في كل البيئات العربية ؛ إذ كان أكثر رواجاً ، وأعظم فناً في البادية منه في الحضر - بصفة عامة - لما كثر في البادية من دواعي الحرب والخصومات ، ومن تغير ظروف الحياة المعيشية ، من خصب وجدب ، وحل وترحال ، وفراق ولقاء .. إلى غير ذلك مما يحرك المشاعر ، ويبعث على قول الشعر (١) ، على عكس الحضر ، الذي كان يتمتع أهله بنوع من الحياة المستقرة ، تجعلهم أقل استعداداً لقول الشعر من أهل البادية .

* * *

= وأهله ، حديثاً أكثر تفصيلاً في مقدمة كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلي ، فليرجع إليها من شاء .

(١) للاستزادة من تأثير الحياة في البادية على ازدهار الشعر ، وكثرة الشعراء . انظر كتابنا : الشماخ بن ضرار الديلمي ٤٨ - ٥١

الفصل الأول

الشعر في عصر النبوة

(١) موقف الإسلام من الشعر والشعراء :

قبل أن نأخذ في دراسة شعر البادية والحضر في العهد النبوي ، نرى من المناسب أن نقدم لهذه الدراسة ، بما يوضح موقف الإسلام - ممثلاً في كتابه الكريم ، وفي رسوله وحامل لواء دعوته - من الشعر والشعراء .

ولنا من وراء هذا التقديم غايات ، تفرضها دراسة الشعر في هذه الفترة ، وما تتطلبه هذه الدراسة من وجوب تفهم الظروف الجديدة التي جاء بها الإسلام ؛ ليغير وجه الحياة العربية ، والتي كان على الشعر أن يتخذ منها موقفاً ، وهو يواجه - لأول مرة - دعوة تريد أن تفرض عليه نوعاً من التنظيم والتوجيه والتهذيب ، بعد أن كان يتحرك في أجواء من الحرية التي لا تحد ، والهوى الذي لا يعوقه عائق .

على أن لنا من وراء هذا التقديم فوق ذلك ، غاية هامة مباشرة ، فمن خلاله نحاول أن نقتلع من بعض الأذهان وهماً ، يطالعا من حين لآخر فيما كتب عن حياة الشعر في صدر الإسلام بعامة ، وفي العهد النبوي بخاصة ، مؤداه أن الإسلام ، قد أدار ظهره للشعر ، وأعرض عن الشعراء .

ويبدو أن هذا الوهم قد غزا بعض العقول قديماً ، واستقر فيها ، حتى ذهب أصحابها إلى القول بأن الإسلام يكره الشعر ، بل ويحرمه ^(١) ، وقد

ظلت هذه الفكرة تتراءى عبر العصور ، إلى أن وصلت إلى عصرنا الحديث ، فوجدنا من ينادى بأن الشعر إنما ضعف في صدر الإسلام ؛ لأن الدعوة الجديدة ناصبته العداة ؛ ولأن رسولها تنكر له (١) .

والآن ، ما حقيقة موقف الإسلام من الشعر والشعراء في عصره الأول ؟؟

يذهب بعض ممن تحدث عن الشعر في صدر الإسلام إلى القول بضعف هذا الشعر ؛ لأن الإسلام هجنه ، كما أن القرآن بغضه إلى المسلمين ، والقائلون بهذا يستندون في جملة ما يستندون إليه للاستدلال على صحة نظرهم ، وصدق رأيهم ، إلى أن القرآن الكريم صرح بتهجين الشعر ، وذم الشعراء (٢) ، في قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَر أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ... ﴾ (٣) .

والحق أن الآية الكريمة لا تقصد إلى تهجين الشعر بعامة ، وذم الشعراء أجمعين ، فالاستدلال بها على ما ذكروا تعميم خاطيء ، وتأويل للآية على غير وجهها الصحيح ؛ ذلك أن أولى الأقوال بالصواب في تأويلها ما ذهب إليه أهل التأويل من المفسرين ، من أن المراد بالشعراء المذمومين في الآية الكريمة شعراء المشركين ، الذين يتبعهم غواة الناس أو سفهاؤهم .

وتعلل الآية لهذا الحكم بأن هؤلاء الشعراء ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، أى أنهم يذهبون في شعرهم على غير قصد ،

(١) انظر : صدر الإسلام (جورج غريب) ١٥ ، ١٢١

(٢) انظر مثلاً : تاريخ الأدب العربى (السباعى) ٢١٣ ، وتاريخ آداب اللغة العربية

(زيدان) ١٨١/١ .

(٣) سورة الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧

بل يجورون عن الحق ، وطريق الرشاد ، وقصد السبيل ، وهذا « مثل ضربه الله لهم في افتنانهم في الوجوه ، التي يفتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ، ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور » (١) .

ومما يدل على أن المَعْنَى بالشعراء في الآية شعراء المشركين خاصة ، قوله تعالى ، بعد هذا التعليل : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ، وهو استثناء للمؤمنين ، من الشعراء بعامة ، قصد به شعراء رسوله الله بخاصة ، الذين نافحوا عنه وعن دعوته وأصحابه ضد شعراء المشركين ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ ، أى انتصروا ممن هجأهم من شعراء المشركين ظلماً ، بشعرهم وهجأهم إياهم ، وإجابتهم عما هجؤهم به (٢) .

وعلى نحو من هذا فهم ابن رشيقي الآية الكريمة على وجهها ، فقال في مقام الرد على الطاعنين في الشعر ، القائلين بكرأته أو تحريمه (٣) : « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ... ﴾ الآية فهو غلط ، وسوء تأمل ؛ لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين ، الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ، ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ، ونبه عليهم ، فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ يريد شعراء النبي ﷺ ، ينتصرون له ، ويحييون المشركين عنه » .

ويعزز هذا الفهم للآية الكريمة ما روى من أنه لما نزلت هذه الآية ،

(١) تفسير الطبري ٧٨/١٩ (طبعة الأميرية - بولاق ١٣٢٥ هـ) .

(٢) المرجع نفسه ٨٠/١٩ .

(٣) العدة ١/١ .

جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، إلى رسول الله ، وهم يبيكون ، فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ، فتلا النبي ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ (١) .

كذلك يستدل القائلون بضعف الشعر في صدر الإسلام بعمامة ، بقول الله تعالى ، رداً من زعم من المشركين أن محمداً شاعر ، وأن ما جاء به إنما هو شعر : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ (٢) ، استخلصوا من هذا أن القرآن يحط من قدر الشعر ، ويوحى بتنفير المسلمين منه ، وصرفهم عنه إنشاء وإنشادا واستماعاً .

وليس الأمر كما زعموا ؛ لأن الله سبحانه إنما أراد أنه بعث رسوله أمياً غير شاعر ، إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك ، حين استوت الفصاحة واشتهرت البلاغة ، آية للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازاً للمتعاطين من الشعراء وغيرهم (٣) .

وقد يكون ما عرف به الشعر من الميل إلى المبالغة والادعاء ، وما اشتهر به الشعراء من الجنوح إلى الخيال والتهويل ، من أسباب تنزيه الله رسوله عن أن يكون شاعراً (٤) .

وللعلماء قديماً عدة تفاسير لنص الآية ، لا تحتمل تنفيراً من الشعر ، أو تهجيناً له ، من ذلك ما رواه يونس عن الزُّهري أنه قال في تفسيره :

(١) تفسير الطبري ٧٩/١٩ .

(٢) سورة يس : ٦٩ .

(٣) انظر : العمدة ٥/١ .

(٤) اقتصر على هذا التعليل الأستاذ يحيى الجبوري في كتابه : الإسلام والشعر

« معناه : ما الذى علمناه شعراً ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعراً » (١) ، وقال غيره : « أراد : وما ينبغى له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه ، أى ليس هو ممن يفعل ذلك لأمانته ، ومشهور صدقه » (٢) .

ولابن رشيق حجة طيبة ، نستعيرها فى مقام الرد على من لم يفهم الآية على وجهها ، حيث يقول : « ولو أن كون النبى ﷺ غير شاعر غرض من الشعر ، لكانت أميته غضاً من الكتابة ، وهذا أظهر من أن يخفى على أحد » (٣) .

وقد نستطيع أن نضيف إلى هذه الآراء فى فهم الآية ، أن الله سبحانه ينزه رسوله عن كونه شاعراً ، حين نسبت قريش فضيلة الرسول ، وحجته البالغة إلى تأثير الشعر ، لا إلى فضل الرسالة ، وزعمت أن ما يتلوه عليهم ليس وحياً من عند الله ، بل إلهاماً من شيطان الشعر .

من كل هذا يتبين لنا أن القرآن الكريم لم ينفر من الشعر بعامة ، ولم يذم الشعراء أجمعين ، وإنما وقف موقف الإنكار من الشعر الظالم الذى يجور على الحق ، ويحافى العدل والخير ، ومن الشعراء الذين ينحون بشعرهم هذا المنحى .

وموقف الرسول ﷺ من الشعر يؤيد ما ذكرنا ، فقد كان صلوات الله عليه - وهو عرى خالص - يتذوق فن الكلام ويعرف للشعر قيمته وتأثيره ، وكثيراً ما استنشد رواة الشعر من صحابته ، أو استمع لما يروون منه ، والأدلة على ذلك مستفيضة فى المراجع العربية القديمة :

(١) العمدة ٦/١

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع نفسه .

حدث أبو الفرج الأصفهاني عن أنس بن مالك ، قال (١) :
« جلس رسول الله ﷺ في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ، ثم استنشدهم
قصيدة قيس بن الخطيم (وهو شاعر الأوس) (٢) يعنى القصيدة التى
مطلعها :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف ركب
فأنشده بعضهم إياها ، حتى بلغ إلى قوله :

أجالدُهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب
فالتفت إليهم رسول الله ﷺ ، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له
ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد
خرج إلينا يوم سابع عرسه ... فجالدنا كما ذكر » .

أكان الرسول يطلب سماع هذه القطعة الأدبية الممتازة ، ويسهم في
نقد بعض معانيها ، فيما يشبه أن يكون مجلساً أدبياً مع بعض أصحابه ،
لو كان حقاً يكره الشعر ، ويتنكر له ؟

وقد اشتهر عنه ﷺ أنه كان كثير الاستنشاد لبعض شعر أمية بن
أبى الصلت ؛ لما فيه من معان حكمية ، ونظرات دينية صائبة ، وكان أمية
« يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك
ما لم يذكره أحد من الشعراء » (٣) .

من ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني ، أنه ﷺ طلب من عكرمة

(١) الأغاني ٧/٣ (طبعة دار الكتب) .

(٢) انظر : طبقات ابن سلام ٢١٥/١ (مطبعة المدنى - القاهرة ١٩٧٤ م)
والخراق : منديل يلف ليضرب به ، وهو ما يعرف فى ريفنا الآن بالطرة .

(٣) المرجع نفسه ٢٦٢/١

ابن عباس أن ينشده شعراً لأمية بن أبى الصلت ، فأنشده قوله (١) :

الحمد لله مُمَسَّنا ومُصْبِحنا بالخير صَبَّحنا ربي ومَسَّنا
 رب الحنيفة لم تَنْفِ خَزَائِنُهَا مملوءة طَبَّقِ الآفَاقِ سُلْطَانَا
 أَلَا نَبِيُّ لَنَا مِنَّا فَيُخْبِرُنَا ما بعد غَايَتِنَا من رَأْسِ مَحْيَانَا
 بَيْنَا يُرَبُّنَا آبَاؤُنَا هَلَكُوا وَبَيْنَا نَقْتَنِي الْأَوْلَادَ أَفْنَانَا
 وقد عَلِمْنَا لَوْ أَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُنَا أَنْ سَوْفَ يَلْحَقُ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا
 وقد عَجِبْتُ وما بِالْمَوْتِ مِنْ عَجَبٍ ما بَالُ أَحْيَائِنَا يَكُونُ مَوْتَانَا !!

وقد عبر الرسول عن إعجابه بهذا الشعر الصادق بقوله : (إن كاد أمية ليسلم) .

كذلك كان ﷺ يقبل على كل شعر يتضمن حكمة صادقة ، أو خلقاً كريماً ، أو رأياً صائباً في الحياة أو الناس ، ألا تراه يقبل على أبى ليلى النابغة (٢) الجعدي ، حين أنشده قوله (٣) :

ولا خَيْرَ في جِلْمٍ إِذَا لم يَكُنْ لَهُ بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوُهُ أَنْ يُكْدَرَا
 ولا خَيْرَ في جَهْلٍ إِذَا لم يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا ما أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

فيقول له : (أجدت لا يفضض الله فاك) . فعاش مائتين وعشرين سنة لم تنقض له ثنية ، أى لم تتحرك .

(١) الأغاني ١٨٣/٣ ، انظر : ديوان أمية ٤٦ (طبعة ليبزج ١٩٧١ م) .

(٢) قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة صحب النبي وروى عنه ومدحه سمط اللآلى ٢٤٧/١ عاش ثلاثة قرون والقرن ثمانون سنة وقال في ذلك :

صبحت أناسا فأفحيتهم وأفانيت بعد أناس أناسا
 ثلاثة أهلين أفنيتهم وكان الإله هو المستأسا
 وتحنف في الجاهلية وهجر الأوثان والأزلام وكان يصوم ويستغفر ، قال :
 الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

(٣) الأغاني ١٣٠/٤ وسمط اللآلى ٢٤٧/١

وكثيراً ما كان الرسول يوجه الشعراء ، ويستحثهم على الاتجاه بأشعارهم نحو الحق والخير ، ويشجعهم على هذا الاتجاه إن لمحه في أشعارهم ، ومن هنا أثنى على النابغة الجعدي لما سمع بيتيه السابقين ، وأعجبه ما فيهما من رأى صائب ، كما وجهه ، وأثنى عليه ، ودعا له حين أنشده قوله (١) :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدًا وَجُودًا وَسُودًا وَإِنَّا لَنَرْجُوا فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا
فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى ؟ فَقَالَ : إِلَى الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !!
قال : نعم ، إن شاء الله .

وها هو ذا يقول للعلاء بن الحصين ، وقد جاءه يوماً : هل تروى من الشعر شيئاً ؟ فأنشده (٢) :

وَحَيِّ ذَوَى الْأَضْغَانِ تَسْبِ عُقُولَهُمْ تَحِيَّتُكَ الْحُسْنَى فَقَدْ تَرَفَعَ النَّعْلُ
فَإِنْ دَحَسُوا بِالْكُرْهِ فَاغْفُ تَكْرُمًا وَإِنْ حَبَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقْلُ
فلما سمع هذا الشعر قال قوله المشهورة : (إن من الشعر لحكمة) .

من هذا نرى أن الرسول كان مقبلاً على الشعر ، راغباً في سماعه ، يستنشده أصحابه ، ويسألهم عنه ، ويستحسن منه ما حسن ، ويبدى إعجابه به ، ويرشد إلى مواطن الخير فيه .

(١) جمهرة أشعار العرب (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي) ٦١ (طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ) .

(٢) العمدة ١٧/١ ، وانظر : جمهرة أشعار العرب ١٨ . دحسوا بالكـره : أظهروه .
النغل : الحقد والكراهية .

وكما رأينا الرسول يقبل على الشعر مستنشداً ، عرفناه يقبل عليه مستمعاً متأثراً ، مستجيباً ، منفعلاً .

فكثيراً ما كان يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة ، وعواطف راقية سامية ؛ ولذا اشتهر عنه قوله للخنساء : (هيه ياخنساء) ، كلما أنشدته شعرا في رثاء أخيها صخر (١) .

ولعل من أظهر ما يدل على أن الرسول ﷺ ، كان يهتز للشعر ، وينفعل له ، ويتذوقه ، ويتأثر به ، ما روى من أنه كان قد أهدر دم كعب بن زهير الشاعر ؛ لما بلغه قوله لأخيه بجير بن زهير حين أسلم (٢) :

من مبلغ عني بُجيراً رسالة فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك؟
شربت مع المأمون كأساً رويةً (٣) فأهلك المأمون منها وعلكا
وخالف أسباب الهدى واتبعته على أي شيء وبب غيرك دلوكا ؟
على تخليق لم تُلف أما ولا أباً عليه ولم تُدرِك عليه أُنحاً لك

فلما أنشده كعب قصيدته المشهورة (بانث سعاد) يعتذر فيها إليه ويمدحه عفا عنه ، وخلع عليه برده الشريفة ، ثواباً له (٤) .

ولقد تعرضت له قتيلة بنت النضر بن الحارث ، من بني عبد الدار

(١) انظر : أنيس الجلساء في ديوان الخنساء (أحد الآباء اليسوعيين) ص ٩ (المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٨٨٨ م) .

(٢) السيرة لابن هشام ق ٥٠٣/٢ . الخيف : أسفل الجبل ، والمراد هنا : خيف مني . الويب : بمعنى الويل . المأمون : يعني الرسول ، وكانت قریش تسميه بالمأمون وبالأمين قبل النبوة .

(٣) وفي رواية : « سقاك أبو بكر بكأس روية ... » .

(٤) العمدة ٧/١ وطبقات ابن سلام ١٠٣/١

من قريش وهو يطوف بالكعبة ، قاستوقفته - وكان قد أمر عليا بن
أبي طالب بقتل أبيها بعد أن أسر - وأنشدته قولها (١) :

يا راكباً إن الأثيل مَظَنَّةٌ	من صبيح خامسة وأنت موفقٌ
أبلغ به ميتاً بأن قصيدةً	ما إن تزال بها الركائب تخفقُ
مِنِّي إليه وعبرةً مسفوحةً	جادت لِماتِحِها وأخرى تخنقُ
فليسمعنَّ النَّضْرُ إن ناديتَه	أَمْ كيف يسمع ميت لا ينطقُ
ظلت سيوفُ بني أبيه تُنوشُه	لله أرحامٌ هناك تُشَقِّقُ
قَسراً يُقَادُ إلى المَنِيَّةِ مُتَعَباً	رسف المقيّد وهو عانٍ مُوثقُ
أحمدُها أنتَ تجلُ نجيةً	من قومها والفحلُ فحلٌ مُغرقُ
ما كان ضركَ لو مَننتَ وربما	من الفتى وهو المغيظُ المحنقُ
والنَّضْرُ أقربُ من قتلَتَ وسيلةً	وأحقُّهم إن كان عتقُ يُعتقُ

فتأثر الرسول أيما تأثر بهذا العتاب الحزين الباكي ، وقال :
(لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته !!) .

وقد يكون الشعر وسيلة للاستنجاد بالرسول ، كما كان سبيلا إلى
الاعتذار إليه ، أو معاتبته ، وهنا نجد الرسول يهب للنجدة ، منفعلا أشد
الانفعال .

روى أن عمرو بن سالم الخزاعي قدم على الرسول - وكانت خزاعة
في حلفه فاعتدت عليها قريش - مستنصراً ، فقال (٢) :

(١) الأغاني ٩/١ والعمدة ٣٠/١

(٢) السيرة لابن هشام ٢/٣٩٤ ، وجمهرة أشعار العرب ١٦/١٧ الوتير : اسم ماء أسفل
مكة كان لخزاعة .

يَارَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَثَلَدَا
 قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا وَكُنَا وَالِدًا ثُمَّتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ تَنْزِعْ يَدَا
 فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا وَاذْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
 فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا إِنْ سِيَمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرِيدَا
 إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
 وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُوا أَحَدَا وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلَلُ عَدَدَا
 هُمْ يَبْتَئُونَ بِالْوَتِيرِ هُجْدَا وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا

فما إن سمع الرسول هذا الشعر حتى دمعت عيناه ، وقال : (نُصِرْتُ
 يا عمرو بن سالم) .

وكيف يمكن أن يتجاهل تقدير الرسول الشعر ، وإدراكه تأثيره في
 نفوس العرب ، وهو الذى قبل مفاخرة وقد بنى تميم في ميدان الشعر ، فأذن
 لحسان بن ثابت في الرد على شاعرهم ، فلما سمعوا قول حسان أعجبهم ،
 ورأوا في تفوقه على شاعرهم وجهاً من وجوه التوفيق الإلهى للنبي ، فقالوا : (إن
 هذا الرجل لمؤتى له - أى ميسر له - لشاعره أشعر من شاعرنا ..) (١) .

ثم ، أليس من دلائل إعزاز الرسول الشعر ، واحتفائه به ، ما روته عائشة
 رضى الله عنها من أنه ﷺ بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه
 الشعر ؟ (٢) وأنه حين دخل مكة معتمراً (عمرة القضاء ٧ هـ) قدم بين يديه
 عبد الله بن رواحة ، فأخذ بخطام ناقتة ، مرتجراً بأبيات منها (٣) :

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فِكْلَ الْخَيْرِ مَعَ رَسُولِهِ
 يَارَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قُبُولِهِ

(١) السيرة لابن هشام ق ٥٦٠/٢ - ٥٦٧ .

(٢) العملة ٩/١

(٣) طبقات ابن سلام ٢٢٣/١ ، والسيرة لابن هشام ق ٣٧١/٢

وكل هذا الشعر الذى سمعه الرسول ، أو طلب سماعه ، من النماذج الفنية الجيدة ، ليس فيه معنى ضعيف أو لفظة ساقطة ، أو نسج مهلهل ، إن قسته بمقياس الفن أرضاك ، وإن قسته بمقياس الخلق أرضاك ، وإن قسته بمقياس العقل والحق أرضاك ؛ لأنه شعر صدر عن قائله تعبيراً عن فطرة الخير فيهم ، أو عن تأملات واعية هدتهم إليها عقولهم ، أو عن مواقف إنسانية هيجت مشاعرهم ، فلم يتكلفه قائلوه تكلفاً ، أو يحملوا قرائحهم عليه جملاً ، إرضاء للدعوة الجديدة ، أو إرضاء لرسولها ، وكيف !! وأكثره مما قيل قبل الدعوة الجديدة ، وقبل أن يرسل رسولها .

ويلخص موقف الرسول ﷺ من الشعر قوله : « إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه ، فلا خير فيه » (١) .

فالرسول الذى عرفناه مقبلاً على هذا الشعر الحسن ، هو نفسه الذى أعرض عن الطفيل بن عمرو السدوسى لما أتاه وأنشده قوله (٢) :

ولا وإله الناس نألم حربهم	ولو حاربتنا منهب وبنو فهم
ولما يكن يوم تزول نجومه	تطير به الركبان ذو نيا ضخم
أسلماً على خسف ولست بخالد	ومالى من واق إذا جاءنى حتمى
فلا سلم حتى تحفز الناس خيفة	ويصبح طير كانسات على لحم

فأجابه النبى بأن قرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ؛ وذلك لما فى هذا الشعر من روح جاهلية تمجد ما كان بين الجاهليين من نزاع قبلى ، وإلى

(١) العمدة ٩/١ ، وانظر : دلائل الإعجاز (الجرجاني) ١٣ - ٢٠ (مطبعة المنار - القاهرة ١٣٦٦ هـ) .

(٢) الأغاني ٥١/١ . كانسات : عاكفات .

هذا الشعر وأمثاله التي تدور مواضعها حول نهش الأعراض ، وإثارة الضغائن والأحقاد ، والمدح الكاذب ، والفخر المتعالي بالأحساب والأنساب - لا بالعمل الطيب - إلى هذا الضرب من الشعر ينصرف قوله ﷺ (١) « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه ، خير له من أن يمتلئ شعراً » .

ونكتفى بهذا القدر في معرض الاستدلال على أن الرسول ﷺ لم يكن يرفض الشعر بعامة ، ويعرض عن الشعراء أجمعين ، فقد رأينا يقبل على ما حسن ووافق الحق من الأشعار ، الجاهلية وغير الجاهلية ، ولم يتضمن ما ينافي روح الإسلام وتعاليمه وآدابه ، واشتمل على العظة والعبرة ، والتذكير والحض على الفضائل ... وغير ذلك مما يدخل تحت قوله ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » .

من هذا العرض لموقف الرسول من الشعر ، يتضح لنا أنه عليه الصلاة والسلام ارتضى ما ارتضاه القرآن في شأن الشعر والشعراء « وإذا كنا لا نجد في القرآن الكريم تفصيلاً لذكر الشعر والشعراء ، وإذا كان ذكر الشعر والشعراء جاء في معرض التهوين والذم مستثياً الصالحين منهم ، فإننا نجد في حديث رسول الله ﷺ تفصيلاً وإيضاحاً ، وتطبيقاً عملياً لما يرضاه الدين أو ينهى عنه ، فالقرآن يغض من شأن الشعراء الهائمين في كل واد ، وكذلك فعل الحديث ، والقرآن يستثنى المؤمنين الصالحين منهم ، وكذلك فعل الرسول ، فتعهد شعراء المؤمنين بالرعاية والتشجيع والتوجيه ، وجند مواهبهم في سبيل خدمة الدعوة ونشرها » (٢) .

نخلص من هذا إلى أن الإسلام لم يصرف المسلمين عن الشعر كله ،

(١) المجازات النبوية ٩٠ ، والعمدة ١٢/١ . يريه : يفسده ويهبطه .

(٢) الإسلام والشعر (يحيى الجبورى) ٧٥

ولم يشغلهم عن إنشاء ما حسن منه ، أو إنشاده ، أو سماعه ، وأن الرواية الشعرية لم تتعطل كلها في العهد النبوي ؛ لأن الإسلام - ممثلاً في القرآن وفي رسوله الكريم - لم يتخذ موقف الرفض التام للشعر والشعراء .

على أن هذا اللون من الشعر الحسن ، لم يكن يمثل شعر العهد النبوي كله ، فقد كان هناك شعر البادية ، الذي كان ما يزال يعبر عن حياتها ، بكل ما فيها من خير وشر ، بعيداً عن الإسلام .

كما كان هناك شعر آخر في حواضر الحجاز - مكة والمدينة والطائف - لا يدخل تحت أبواب هذا الشعر الحسن ، وقد وقف الرسول إلى جانب طائفة من شعرائه ، يشجعهم ويحثهم على المزيد منه ، مدفوعاً إلى ذلك بظروف خاصة ، سيأتى ذكرها قريباً ، وكان لكل ذلك أثره في حياة الشعر في فترة النبوة ، مما نتاوله بشيء من التفصيل فيما يلي :

(ب) الشعر بين البادية والحضر في العهد النبوي :

ما دمنا في مقام دراسة تأثير الإسلام في الشعر ، على أى نحو كان هذا التأثير ، فإن الحديث عن حياة الشعر في البادية في عهد النبوة لا يدخل في نطاق هذه الدراسة ؛ إذ من المعلوم أن الإسلام ظل محصوراً في المدينة وما حوالها فترة استغرقت أكثر حياة الرسول في المدينة ، وظلت بوادى الجزيرة العربية الشاسعة ، في نجد واليمامة ، وتخوم الشام والعراق وغيرها ، يلفها ظلام الجاهلية ، لم تغزها بعد تعاليم الإسلام ، ولم تشرق عليها شمس هدايته ، حتى إذا سقطت مكة عام الفتح (٨ هـ) ورأى العرب أن قريباً زعيمة الوثنية ، وحاملة لوائها ، قد دخلت في دين محمد ﷺ ، أخذت وفود قبائلهم تضرب أكباد الإبل صوب المدينة ؛ لتعلن إسلام قومهم في شتى أنحاء الجزيرة العربية ، حتى سمي العام التاسع من الهجرة عام الوفود ، ولم يلبث الرسول ﷺ أن توفى بعد ذلك بقليل .

ونحن لا نجهل أن أفراداً من البادية قدموا على الرسول فأسلموا ، وأن غيرهم أسلم على يد مبعوثيه إلى بعض القبائل ، وأنه كان من بين هؤلاء نفر من الشعراء ، كأعشى تميم ، والحجاج بن علاط السلمى ، وناجية بن جندب الأسلمى ، وميمونة بنت عبد الله البلوية .. وغيرهم ^(١) ، غير أن هؤلاء انضموا إلى معسكر شعراء الرسول بالمدينة ، في صراعهم مع شعراء مكة - كما سيأتى - فالمعركة بين مكة والمدينة جذبت الشعراء إلى كل منهما ^(٢) ، وشعر هؤلاء لا يمثل شعر البادية ، بقدر ما يمثل - مع شعراء الرسول بالمدينة - تلك النهضة الشعرية ، التى كان باعثها وملهبها الصراع بين المعسكرين .

وفوق هذا فإن هؤلاء الشعراء البدو كانوا قلة قليلة - إن صح هذا التعبير - بالنسبة للشعراء الذين كانت البوادر العربية تموج بهم ، وتردد أشعارهم ، وهذه الأشعار ، التى راجت طوال العهد النبوى تقريباً ، تعد امتداداً للشعر الجاهلى شكلاً ومضموناً ومذهباً .

ولا يقلل من قيمة هذا الحكم ما جاء فى شعر بعض شعراء البادية ، ممن أسلموا مع قبائلهم فى العامين الأخيرين من حياة الرسول ، من بعض المعانى أو الألفاظ المتأثرة بالإسلام ، كالذى جاء فى شعر كعب بن زهير ، من أبيات فى مدح الرسول والمهاجرين يقول فيها ^(٣) :

(١) انظر : السيرة لابن هشام ق ٥٣/٢ ، ١٦٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ومواقع أخرى متفرقة ، وانظر أيضاً : تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ٧٠

(٢) انظر : تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ٧٢

(٣) طبقات ابن سلام ٨٤ ، والسيرة لابن هشام ق ٥١٠/٢ - ٥١٣ . قال قائلهم : هو عمر بن الخطاب حين هاجر من مكة . زولوا : فارقوا مكة بالهجرة إلى المدينة . أنكاس : جمع نكس : الضعيف الهياب العاجز . كشف جمع أكشف : وهو الذى لا يثبت فى الحرب . معازيل : يعتزلون الحرب . عرد : فر وأعرض . التنايل : القصار . التهليل : الجبن .

وقال كل خليل كنت آمله
فقلت خلّوا سبيلي لا أبالكم
بُيُتُ أن رسول الله أوعدني
مهلاً هذك الذي أعطاك نافلة الـ
إن الرسول لسيف يستضاء به
في فتية من قريش قال قائلهم
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
شمّ العرائين أبطال لبوسهم
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
لا يقع الطعن إلا في نحورهم
لا ألفتك إني عنك مشغول
فكل ما وعد الرحمن مفعول
والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعظ وتفصيل
مُهَنَّد من سيوف الله مَسْلُول
بيطن مكة لما أسلموا : زُؤلوا
يوم اللقاء ولا ميل معازيل
من نسج داود في الهيجا سرايل
ضرب إذا عرد السود التنايل
وما بهم عن حياض الموت تهليل

فإن ما في هذه الأبيات من معان وألفاظ يمكن أن تعد من أثر
الإسلام ، يكاد يتوارى خلف هذا المديح الذي يجري على منهج المديح
الجاهلي ، وبخاصة في الأبيات الأخيرة ، ولو لم تقل قصيدة كعب التي منها
هذه الأبيات في مدح الرسول ، لعدناها جاهلية ؛ لأن ملامح الإسلام فيها
تكاد تكون معدومة .

ويمكن أن نقيس على هذا ما كان من شعر بعض شعراء البادية ،
قبيل وفاة الرسول ، يتضمن معنى أو لفظاً إسلامياً .

وقد يكون لهذا التأثير ضئيلاً لا يكاد يلحظ ، كما نرى في شعر المزرد
ابن ضرار - أنحى الشماخ الشاعر المشهور - وكان قد وفد على الرسول بعد
فتح مكة ، فأسلم وأنشده شعراً يهجو فيه قومه لجورهم عليه ، وليس فيه من أثر
للإسلام إلا الاعتراف للرسول بالرسالة ، يقول مزرد بين يدي الرسول (١) :

(١) ديوانه (جمع خليل إبراهيم العطية) ٦٣ (طبعة بغداد ١٩٦٢ م) .

تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّا كَأَنَّا أَفَأْنَا بِأَنْغَارٍ ثَعَالِبَ ذِي غِسْلٍ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ تَرَّ مِثْلَهُمْ أَجَرَ عَلَى الْأَذْنَى وَأَحْرَمَ لِلْفَضْلِ

وهذه اللّمحات الإسلامية لا تكاد تذكر بجانب شعرهم الآخر ذى الطابع الجاهلى الخالص ، وهذا أمر طبيعى ، فما كان للإسلام أن يحدث أثره فى ملكات هؤلاء الشعراء بمجرد دخولهم فيه ، وأن يهجروا مادريت عليه شاعريتهم فترة طويلة تحت تأثير حياتهم الجاهلية ، التى كانوا ما يزالون يعيشونها بكل مقوماتها وظروفها وتقاليدها ، وإن دخلوا فى الإسلام .

آية هذا كله ، أن شعر البادية فى العهد النبوى شعر جاهلى ، يجرى على ألسنة جاهلية ، ويفيض عن وجدانات جاهلية ، ويعبر عن حياة جاهلية ، ومن ثم يصدق عليه ما يصدق على الشعر الجاهلى الذى كان مزدهراً قبل الإسلام من خصائص الشكل والمضمون .

(ج) ازدهار الشعر فى عصر الحجاز فى العهد النبوى :

كانت هجرة الرسول ﷺ ، وصحبه من أهل مكة إلى المدينة نقطة تحول هامة ، فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففى المدينة التف حوله الأنصار والمهاجرون ، يؤازرونه ، وينصرون دعوته ، ورأت قريش أن دعوة محمد ﷺ تنمو وتشتد ، والأيام تتوالى ، ومكانتها الدينية تهتز بين العرب ، فلم يكن لها بد من أن تقف فى وجه محمد وصحبه ودعوته وقفة أشد عنفاً وضراوة ، وأن تجند لذلك سيوفها وألسنتها ، وأن تؤلب عليه من تستطيع تأليبهم من قبائل العرب وشعرائهم .

هب شعراء قريش يعلنونها حرباً شعواء على الرسول والإسلام والمسلمين ، وفى مقدمتهم ألمع شعرائها ، وأشدّهم عداوة للمسلمين وهجاء

لهم ، وتحريضاً عليهم ، عبد الله بن الزَّيْعَرَى (١) ، يعينه ويؤيده أبو سفيان
المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب (ابن عم الرسول) ، وضرار بن الخطاب
الفهري - فارس قریش وشاعرها - والحارث بن هشام (أخو أبي جهل)
المخزومي ، وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان الجمحي ، وهيرة ابن أبي
وهب المخزومي ، يؤازرهم من شعراء الطوائف أمية بن أبي الصلت ، ومن
شعراء اليهود بالمدينة وما حوالها كعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق ،
ومن يدعى سمالك اليهودي ، ومرحب اليهودي ، وجبل بن جوال الثعلبي ..
وغيرهم .

هب هؤلاء يناضلون الرسول ودعوته وصحبه في عنف وضراوة ، ومن
ورائهم شواعر من قریش ، فتق الصراع شاعريتهن ، يثرن الحمية ، ويحرضن
على قتال المسلمين ، ويثرن الأحقاد ، ويندبن القتلى من ذويهن ، أو يشتفين
بقتلى المسلمين ، من أمثال هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب ،
وصفية بنت مسافر الأموية ، وقتيلة بنت النضر بن الحارث ... وغيرهن (٢) .

استنفرت قریش كل هؤلاء لمحاربة الدين الجديد ومعسكره بالمدينة ،
في محاولة مستميتة لإطفاء نوره ، والقضاء عليه ، فاستعرت هذه المعركة
الكلامية ضد ثورة الإسلام ، واندفاعه لتحطيم مثل هؤلاء المناوئين ،
وتقاليدهم العقيمة ، وعقيدتهم الفاسدة .

وبهمنا هنا أن ننبه إلى ما كان للإسلام من فضل أدبى هام ، إذ

(١) انظر في مدى قوة شاعريته ، وعداوته للإسلام : الاستيعاب (ابن عبد البر)
٣٦٧/١ (طبعة حيدر آباد ١٣١٨ ، ١٣١٩ هـ) .

(٢) انظر في هؤلاء الشعراء والشواعر : السيرة لابن هشام ٣٨/٢ - ٤٢ ، ٥٢ ،
٩١ - ٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٧٢ ومواضع أخرى متفرقة ، وانظر أيضاً : العملة ٧/١ وطبقات
ابن سلام ٢٣٥/١ - ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨١ - ٢٨٢ .

لولا ، ولولا ماشته على المشركين عامة ، ومشركى قريش خاصة ، من حرب
عدائية سافرة صريحة ، لما نهضت الشاعرية القرشية ، ولا انبعثت قوية ، بعد
أن كانت غير ذات خطر فى الجاهلية ، وإنما قلل من شأنها ، وأضعف
نتائجها فى الجاهلية أن قبائل قريش لم تكن بينهم نائرة (حقد وعداوة تثير
الشر) ولم يجاربوا ، كما يقول ابن سلام ^(١) ، أما وقد وجد النائرة والحرب فى
العهد النبوى فقد ثارت عواطف القرشيين ، ونشطت شاعريتهم .

ووجه الرسول وصحبه - إلى جانب السيوف المشرعة - باللسنة
محمومة ، تسعى إلى النيل منه ومن دعوته وأصحابه .

وقد أخذت هذه الحرب الشعرية اتجاهات عديدة ، وسلكت سبلا
شتى لبلوغ أهدافها ، كالتحريض على قتال المسلمين ، وإشعال الحقد
عليهم ، وإثارة الحمية فى النفوس ضدهم ، والتشفى بقتلهم ، أو رثاء من
سقطوا من صفوف المشركين صرعى فى معاركهم مع المسلمين ، والحض على
الشار لهم .

كل هذا مع تهجم على النبى وأصحابه ، بهجاء فيه عنف ، وفيه
إقذاع وفحش ، ترتفع بهذا كله أصوات الشعراء والشواعر من قريش ومن
والاها ، ولم يكن شعر النساء أقل خطراً فى هذه الحرب من شعر الرجال
» ففيه الكثير من اتجاهات الشعر القرشى ، زيادة على ما فى شعر النساء من
التفجع واللوعة فى بكاء القتلى « ^(٢) .

فمما انطلقت به ألسنة شعراء المشركين فى التحريض على قتال
المسلمين ، قول أمية بن أبى الصلت ، فى قصيدته المشهورة فى رثاء قتلى بدر
من قريش ، التى مطلعها :

(١) طبقات ابن سلام ق ٢٥٩/١

(٢) شعر الخضرمين (يحيى الجبورى) ١٧٠

ألا بكيت على الكرام م بنى الكرام أولى الممادح

وفيها يقول محرضاً على معاودة قتال المسلمين (١) :

لله دُرُّ بنى ع لى أيم منهم ونايح
إن لم يُغيروا غارة شعواء تُججر كل نابح
بالمقربات المبعدا ت الطامحات مع الطوايح
مُرداً على حُرْدٍ إلى أسد مكالبية كوالح
ويُلاق قرن قرنه مشى المصافح للمصافح
بزهاء ألف ثم ألف في بين ذى بدن ورامح

فهذه دعوة للانتقام لقتلى بدر من المشركين ، تلت رثاء مهيجاً
للمشاعر والأحقاد ، كان لها من الأثر في تحميس قريش ماجعل الرسول
ﷺ يحرم إنشادها (٢) .

ويصرع كعب بن الأشرف اليهودى إلى مكة بعد وقعة بدر ، مستغلاً
إحساس قريش بمصائبها الفادحة فى بدر ؛ ليزيد من التهاب مشاعر الحقد
والكره عند القرشيين لمحمد وأتباعه ، بتحريض سافر على قتالهم ، وإنقاذ
المدينة منهم ، خاصة وقد جاءت الأنباء إلى المدينة تحدث بأن الحارث بن
هشام بن المغيرة يجمع الجموع ، ويعد العدة لحرب أخرى ضد المسلمين ،
وفى هذا يقول كعب (٣) :

(١) السيرة لابن هشام ق ٢٢/٢ بنو على : يريد بنى العلاء ، تحجر : تلجئ إلى
البحر .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى (كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار) ١١٣/١
(طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٩ م) .

(٣) السيرة لابن هشام ق ٥٢/٢

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ
قَتَلَتْ سَرَاةَ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاظِهِمْ
كَمْ قَدْ أَصِيبَ بِهِ مِنْ أَيْضِ مَا جِدِ
وَيَقُولُ أَقْوَامٌ أَسْرُ بِسَخَطِهِمْ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الْأَرْضَ سَاعَةً قُتِلُوا
نُبِئْتُ أَنَّ بَنِي الْمُغِيرَةِ كُلَّهُم
نُبِئْتُ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ هَمَّ
لِيُزَوِّرَ يَثْرِبَ بِالْجُمُوعِ وَإِنَّمَا

وَلِثَلْ بَدْرٍ تَسْتَهْلُ وَتَدْمَعُ
لَا تَبْعَدُوْا إِنْ الْمَلُوكُ تُصْرَعُ
ذِي بِهِجَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الضُّعِيعُ
إِنْ ابْنَ أَشْرَفٍ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ
ظَلَّتْ تَسُوخُ بِأَهْلِهَا وَتُصَدِّعُ
خَشَعُوا لِقَتْلِ أُمِّ الْحَكِيمِ وَجُدَّعُوا
فِي النَّاسِ يَنِي الصَّالِحَاتِ وَيَجْمَعُ
يَحْمِي عَلَى الْحَسْبِ الْكَرِيمِ الْأَرْوَعُ

وهذا الشعر يكشف عن عداوة دفينّة للإسلام والمسلمين ، وهذه العداوة اشتهر كعب ، فأخذ يهجو الرسول وأصحابه ، ولم تسلم أعراض المسلمين من أذاه ، فيقال إنه بعد أن رجع من رحلته هذه إلى مكة أخذ يشبب بنساء الصحابة ويشهر بأعراضهم ^(١) ؛ ولذا حرصت الرواية الإسلامية على تجاهل رواية هذا الشعر ، الذي يتعرض فيه كعب لهجاء المسلمين هجاءً فاحشاً ، فكل ما قيل من هذا الضرب قد عفى عليه وطمس ، ولم تبق إلا الإشارة إليه ووصفه ، وما بقى له من شعر في الصراع بين مكة والمدينة ، إنما هو مما لا يمس العرض أو الدين .

وقد أثارت أبيات كعب هذه مشاعر المسلمين ، فبرز بعض شعرائهم للرد عليه ، منهم حسان بن ثابت ^(٢) ، وميمونة بنت عبد الله البلوية ، التي أجابها كعب ، لما قالت :

تَحْنَنُ هَذَا الْعَبْدُ كُلَّ تَحْنُنٍ يُكَيِّ عَلَى قَتْلِي وَلَيْسَ بِنَاصِبٍ

(١) انظر : السيرة لابن هشام ٥٤/٢

(٢) المرجع السابق ق ٥٣/٢

بقوله (١) :

أَتَشْتُمْنِي أَنْ كُنْتُ أَبْكِي بِعَبْرَةٍ لِقَوْمِ أَتَانِي وَدُهُمَ غَيْرَ كَاذِبٍ
فَإِنِّي لَبَاكِ مَا بَقِيْتُ وَذَاكَرْتُ مَا أَثَرُ قَوْمٍ مَجْدُهُمَ بِالْجُبَابِ

وليس هذا الود الذي جمع بين كعب وقريش ، إلا وليد العداوة التي تربط بين قلبه وقلوبهم ، والتي يعرف عنها قوله عن المسلمين (أقوام أسر بسخطهم) وجزعه الشديد حين سمع بما حدث لقريش ببدر (إن ابن أشرف كعباً ظل يجزع) وتمنيه أن تلك الأرض بمن عليها :
فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ بأهلها وتصعد

وإصراره على بكاء قتلى قريش ما بقى على وجه الأرض (فإنني لبك ما بقيت) ، وقوله عقب بدر (٢) . « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها » .

ولعله غنى عن البيان أن كعب بن الأشرف لم يكن بهذا الشعر معبراً عن مشاعره فحسب ، وإنما كان لسان اليهود كذلك في التعبير عن عداوتهم للإسلام ورسوله وأتباعه ، فاليهود وإن كانوا أصحاب دين وتوحيد ، إلا أنهم يلتقون مع قريش في عدائهم للإسلام والمسلمين ، « فقد جاهر اليهود منذ وقت مبكر بعدائهم للدين الإسلامي ، ورفعوا راية العدوان ضد المسلمين ، وانضموا إلى قريش في حربهم يشاركونهم ويحرضونهم ... ثم شهروا بعد ذلك سيوفهم ليقاتلوا المسلمين » (٣) .

لما التقى المسلمون والمشركون يوم أُحُد ، ودنا بعضهم من بعض ،

(١) المرجع نفسه ق ٥٤/٢ . الجباب : منازل مكة .

(٢) المرجع نفسه ق ٥١/٢

(٣) شعر المخضرمين ١٩٣

قامت هند بنت عتبة ، في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف ، يضررن
بها خلف الرجال ، ويحرضنهم على القتال ، فقالت هند (١) :
وَيْهَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَيَّهَا حُمَاةَ الْأَذْبَارِ
ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ

وتمثلت قائلة :

إِنْ تَقْبَلُوا تُعَانِقُوا وَتُفَرِّشَ التَّمَارِقُ
أَوْ تُذْبِرُوا تُفَارِقُوا فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ

وطلب صفوان بن أمية من أبي عزة الجمحي أن يعين قريشاً بلسانه
في تأليب العرب على المسلمين إعدداً ليوم أحد ، فخرج أبو عزة في تهامة
يدعو بني كنانة قائلاً (٢) :

يَا بَنِي عَبْدِ مَنَاةِ الرُّزَامِ أَنْتُمْ حُمَاةُ وَأَبُوكُمْ حَامِ
لَا تُعْدُونِي نَصْرَكُمْ بَعْدَ الْعَامِ لَا تُسْلِمُونِي لَا يَحِلُّ إِسْلَامُ

وخرج مسافع بن عبد مناف الجمحي يحرض بني مالك بن كنانة ،
ويدعوهم إلى حرب الرسول قبيل أحد ، فقال (٣) :

يَا مَالِ مَالِ الْحَسْبِ الْمَقْدَمِ أَنْشُدْ ذَا الْقُرْنَى وَذَا التَّدْمِ
مَنْ كَانَ ذَا رُحَيْمٍ وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ الْجِلْفُ وَسَطَ الْبِلَدِ الْمَحْرَمِ
عِنْدَ حَطِيمِ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمِ

(١) السيرة لابن هشام ق ٦٨/٢ وبها : كلمة للإغراء . الوامق : الحب . والرجز
الثاني لهند بنت طارق بن يياضة الإيادية قالته في حرب الفرس لإياد . انظر هامش السيرة .
(٢) طبقات ابن سلام ٢٥٤/١ والسيرة لابن هشام ق ٦١/٢ ، الرزام : الذين يثبتون
في الحرب ولا ينهزمون .
(٣) السيرة ق ٦١/٢

أما وقد انتهت موقعة أحد ، وتصورت قريش أنها انتقمت لقتلها في بدر ، انطلق شعراؤها يفخرون بالنصر ، ويتمدحون بالبطولة ، ويتشفون بقتلى المسلمين ، وبخاصة مقتل سيد الشهداء حمزة عم الرسول .

فضرار بن الخطاب الفهري يزهو ببطولته ، وبسالة فرسان قريش ، ويفخر بما أحرزوه من نصر ، وبما أصابوا من فرسان المسلمين ، فيقول (١) :

إني وجدك لولا مقدمي فرسى	إذ جالت الخيل بين الجزع والقاع
ما زال منكم بجنب الجزع من أحد	أصوات هام تراقى أمرها شاعى
وفارس قد أصاب السيف مفرقه	أفلاق هامته كفروة الراعى
إني وجدك لا أنفك منتطقاً	بصارم مثل لون الملح قطّاع
على رحالة ملوآج مثابة	نحو الصريح إذا ما ثوب الداعى
ولا انتهيت إلى نخور ولا كُشف	ولا لثام غداة البأس أوارع
بل ضارين حبيك البيض إذ لحقوا	شمّ العرائن عند الموت لُدّاع
شمّ بهاليل مُستريح حمائلهم	يسعون للموت سعيّاً غير دغداع

وطابع الفروسية واضح في هذا الشعر ، ولا غرو فضرار كان فارس قريش وشاعرها كما قلنا من قبل ، وشعره وشعر عبد الله بن الزبير أقوى ما قيل في الصراع بين مكة والمدينة في العهد النبوى ، كما أن ضراراً وابن الزبير كانا من أكثر شعراء قريش معارضة لشعراء المسلمين .

ولضرار شعر آخر في يوم الخندق يفتخر بجيوش قريش والأحلاف ، وحسن عدتهم ، وشدتهم على المسلمين ، وتسلطهم عليهم ، ويهجو فرسان

(١) المرجع السابق ١٤٥/٢ الجزء : منعطف الوادى . القاع : الأرض المنخفضة . تراقى : تصيح . شاعى : شائع . أوارع : جنباء .

المدينة ، ويرميهم بالضلال ، ويتهددهم بأن الأحلاف سوف يعاودون الكرة عليهم ، فيقول (١) :

ومشفقة تظنُّ بنا الظُّنونا وقد قُذِّنا عَرْنَدَسَةً طَحُونا
 كأن زهاءها أُحْدُ إذا ما ندت أركانها للناظرينا
 ترى الأبدانَ فيها مُسْبِغاتٍ على الأبطال واليَلْب الحصينا
 وجرداً كالقَدَاجِ مُسَوِّماتٍ تومُّ بها العَوَاة الخاطئينا
 أناسٌ لا نرى فيهم رَشِيداً وقد قالوا : ألسنا راشدين ؟؟
 فأحجرناهم شهراً كريماً وكنا فوقهم كالقاهرينا ...
 فلولا خندق كانوا لديه لدمرنا عليهم أجمعينا
 ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا مُتَعَوِّدينا

إلى أن يقول :

وسوف نزورك عماً قريب كما زُرناكم مُتَوَازرينا
 بجمعٍ من كِنانة غير عُزْل كأسد الغاب قد حَمَت العرينا

والملاحظ أن أكثر ما جاءنا من هجاء شعراء قريش في المسلمين ، يأخذ طابعاً شخصياً لا دينياً ، بمعنى أنه خلا - أو كاد - من تفنيد الدين الإسلامي ، ومجادلة المسلمين ، فأبو سفيان بن الحارث يهجو شاعر الرسول حسان بن ثابت ، هجاء شخصياً خالصاً ، ليس فيه إلا الوصف باللؤم وسوء الخلق ، وأصالة هذا الخلق فيه وفي آبائه ، فيقول (٢) :

أبوك أبو سوءٍ وخالك مثله ولست بخيرٍ من أبيك وخالك
 وإنَّ أحقَّ الناس أن لا تلومه على اللؤم من ألقى أباه كذلكا

(١) السيرة ق ١٥٤/٢ . عرندسة : يريد كتيبة قوية شديدة ، الأبدان : الدروع .

اليلب : الترس .

(٢) طبقات ابن سلام ٢٥٠/١

وربما كان هجاء ضرار السابق من المعانى القليلة التى تحوم حول
الهجاء الدينى ؛ حيث وصف المسلمين بالغواية والإثم والضلال فى قوله :
..... نؤم بها الغواة الخاطئينا
أناس لا نرى فيهم رشيداً وقد قالوا : ألسنا راشدين

وفيما عدا هذه الإشارات الدينية القليلة ، فإن شعر قريش فى هجاء
النبي وصحبه كان جاهلياً ، أو على مثال الهجاء الجاهلى .

وينبغى أن نلاحظ أيضاً أن الرواية الأدبية لم تحفظ لنا من هذا الهجاء
- وبخاصة هجاء الرسول - شيئاً ذا بال ، مع أن المعقول أن يكون كم هذا
الشعر كبيراً ؛ لأن النبي جاء بدين انهارت أمامه كثير من المثل القديمة ،
والآراء التى عاش عليها العرب - لا سيما فى مكة زعيمة الوثنية .

والمعقول أيضاً أن يكون كم الشعر الذى هجا قريشاً دفاعاً عن
الرسول ودعوته وصحابته كبيراً أيضاً ، بيد أن أكثر ما قيل فى الهجاء من
الطرفين قد طواه الزمن فى زوايا النسيان ؛ لأنه كان مرغوباً فى تجاهله
وتناسيه ، من الدولة الإسلامية فى العهد الراشدى ، فقد انتهت مبررات
روايته بدخول المعسكر القرشى فى الإسلام ، ولم يعد يخدم الدعوة
الإسلامية ، بل غدا خطراً يهدد وحدة العرب المسلمين ؛ لأنه ينبش أحقاد
الماضى القريب ، ويثير الحزازات الماضية ، يضاف إلى هذا كله إغراض أكثر
الرواة المسلمين عن رواية الشعر الذى تعرض للرسول وأعراض المسلمين تأثماً .

ويلاحظ أننا لم نذكر من أسباب ضياع هذا الشعر الذى قيل فى
الصراع بين مكة والمدينة فى العهد النبوى ، تشاغل المسلمين عنه بالفتح ،
كما اعتاد الباحثون والدارسون أن يذكروا ، تأثراً بما ذكره ابن سلام تعليقاً على
قول عمر (١) : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » قال

(١) طبقات ابن سلام ٢٤/١ ، ٢٥

ابن سلام : فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته » ، نقول : لم نذكر هذا التشاغل في ضمن أسباب ضياع شعر هذا الصراع ؛ لأننا نرى أن الفتوح الإسلامية لم تشغل العرب لا عن هذا الشعر ، ولا عن غيره ، كما سنرى عند دراستنا لأثر هذه الفتوح في الشعر .

وابن هشام في السيرة مثل للرواة المسلمين الذين أهملوا - عن عمد - رواية الشعر الذي هجى به الرسول وصحبه ، فكثيراً ما نجده يضرب عن رواية بيت أو بيتين أو أبيات من أشعار القرشيين ومن والاهم ؛ لأن فيها هجاء فاحشاً للرسول ؛ أو لأنها تسب أعراض المسلمين ^(١) .

وكما نهض الشعر القرشي للتحريض على المسلمين ، والتشفي بقتلاهم ، والفخر بالفروسية القرشية ، وهجاء الرسول وصحبه ، نهض كذلك لثناء صرعى قريش في معاركهم ، من المسلمين ، وكان لمصرع العدد الكبير من فرسان قريش في بدر وغيرها أثره في كثرة الشعر الذي قيل في بكاء القتلى ، والحسرة عليهم ، والجزع على مصابهم ، وتعدد مآثرهم ، وجميل سجايهم وبطولتهم .

قال عبد الله بن الزبيري السهمي ، يكي قتلى بدر ، ويذكر رعوها منهم ، ويبين مصاب قريش فيها ^(٢) :

ماذا على بدري وماذا حوله . من فتية بيضي الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومُنِيَّها وابنِي ربيعة خير خصم فثام

(١) انظر السيرة ق ٢٠/٢ ، ٣٢ ، ٥٤ ، ٩٢ ومواضع أخرى متفرقة ، وكذا فعل ابن سلام فلم يرو شيئاً من شعر كعب بن الأشرف في التشبيب بنساء المسلمين انظر : طبقات ابن سلام ٢٨٢/١

(٢) السيرة ق ١٥/٢ . الفقام : جماعات من الناس . الأوصام : العيوب .

والحارث الفيّاض يرق وجهه كالبدّر جَلَى لَيْلَةَ الإِظْلَامِ
والعاصي بن مُنَبِّهٍ ذا مِرَّةٍ رُمَحاً تَمِيماً غَيْرَ ذِي أَوْصَامِ
تَنَمَّى بِهِ أَعْرَاقُهُ وَجَدُودُهُ وَمَا ثَرُ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
وَإِذَا بَكَى بِأَكِّ فَأَعْوَلَ شَجْوُهُ فَعَلَى الرَّئِيسِ الْمَاجِدِ بْنِ هِشَامِ
حَيَا إِلَهِهَ أَبَا الْوَلِيدِ وَرَهْطُهُ رَبِّ الْأَنَامِ وَخَصَّهِمْ بِسَلَامِ

ورثي الحارث بن هشام أخاه أبا جهل ، ولهف نفسه عليه ؛ لأنه
أمسى وحيداً في حفرة مهجورة قديمة ، كما يبكي فيه حسن رأيه ، وسداد
عقله ، وأنه بموته قد فقد المعين الذي كان يستمد من عزه عزراً ، ومن عزمه
عزماً ، ومن رجاحة عقله معيناً على الحياة ، فمصيبته فيه قد جلت ، فهو في
هم مقيم لفقده (١) :

أَلَا يَالْهَفَ نَفْسِي بَعْدَ عَمْرٍو وَهَلْ يُغْنِي التَّلَهَّفَ مِنْ قَتِيلِ
يُخَبِّرُنِي الْخَبْرُ أَنَّ عَمْرًا أَمَامَ الْقَوْمِ فِي جَفَرٍ مُحِيلِ
فَقَدْ مَا كُنْتُ أَحْسِبُ ذَاكَ حَقًّا وَأَنْتَ لَمَّا تَقَدَّمْ غَيْرَ فِيلِ
وَكُنْتُ بِنِعْمَةٍ مَا دُمْتُ حَيًّا فَقَدْ خُلِّفْتَ فِي دَرَجِ الْمَسِيلِ
كَأَنِّي حِينَ أُمْسَى لَا أَرَاهُ ضَعِيفُ الْعَقْدِ ذُو هَمٍّ طَوِيلِ
عَلَى عَمْرٍو إِذَا أُمْسِيَتْ يَوْمًا وَطَرَفٍ مِنْ تَذَكُّرِهِ كَلِيلِ

أما هند بنت عتبة فتندب أباها ملتاعة لفقده ، وتصور مصرعه
تصويراً يعكس ثورة حزنها ، وعظيم شجوها ولوعتها فتقول (٢) :

أَعَيْنِي جُوداً بِدَمْعٍ سَرَبَ عَلَى خَيْرِ خِنْدَفٍ لَمْ يَنْقَلَبْ
تَدَاعَى لَهُ رَهْطُهُ غُدُوَّةً بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمَطْلَبِ

(١) السيرة ق ٢٨/٢ . الجفر : البحر القديمة ليس عليها بناء . غير فيل : غير فاسد
الرأى . درج المسيل : يريد موطن الذل والقهر . العقد : هو هنا العزم والرأى .
(٢) السيرة ق ٣٧/٢ . جميل المرأة : تريد جميل الرأى بهي الطلعة .

يَذِيقُونَهُ حَدَّ أَسْيَافِهِمْ يَعلُونَهُ بَعْدَ مَا قَدْ عَطِبَ
يَجْرُونَهُ وَعَفِيرُ التَّرَابِ عَلَى وَجْهِهِ عَارِيًّا قَدْ سُلِبَ
وَكَانَ لَنَا جَبَلًا رَاسِيًّا جَمِيلَ الْمَرَاةِ كَثِيرَ الْعُشْبِ

وشعر هند في الرثاء عموماً يمتاز بحرارة العاطفة والتهابها ، فلقد عظمت مصيبتها في حروب مكة مع المسلمين ، ويكفى أن نذكر أنها فقدت في بدر وحدها ، أباه وعمها وأخاها وابنها ، ومع ذلك فهو قصير النفس ، لم يتجاوز المقطعات الصغيرة ، هذا فضلاً عن قلة ما وصل إلينا منه ، مع أنها كانت من أبرز شواعر قريش ، ويبدو أن هذا هو السر في تجاهل القدماء لفنها في الرثاء ، فلم يعد لها أحد منهم من أصحاب المراثي ، كالخنساء التي عاصرتها وقالت في موضوعها .

وفي يوم الخندق ، اقتحم عمرو بن عبد ود الخندق - وكان من فرسان قريش المعدودين - قائلاً : هل من مبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب وقتله ، فرثاه هبيرة بن أبي وهب الخزومي ، وبكى فيه إقدامه وفروسيته قائلاً (١) :

لَقَدْ عَلِمْتُ عُليَّ بْنَ لُؤَيٍّ بَنِ غَالِبٍ لِفَارِسُهَا عَمْرُو إِذَا نَابَ نَائِبُ
لِفَارِسُهَا عَمْرُو إِذَا مَا يَسُومُهُ عَلَيٌّ وَإِنْ اللَّيْثُ لَا يَدُ طَالِبُ
عَشِيَّةً يَدْعُوهُ عَلَيٌّ وَإِنَّهُ لِفَارِسُهَا إِذْ خَامَ عَنْهُ الْكَتَائِبُ
فِيَا لَهْفَ نَفْسِي إِنَّ عَمْرًا تَرَكْتَهُ يَبْثُرُ لَا زَالَتْ هُنَاكَ الْمَصَائِبُ

بعد هذه الجولة القصيرة مع شعر المشركين ، ومن ناصرهم في مكة والطائف ومستعمرات اليهود ، الذي كان يمثل المعارضة والخصومة للدين الإسلامي ، والمعسكر الذي يمثله في المدينة ، يمكن أن نلاحظ على هذا

(١) السيرة ق ٢٦٨/٢ . خام : جبن ورجع .

الشعر دورانه حول الأمور العامة في تهاجى الشعراء ، ووصف المعارك ، والتحدث عن نتائجها وراث الموقى ، والهجاء القبلى ، على نحو ما كان عليه نظيره فى الجاهلية .

من أجل هذا ضعفت النغمة الدينية فيه ، على الرغم من أنه شعر قيل فى صراع أساسه وباعثه الخلاف الدينى بين المعسكرين ، فقلما نجده يتعرض للدين الجديد بالنقد والتجريح ، والانتقاص والتفنيد ، أو يركز على هجاء الرسول عدو الشرك ، ومسفه آلهته ، وقد يكون للرواة المسلمين فى عصر التدوين دور فى إسقاط أكثر ما قيل فى هذه النواحي - كما قدمنا .

وشئ آخر يلفت النظر فى هذا الشعر ، هو أننا لا نجد فيه ما يرقى إلى شعر الفحول الجاهليين ، وإذا كان أمية بن أبى الصلت شاعر الطائف من الشعراء المجيدين البارزين ، فإن شعره فى هذا الصراع أقل جودة ، وأكثر ليونة ، وأدنى طبقة من شعره الآخر الذى اشتهر به ، فى الدين وذكر الآخرة ، والحكمة .

وقد نستطيع أن نعلل ضعف الشعر القرشى - بعامة - بما سبق أن أشرنا إليه ، من أن مكة لم تكن بيئة شعرية فى الجاهلية ؛ ولم ينبغ فيها شاعر واحد آنذاك ، وإنما تحركت شاعريتها فى ظل الإسلام ، وبفعل أحداث الصراع بينها وبين المدينة فى العهد النبوى ، فقدمها غير راسخة فى ميدان الشعر ؛ ولذا كثرت المقطعات فى الشعر القرشى ، وقلت القصائد ، التى يذهب بأكثرها شاعرا مكة المقدمان : عبد الله بن الزبيرى ، وضرار ابن الخطاب .

وجملة القول أن شعر المعسكر المكى المعادى للمعسكر المدنى فى عهد النبوة ، لم يكن أكثر من شعر مناسبة ، لم يتمرس فى الجاهلية بمثل هذا الصراع ، ولم يستمر بعد أن دخلت قريش وأتباعها فى الإسلام ، « أنه شعر

أظهرته الخصومة التي بدأت منذ البعثة ، وفي معركة بدر بخاصة ، وانتهت مهمته بفتح مكة ، والاعتذار لرسول الله ﷺ » (١) .

ويقابل هذا الشعر الذي يعبر عن الجانب القرشي في الصراع ، شعر آخر يعكس النشاط الشعري للمسلمين في المدينة ، خلال نزاعهم مع المشركين في مكة .

لقد شهر الشرك سلاح الشعر في وجه الرسول ودعوته كما رأينا ، فلم يكن للرسول بد من أن ينتصر لنفسه ودينه وأتباعه بالسلاح نفسه ، وكان ﷺ يعرف تأثير الشعر في ردع هذه الحملة المسعورة ، وأنه لا مندوحة من اصطناع الشعراء ليردوا كيد قريش وشعرائها إلى نحورهم .

وكان بدء ذلك أن جند حسان بن ثابت في سبيل الدعوة ، ووجه - مقدرته الفنية الهجائية لمناقضة الخصوم ، فقد جاءه حسان يوما وقال : يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، وأعانه على ذلك الحارث بن هشام ، وكفار قريش ، أتأذن لي أهجوهم ؟؟ فقال النبي : فكيف تصنع بي ؟ فقال : أسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين ، قال : اهجهم وروح القدس معك (٢) ، ثم أخذ يشجعه على هجاء شعراء قريش ، وهجاء قومهم ، من جنس كلامهم ، ونستطيع أن نفهم نوع هذا الهجاء من قوله عليه السلام لحسان : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم ، وأيامهم ، وأحسابهم ، ثم اهجهم » (٣) ، فماذا يكون هذا الهجاء الذي يستمد مادته من المثالب والوقائع ، والأحساب والأنساب ؟؟ وهل كان الهجاء الجاهلي إلا كذلك ؟؟

(١) شعر المخضرمين ٢٠٩

(٢) جمهرة أشعار العرب (القرشي) ١٤

(٣) الأغاني ٤/٤

هذه الرواية تفهم أن حسانا هو الذى استأذن الرسول فى الرد على شعراء قريش فأذن له الرسول ، وهناك رواية أخرى تفيد أن الرسول هو الذى طلب من حسان وغيره من شعراء الأنصار أن يتصدوا لأعداء الدعوة وأعدائهم .

يروى أبو الفرج الأصفهاني : أنه كان يهجو الرسول ﷺ ثلاثة رهط من قريش : عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعلى بن أبى طالب : اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال على : إن أذن لى الرسول فعلت ، فقال رجل : يارسول الله ائذن لعلى كى يهجو عنا القوم الذين هجونا ، قال : على ليس هناك ، ثم قال للأنصار : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها يارسول الله ، فكان يهجوهم من الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة (١) ، وكلهم من الخزرج .

وسواء أصبحت هذه الرواية أم تلك ، فمما لا شك فيه أن الرسول كان ملهما وموفقا فى اصطناع شعراء المدينة فى معركة الشعر ضد شعراء المشركين ؛ إذ كانت المدينة أشعر القرى العربية منذ الجاهلية ، كما يقول ابن سلام (٢) ، كما كان شعراؤها أرسخ قدما فى ميدان الشعر من شعراء مكة ، وما عليهم إلا أن يتحولوا عما كان بينهم وبين الأوس من مديح وفخر وهجاء فى سبيل السيادة والزعامة القبلية والمطالب المادية الدنيوية ، إلى مديح وفخر وهجاء بينهم وبين المشركين فى سبيل الدين الجديد ودولته .

(١) المرجع السابق ، وهؤلاء الثلاثة كانوا فى ضمن خمسة شعراء هم فحول شعراء المدينة فى الجاهلية وصدر الإسلام كما يذكر ابن سلام ، انظر الطبقات ٢١٥/١
(٢) انظر : الطبقات ٢١٥/١

يضاف إلى هذا أن شعر هؤلاء الشعراء - وكلهم من الأنصار - كان بمثابة موثيق وعهود متجددة متكررة ، يقطعها الأنصار على أنفسهم بالتزام نصره النبي ، والتضحية في سبيل حماية دعوته ، وإعلاء شأنها ، ودحر أعدائها .

غير أن الأمر لم يقف عند حد هؤلاء الشعراء من الأنصار ، بل انضم إليهم وآزرهم طائفة من شعراء البادية القريبة من المدينة كالأعشى بن زرارة ابن النباش التيمي ^(١) ، ومعبد الخزاعي ^(٢) ، وشداد بن عارض الجشمي ^(٣) وغيرهم ^(٤) .

وأسهم عدة من شواعر المدينة المسلمات في هذا الصراع ، منهن : صفية بنت عبد المطلب (عممة الرسول) ، ونعم بنت سعيد امرأة شماس بن عثمان ، وهند بنت أثاثة بن عبد المطلب (كانتا مع المسلمين يوم أحد) ، وميمونة بنت عبد الله البلوية ... وغيرهن من الشواعر ^(٥) .

على أية حال فقد انبرى شعراء المدينة ومن آزرهم ، يدبجون القريض في مدح الرسول ، والإشادة بدعوته ، وتمجيد أصحابه ، وهجاء أعداء الإسلام ، والرد عليهم ، وردعهم ، ورثاء الشهداء ، والترحم عليهم ، والتنويه بمنزلتهم عند الله ... إلى غير ذلك مما اقتضته ظروف الصراع العنيف بين المعسكرين الدينيين في مكة والمدينة .

(١) انظر : السيرة ق ١٦٦/٢

(٢) انظر المرجع السابق ق ١٠٢/٢ ، ٢١٠

(٣) المرجع نفسه ق ١٨٢/٢

(٤) كالحجاج بن علاط السلمى . انظر السيرة ق ١٥١/٢

(٥) السيرة ق ٥٢/٢ ، ١٦٧ ومواضع أخرى متفرقة ، وانظر أيضاً : الطبقات

الكبرى (ابن سعد) ٨ - ١٦٥ (طبعة ليدن ١٣٢٢ هـ) .

فها هو ذا حسان بن ثابت يعبر عن اعتزاز المسلمين بالنبي ، الذي جاءهم بالقرآن نورا هاديا ، يبين لهم الحلال من الحرام ، ويفخر بصحابة الرسول ، الذين أرسوا قواعد دينه ، وأعزوا نبي الله وكتابه ، كما يفخر بأن جبريل ينزل بالوحي بين ظهرائهم ؛ ليعين فرائض دين الله وأحكامه ؛ ولذا فهم خيار الخلق كلهم ، ونظامهم ، وقادتهم (١) :

الله أكرمنا بنصر نبيه	وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه	وأعزنا بالضرب والإقدام
يتناونا جبريل في أبياتنا	بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا التور فيها محكما	قسما لعمرك ليس كالأقسام
فنكون أول مستحل حلاله	ومحرم لله كل حرام
نحن الخيار من البرية كلها	ونظامها وزمام كل زمام

ثم يأخذ حسان في الفخر بقومه فخرا يذكرنا بالفخر الجاهلي ، من حيث تناوله لتقديم أيامهم ، وشرف أحسابهم ، وعظيم نكايتهم قديما في أعدائهم ، وبسط سلطانهم عليهم ، ولا ينسى حسان في كل ذلك أن يعتد بالتبابعة أجداده ، وأن يشهد أهل الأصنام والأزلام على مجد آبائه التليد ، فيقول :

سائل أبا كزب وسائل ثبعا	عنا وأهل العتر والأزلام
واسأل ذوى الأبواب عن سراتهم	يوم العهين فحاجر قرؤام
إنا لنمنع من أردنا منعه	ونجود بالمعروف للمعتام

إلى أن يقول :

فلئن فخرت بهم لمثل قديمهم فخر اللبيب به على الأقوام

(١) ديوانه ٣٨٩ (نشرة البرقوق - مطبعة السعادة بمصر بلا تاريخ) . القسم هنا :

وهذا الفخر الأخير يحكى فن الشعر الجاهلى ، ففيه ما فى الشعر الجاهلى ، من جزالة اللفظ وفخامته وميله إلى الخشونة ، وفيه أيضاً المعانى الجاهلية ، والجنوح إلى المبالغة فيها ، بينما يتخلص حسان فى مديحه وفخره الإسلامى من هذا الطابع الجاهلى ، فيتجافى عن جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية ، ويتعدى عن الغريب الحوشى ، وعن الغلو والإفراط والزخرف ، وما إلى ذلك من كل ما هو بنسبيل من الكذب ، الذى عناه نقدة الشعر القدماء حين ذهبوا إلى أن الشعر يحسن بالكذب (١) .

— ومن هنا وصف القدماء شعر حسان فى الإسلام باللين ، وفضلوا شعره الجاهلى عليه ، قال الأصمعى : « الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، وهذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره » (٢) .

وما أنصف هؤلاء النقاد حسانا ، بل ما أنصف حسان نفسه حين أجاب من قال له يوماً : لان شعرك — أو هرم شعرك فى الإسلام — « فقال : يا ابن أخى إن الإسلام يحجب عن الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب » (٣) ، ذلك أن حسانا كان يعتقد ، كما اعتقد سائله ، أن الشعر يوجد أو يسقط بمقدار قربه من أساليب الشعر الجاهلى ، أو بعده عنها . ونحن نرى أن حسانا شاعر مطبوع فى شعره الإسلامى ، كما كان مطبوعاً فى شعره الجاهلى ، غاية الأمر أنه تأثر بالأسلوب القرآنى الناصع البيان ، المطرد السياق ، الواضح الطريقة ، السهل الممتنع ، كما تأثر ببشاشة

(١) انظر : العملة ٦/١

(٢) الشعر والشعراء (طبعة ليدن) ١٧٠ وانظر : الموشح للمرزيانى ٦٤ ، ٦٥

(طبعة السلفية — القاهرة ١٩٢٩ م) .

(٣) الاستيعاب (ابن عبد البر) ٣٤٦/١ (طبعة البجاوى) .

الإسلام ، فلان جانبه ، ورقت حاشيته ، وسلست ملكته الفنية ، فاتهج في شعره الإسلامي الأسلوب الذي أشرنا إليه ، وهو الأسلوب الذي يسميه الأصمعي وغير الأصمعي لناً وضعفاً ، وما هو في النظرة المنصفة كذلك ، وإنما يعجب الأصمعي وغيره غرابة الألفاظ ، وضخامة الأسلوب ، والمبالغة في المعاني ، ويرون هذا - دون غيره - مقياس الجودة في الشعر .

على هذا النحو سار شعر حسان في مدح الرسول ﷺ ، مدحاً يبرز فيه النفس الإسلامي ، ولغة الدين ، فليس من معاني الجاهلية ، ولا من لغتها قوله في الأبيات السابقة : (أعز نبيه وكتابه) وقوله : (يتابنا جبريل في أبياتنا بفرائض الإسلام ...) وقوله : (يتلو علينا النور) . إلخ .

ويبدو هذا التأثير الإسلامي ، والتأثر بالقرآن ، في قوله أيضاً بمدح الرسول ﷺ (١) :

أغرَّ عليه للنبوَّة خاتمٌ	من الله مشهود يلوح ويُشهد
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمه	إذ قال في الخمس المؤذنُ أشهد
وشقَّ له من اسمه ليُجلَّه	فدو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ
نبيُّ أتانا بعد يأس وفترة	من الرُّسل والأوثان في الأرض تُعبدُ
فأمسي سراجاً مستنيراً وهادياً	يلوح كما لاح الصقيلُ المُهَنَّدُ
وأنذرنا ناراً وبشرَ جنةً	وعلمنا الإسلامَ فاللهُ نحمدُ

ثم يقول مُبتهلاً إلى الله :

وأنت إله الخلق ربى وخالقى	بذلك ما عمرتُ في الناس أشهدُ
تعاليت رب الناس عن قول من دعا	سواك إلهاً أنت أعلى وأجْدُ
لك الخلق والنعماء والأمر كله	فإياك نَسْتَهْدِي وإياك نعبُدُ

فأى لين أو ضعف فى هذا الشعر ، اللهم إلا أن يعد البعد عن
الخشونة فى الأداء ، والسمو فى المعانى ضعفاً ولينا !!

وكيف يوصف بالضعف واللين شعر يحتاج من ألفاظ القرآن
ومعانيه ، (نبي أتانا بعد يأس وفترة - وأنذرنا ناراً وبشر جنة - فإياك
نستهدى وإياك نعبد) ؟!

أما كعب بن مالك فإنه يمدح الرسول ﷺ بأنه مؤيد من قبل الله
تعالى بالمعجزات ، فيشير إلى معجزة المعراج ، وتسييح الحصى فى كفه
ﷺ (١) :

فإن يك موسى كلم الله جهرَةً على جبل الطور المُنيف المُعظَّم
فقد كلم الله النبيَّ محمداً على الموضع الأعلى الرفيع المُسَوَّم
وإن تك تملُّ البرَّ بالوهمِ كلمت سليمانَ ذا المُلك الذى ليس بالعمى
فهذا نبيُّ الله أحمد سبحت صغارُ الحصى فى كفه بالترُّم
ففى البيت الأول والثالث ثقافة قرآنية ، تستمد من آيات القرآن (٢) .

ويمدح عبد الله بن رواحة الرسول ﷺ بأنه صاحب الشفاعة يوم
القيامة ، وأن من يحرم شفاعته تسوء عاقبته ، ويدعو لدينه بالنصر والتأييد ،
فيقول (٣) :

أنت النبي ومن يُحرَم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القَدْرُ
فثَبَّتَ اللهُ ما أعطاك من حَسَنِ تثبيت موسى ونصراً كالذى نُصروا

(١) ديوانه ٢٧٠ (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٦ م) .

(٢) انظر : سورة النساء : ١٦٤ وسورة النمل ١٨

(٣) الأغاني ٢٨/١٥ والعمدة ١٤٠/١ وطبقات ابن سلام ٢٦٦/١ ، وأيضاً :

الاستيعاب ٩٠/١ (طبعة البجاوى) .

وقد أثنى النبي ﷺ على عبد الله بن رواحة لما سمع منه هذا الشعر ، وقال له : « وإياك فثبت الله يا ابن رواحة » .

ومدائح الرسول في شعر شعرائه بعامة ، تغلب عليها هذه النزعة الدينية ، وتعمرها روح إسلامية ، ويشيع فيها التأثير بالقرآن الكريم ، وهذا طبعى ، لدورانها حول صاحب الدعوة ، وتناولها لمكانته وفضله في الهداية ، وإشادتها بفضائله وأخلاقه التى هى من خلق القرآن .

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان الدفاع عن الدعوة وصاحبها وصحبته ، وردع الأعداء عن النيل منها ومنهم ، وجدنا الشعر الإسلامى بالمدينة يضرب بسنهم وافر فى هذا المجال .

فقد أخذ شعراء الرسول يحددون أسنة الشعر ، ويقذفون بها مشركى مكة وشعراءهم ، وقد اشتهر حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، بأنهما كانا يهجون المشركين بالوقائع والأيام ، ويعيرانهم بالمثالب ، كما اشتهر عبد الله بن رواحة بتعييرهم بالكفر ، فكان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهونه قول ابن رواحة ، فما كانوا يبالونه ؛ إذ كان ذكراً لما هم عليهم ، وراضون به ^(١) ، فلما استمع الرسول إلى هجاء حسان كفار قريش ، قال : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » ^(٢) .

من ذلك قول حسان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان قد هجا الرسول - كما مر - فاستأذنه حسان فى هجائه ، فأذن له فقال ^(٣) :

(١) تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ٨٠

(٢) الأغاني ٦/٤

(٣) ديوانه ١٥٩ ، وانظر : جمهرة أشعار العرب (القرشى) ١٤ . ابن هاشم =

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم هو العُصْن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
ومالك فيهم مختد يعرفونه فذونك فالصق مثل ما لصق القرد
وإن سنّام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم والذك العبد
وما ولدت أفناء زهرة منكم كريماً ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن هجين ليس يُورى له زند
وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد
وإن امرأ كانت سمية أمه وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهد

وهذا هجاء بالنسب ، لا يعف عن ذكر الآباء والأمهات ، فيعير
بالمثالب ، تعبيراً كانت تغده العرب من الهجاء الفاحش ؛ ولذا لما بلغ هذا
الهجاء أبا سفيان عرف أن أبا بكر هو الذي دل حسان على هذه المثالب ،
فقال : « هذا شعر لم يغب عنه ابن أبي قحافة » (١) .

وقال يهجو أبا سفيان بن الحارث أيضاً ، هجاء مرا ، ذكره فيه
باسمه ، وأشار إلى تعرضه بالهجاء للرسول (٢) :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإمام
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

= يعنى الرسول . الواحد الوغد : يعنى أبا سفيان . القرد : القراد . بنت مخزوم : هى فاطمة
بنت عمرو المخزومية أم أبى طالب وعبد الله (والد الرسول) والزيير بنى عبد المطلب ، فهى أم
الرسول بذلك ولم يقرب عجائزك المجد : أى لم يقرب المجد أمهاتك . الزنيم : المستلحق فى قوم
وليس منهم . سمية : أم أبى سفيان وهى أم ولد ، وسمراء : هى أم أبيه وهى أم ولد أيضاً .

(١) انظر : ديوان حسان ١٦١

(٢) ديوان حسان ٧ ، وسمط اللآلى ٣٥٣/١ روى أن حساناً لما أنشد الرسول هذا
الشعر قال له لما أنشد البيت الثالث : جزاؤك على الله الجنة وقال لما أنشد الرابع : وقاك الله حر
النار فأما الخامس فهو أنصف بيت قالته العرب [سمط اللآلى] .

فَإِنَّ أُمِّي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
اتَّهَجُّوه وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ فَشُرُّكَ لَخَيْرِكَ الْفِدَاءُ
هَجَوْتُ مَبَارَكاً بَرّاً حَنِيفاً أَمِينَ اللَّهُ شَيْعَتُهُ الْوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ !؟

ويختلف هذا الهجاء عن سابقه بكثرة العناصر الإسلامية فيه ، ومرد ذلك إلى أن حسنا مزج بين هجاء أمي سفيان ومدح الرسول في هذا ، وهذه الأبيات كان لها أبعد الأثر ، وأحسن الذكر عند المسلمين (١) .

ولحسن شعر يهجو قبائل قريش التي كانت تناصب الرسول العداء ، يتحدث فيه عن القبائل ومثالبها ، ويذكرها بأسمائها ، فيقول (٢) :

فَلَا وَاللَّهِ مَا تُدْرِي مَعِيصٌ أَسْهَلُ بَطْنِ مَكَّةَ أَمْ يَفَاعُ
وَكُلُّ مُحَارِبٍ وَبَنِي نَزَارٍ تَبِينُ فِي مَشَاغِرِ الرُّضَاعِ
وَمَا جَمَعَ وَلَوْ ذُكِرَتْ بِشْيَاءُ وَلَا تَيْمٌ فَذَلِكُمُ الرِّعَاعُ
لَأَنَّ اللَّوْمَ فِيهِمْ مُسْتَبِينٌ إِذَا كَانَ الْوَقَائِعُ وَالْمِصَاعُ
وَمُخْزَوْمٌ هُمْ وَعَدَى كَعْبٍ لِقَامُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ دِفَاعُ

فهو هنا يهجو هذه القبائل بأنها لا شرف لها ولا خطر ، سفلة رِعَاع ، لا يثبتون في القتال ؛ ومن ثم كان إعراضهم عن الإسلام ، ورأيهم

(١) انظر : شعر المخضرمين ٦٩

(٢) ديوانه : ٢٦٦ . معيص بن عامر بن لؤي من قريش الظاهر ، وكان قد ولد حسلا ومعيصا ، فنزل بنو حسل مكة ، وصاروا من قريش البطاح ، ونزل بنو معيص خارج مكة وصاروا من قريش الظواهر ، وقريش البطاح أكرم وأشرف . محارب : قبيلة من فهر من قريش الظواهر . تبين في مشاغره الرضاع : أي صعاليك سفلة يرضعون الشياه ، وأثر الرضاع ظاهر على شفاههم ، التي يشبهها الشاعر بمشافر الإبل ، سخرية بهم . الرعاع : غوغاء الناس وسفلتهم . المصاع : القتال .

في النبي ودعوته وأصحابه لا قيمة له ولا وزن ، وهو هجاء بالمثالب ، ونظيره كثير في الهجاء الجاهلي .

أما هجاء حسان هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان بن حرب - يوم أحد ، فهو أشد من الهجاء الجاهلي إقذاً وفحشاً ، يقول حسان (١) .
أَشْرَتْ لَكَاعَ وَكَانَ عَادَتَهَا لَوْمٌ إِذَا أَشْرَتْ مَعَ الْكُفْرِ
لَعَنَ الْإِلَهِ وَزَوْجَهَا مَعَهَا هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبُظْرِ
أَخْرَجَتْ مُرْقَصَةً إِلَى أَحَدٍ فِي الْقَوْمِ مُعْنَقَةً عَلَى بَكْرٍ !؟

وبعد أبيات من الفحش الذي لا يروى ، يقول :
أَقْبَلْتِ زَائِرَةً مُبَادِرَةً بِأَيْكَ وَابْنِكَ يَوْمَ ذِي بَدْرِ
وَبِعَمِكَ الْمُسْلُوبِ بَزَّتَهُ وَأَخِيكَ مِنْعَفَرِينَ فِي الْجَفْرِ
وَنَسِيتِ فَاخْشَةَ أَتَيْتِ بِهَا يَا هِنْدُ وَيُحْكُ سُبَّةَ الدَّهْرِ
زَعَمَ الْوَلَاءُ أَنَّهَا وَلَدَتْ وَلِداً صَغِيراً كَانَ مِنَ الْعُهْرِ

فلو لم يكن في هذا الهجاء إلا القذف بالزنا والفجور لكفاه إقذاً وفحشاً ، وما هو بعد ذلك إلا سباب خالص ، وادعاء باطل ، فهند التي يقول عنها حسان هذا الذي قال ، هي التي قالت للرسول ، لما سمعته ينهى النساء عن الزنا : أو تزنى الحرة يا رسول الله !!

ومن قول كعب بن مالك في هجاء عبد الله بن الزبيري ، رداً على هجائه الرسول (٢) :

(١) ديوانه ٢٢٩ . الأشر : أشد البطر . اللثيمة الدنيئة . العهر : الزنا والفجور .

(٢) ديوانه ٢٢٧ وانظر : السيرة ١٦١/٢ . الهجين : من كانت أمه أمة وأبوه عربياً ، وذلك مما يعاب به عند العرب . المنديات : المخزيات . تبجست : نطقت فأكثر ، كما ينبجس الماء إذا انفجر . الجلف : الجافي الغليظ الطبع .

سألت بك ابن الزبعرى فلم أنبأك في القوم إلا هجينا
 خبيثاً تُطيف بك المُنديات مُقيماً على اللُوم حِيناً فحيناً
 تبجّست تهجو رسول الملىد لك قاتلك الله جلفاً لعينا
 تقول الحنا ثم ترمى به نقي الثياب تقياً أميناً

وليس في هذا الشعر إلا الهجاء بالضعفة ، والخبث ، وفساد الخلق ،
 واللؤم والسفاهة ، ولولا ما فيه من ذكر الرسول وصفته ، لما خالف الهجاء
 الجاهلي في شيء .

وقال عبد الله بن الحارث ^(١) يهجو قريشاً لاضطهادها الرسول
 ودعوته ، ويتهددها ^(٢) :

وتلك قريشٌ تجحد الله حقه كما جحدت عادٌ ومَدين والحجرُ
 فإن أنا أبرق فلا يسعنني من الأرض برّ ذو فضاء ولا بحرُ
 بأرض بها عبد الإله محمدُ أئين ما في النفس إن بلغ النقر
 وفي البيت الأول من التأثر بقصص القرآن ما لا يخفى .

ويسلك معبد الخزاعي مسلكا آخر في خدمة الدعوة الإسلامية ،
 ونصرتها ، حيث راح يُخذل أبا سفيان بن حرب عن الرجوع لقتال المسلمين
 وأهل المدينة ، بعد بدر ، ويصف خيل المسلمين الكثيرة ، وفرسانهم
 الصناديد ، الذين جمعهم الرسول غداة بدر لطلب العدو ، ويهول في ذلك
 ليقدف الرعب في قلوب المشركين ، ويثنيهم عن قتال المسلمين ^(٣) :

(١) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمي . انظر : السيرة ق ٣٣٠/١

(٢) السيرة ق ٣٣١/١

(٣) المرجع نفسه ق ١٠٣/٢ . الجرد : الخيل العتاق . الأبايل : الجماعات . تردى :
 تسرع . التنابله : القصار . ميل : جميع أميل ، وهو من لا رمح له . معازيل : يتجنبون الحرب .
 تغطمطت : اهتزت . الجليل : الصنف من الناس . الوخش : سفلة الناس . القيل : القول .

كادت تُهْد من الأصوات راحلتى
تردى بأسدٍ كرامٍ لا تنابله
فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً
فَقُلْتُ: وَيْلُ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ
من جيش أحمد لا ونحشٍ تنابله
وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقِيلِ

ولما توجه الرسول ﷺ لفتح الطائف ، أخذ شداد بن عارض
الجشمى ، يخوف أهل الطائف من لقاء الرسول ، ويهددهم ، ويثبت في
روعهم أنهم لا قبل لهم بحرب المسلمين ، ويدعوهم إلى الإيمان ونبذ الشرك
والوثنية ، فقال (١) :

لا تنصروا اللات إن الله مُهْلِكُهَا
إن التي حُرِّقَتْ بالنار فاشتعلت
إن الرسول متى ينزل بساحتكم
وكيف نصرُكُمْ مَنْ لَيْسَ يَنْتَصِرُ
ولم يُقَاتِلْ لَدَى أَحْجَارِهَا هَدْرُ
يَظْعَنُ وَلَيْسَ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا بَشْرُ

ولحسان بن ثابت قصيدة طويلة في يوم فتح مكة ، بدأها بتذكر أيامه
الأولى عند الغساسنة بالشام ، وما كان له من هو وشراب ؛ على مثل
ما كانت عليه المطالع الجاهلية ، والجزء الإسلامى من القصيدة هو الذى
سما بحسان سموًا لم يلحقه شاعر إسلامى آخر ، ومنها قوله (٢) :

عِدْمَنَا خَيْلَنَا أَنْ لَمْ تَرَوْهَا
يُنَازَعْنَ الْأَعْنَةَ مُصْنَعِيَاتِ
تُثِيرُ النِّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
عَلَى أَكْتَانِهَا الْأَسْلُ الطَّمَاءِ

ويتهدد قريشاً إن وقفوا في وجه الرسول وجيشه ، قائلاً :
فَإِذَا تُعْرَضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا
وَأَلَّا فَاصْبِرُوا لَجَلَادٍ يَوْمٍ
وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ
يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ يَشَاءُ

(١) الأصنام (ابن الكلبي) ١٧ ، والسيرة ق ٤٨١/٢

(٢) ديوانه ٤ وما بعدها ، وانظر السيرة ق ٤٢٢/٢

ثم يخاطب المشركين بلسان الدين :

وجبريلُ رسولُ الله فينا وروح القدس ليس له كِفَاءُ
وقال الله قد أرسلتُ عبداً يقول الحقَّ إنْ نفع البلاءُ
شهدت به فقوموا صدقوه فقلْتُمْ لا نقومُ ولا نشاءُ
وقال الله قد سيرتُ جنداً هم الأنصارُ عرضتها للقاء

والنفس الإسلامي هنا واضح متميز ، فهو يعبر عما يجيش في صدور المسلمين من إيمان بالله ، وتصديق برسوله ، واستعداد عظيم للجهاد في سبيل دينه .

ولما أخذ هيرة بن أبي وهب المخزومي بمجد انتصار قريش يوم أحد ، ويفاخر بفرسانها ويعير المسلمين بما أصابهم ، انبرى له كعب بن مالك يرد عليه ، ويشيد بصبر المسلمين عند اللقاء ، ويذكر المشركين بهزيمتهم المنكرة يوم بدر ، وبما أصاب المسلمون من فرسانهم ورؤسائهم ، ثم يعتذر عن المسلمين يوم أحد ، بأن ما حدث هو قضاء الله وقدره وابتلاؤه لعباده المؤمنين ، والقصيدة طويلة ، نختزى منها بقوله (١) :

فلو غيرنا كانت جميعاً تكيده الـ هيرة قد أعطوا يداً وتورعوا
نجالد لا تَبْقَى علينا قبيلةً من الناس إلا أن يهابوا ويفزعوا
وفينا رسولُ الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الرُّوحُ من عند ربِّه ينزل من جوِّ السماء ويُرفع
وقال رسولُ الله لما بدؤا لنا إذا ما انتهى أنا نطيعُ ونسمعُ
وقال رسولُ الله لما بدؤا لنا ذروا عنكم هولَ المنياتِ واطمعو
وكونوا كمن يَشْرِي الحياة تقرباً إلى ملك يحيا لديه ويُرجعُ
ولكنْ خذوا أسياقكم وتوكلوا على الله إن الأمرَ لله أجمعُ

(١) ديوانه ٢٢٢ وما بعدها ، والسيرة ق ١٣٢/٢

يحدد كعب في هذه الآيات ويوضح آداب المسلمين مع رسول الله ، فهم يسارعون إلى طاعته ، ويبيعون أنفسهم رخيصة لوجه الله ، غير مبالين بهول المنيات ، طامعين في رضوان الله وجناته ، والأمر من قبل ومن بعد الله جميعاً ، فأما إذا دارت الحرب ، واشتد أوارها ، وقدر الله أمراً ، فلا راد لقضاء الله وأمره .

وله شعر آخر يوم بدر ، يصدر عن هذه الروح الإسلامية ، منه قوله (١) :

لعمري أياكم يا بني لؤي	على زهو لديكم وانتحاء
لما حامت فوارسكم ببدر	ولا صبروا به عند اللقاء
وردناه بنور الله يجلو	دجى الظلماء عنا والغطاء
رسول الله يقْدُمنَا بأمر	من أمر الله أحكم بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببدر	وما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب	جياذ الخيل تطلع من كداء
بنصر الله روح القدس فيها	وميكال فياطيب الملاء

فالمعاني والألفاظ يغلب عليها التأثير بالإسلام ، في الفخر برسول الله والانتصار بالملائكة ، أما ما فيها من هجاء وتهديد ، فهو يدور حول وقعة حربية ، وكذا كانا في الجاهلية .

ولما قتل عمرو بن ودّ فارس قريش يوم الخندق على يد علي بن أبي طالب قال حسان بن ثابت يفخر بقتله ، ويذكر المشركين بمصائبهم في بدر (٢) :

(١) ديوانه ١٦٩ ، والسيرة ق ٢٥/٢ . انتحاء : إعجاب وكبر . حامت : امتنعت . كداء : موضع بمكة . الملاء : أشرف الناس .

(٢) السيرة ق ٢٦٨/٢ ، وليست في ديوانه .

بقيتكم عمرو أبخناه للقنا يثرب تحمى والحماة قليل
ونحن قتلناكم بكل مهتد ونحن ولأه الحرب حين نصول
ونحن قتلناكم بيدٍ قأصبحث معاشركم في الهالكين تجول

فهذا الفخر لو لم يرد فيه ذكر (بدر) لظنناه فخراً لشاعر جاهلي
بوقائع جاهلية ، ولحسان أيضاً في بنى قريظة ، لما نقضوا عهد الرسول ،
فحاصروهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، يذكر ما حل بهم من ذل
وهوان ، جزاء وفاقاً لخيانتهم وغدرهم ^(١) :

لقد لقيت قريظة ما عطاها وحلّ بحصنها ذلّ ذليل
وسعدّ كان أنذرهم نصيحاً بأنّ إلههم ربّ جليل
فما برحوا بنقض العهد حتى غزاهم في ديارهم الرسول
أحاط بحصنهم منا صفوفٌ له من حرّ وقعتها صليل
فصار المؤمنون بدار خلدٍ أقام لها بها ظلّ ظليل

وهكذا واكب الشعر الإسلامي هذه الأحداث الإسلامية ، يضمّن نار
الحماس في الصدور ، ويرد على مزاعم المشركين ويفندها ، ويسجل الوقائع
ويمضي معها جزءاً منها ، وسلاحاً من أسلحتها ، ونعمة الفخر عالية في هذا
الشعر ، فقد افتخر الشعراء - كما رأينا - بقوة المسلمين ، وإيمانهم ،
وجهادهم في سبيل الله ، واعتصامهم بالدين الحنيف ، كما افتخروا بأنفسهم
وقومهم وبطون من قبائلهم ، ففخر شعراء المسلمين يمثل جانبين : جانب
ديني يعتز بالإسلام وبرسول الله وجنوده ، وفيه يظهر التأثير بالإسلام والقرآن
واضحاً ، وجانب شخصي ذاتي يفخر بالنفس والمال والعشيرة ، وهذا اللون
من الفخر جاهلي شكلاً ومضموناً .

(١) ديوانه ٣٣٢ . عطاها : ساءها .

ولم يتخلف فن الرثاء ، أو يغيب عن الصراع ، فالمعارك بين المسلمين والمشركين كثيرة عنيفة ، والفرسان بين الفريقين ، يتساقطون في كل معركة ، وقد رأينا كيف نهض شعر المعسكر القرشي برثاء قتلاه ، وهنا نرى كيف أدى شعر المسلمين رسالته في بكاء شهداء المسلمين ، وتصوير هول المصاب بفقدهم ، وذكر بطولاتهم ، وإن اختلف شعر المسلمين في الرثاء عن الرثاء القرشي بأن الشعراء كانوا يمزجون فيه رثاء القتل بذكر ما أعد لهم من ثواب الآخرة ، والتنعيم بجنات الخلد ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، كما يمتاز هذا الرثاء بحرارة الإيمان ؛ لأنه صادر عن اعتقاده أن الشهادة في سبيل الله أسمى غاية ، يسعى إليها المسلم ، فالروح المعنوية لدى المسلمين قوية ظاهرة في رثائهم ، بينما لم تتح هذه الناحية للمشركين ، فأظهروا الجزع على قتلاهم ؛ إذ لم يجدوا مبرراً قوياً مقنعاً لقتل أصحابهم ، ولم يكن أمامهم الهدف السامي البعيد ، الذي ترتبط إليه نفوسهم .

وأول ما نقدمه من شعر المسلمين في الرثاء ، ما قيل في استشهاد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ، فقد كان لحمزة النصيب الأوفى من ذلك الرثاء .

فحينما سقط أسد الله وأسد رسوله حمزة شهيداً في غزوة أحد ، تبارى شعراء المسلمين في رثائه ، وتعداد مناقبه العظمى .

فقال عبد الله بن رواحة - أو كعب بن مالك ^(١) - يبكي حمزة ، ويذكر أن قتله رزية للرسول وللمسلمين جميعاً ، وأنه آل إلى جنة لا يفنى نعيمها ، ثم يعزى الهاشميين فيه ، ويدعو لهم بالصبر الجميل على هذا المصاب الفادح ، ولهم في صبر رسول الله قدوة حسنة ، ثم يلتفت إلى هند بنت عتبة التي شمت بحمزة ، ويذكرها بمقتل آله في بدر ، فشمتها إذ عز ذليل :

(١) انظر : ديوان كعب ٢٥٢ ؛ والسيرة ١٦٢/٢

بكت عيني وحق لها بُكاها
على أسد الإله غداة قالوا
أصيب المسلمون به جميعا
أبا يعلى لك الأركان هُدت
عليك سلام ربك في جنان
أيا هاشم الأخيار صبرا
رسول الله مُصطبر كريم
وما يُغني البكاء ولا العويل
أحمزة ذاكم الرجل القليل
هناك وقد أصيب به الرسول
وأنت الماجد البر الوصول
مخالطها نعيم لا يزول
فكل فعالكم حسن جميل
بأمر الله ينطق إذ يقول

وبعد أن يذكر هند بنت عتبة بمقتل أبيها وعمها وأخيها وابنها في بدر ،
يخاطبها بقوله :

ألا يا هند فابكي لا تملّي
ألا يا هند لا تُبدي شماتا
فأنت الواله العبرى الهبول
بحمزة إن عزمك دليل

كما رثته أخته صفية ، رثاء إسلامياً ، فقالت (١) :
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة
فذلك ما كنا نرجي وترجي
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
على أسد الله الذي كان مدرهاً
أقول وقد أعلى النعي عشيري
إلى جنة يحيا بها وسرور
لحمزة يوم الحشر خير مصير
بكاء وحزنا محضري ومسيري
يذود عن الإسلام كل كفور
جزى الله خيراً من أخ ونصير

فهذا رثاء حزين متفجع ، ولكنه على ذلك صابر محتسب ، ويمتاز
رثاء صفية بصدق الإيمان ، والتأثر بالقرآن ، ويتضح ذلك في قولها :
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة
إلى جنة يحيا بها وسرور
وقولها :

يذود عن الإسلام كل كفور

على أن الرثاء في شعر المسلمين ، لم يكن دائماً مصبوغاً بهذه الصبغة الإسلامية ، فقد نجده أحياناً لا يكاد يختلف عن الرثاء الجاهلي الذي يبكي في القتل شجاعته ، ونكايته في العدو ، وواسع كرمه ، وحسن رأيه .
ومن ذلك رثاء نعم بنت سعيد زوج شماس بن عثمان ، فقد قالت تبكي زوجها لما استشهد يوم أحد (١) :

يا عينُ جودى بدمع غير إبساس على كريم من الفتيان أباس
صعب البديهة ميمون نقيته جمال ألوية ركاب أفراس
أقول لما أتى الناعي له جزعاً أودى الجواد وأودى المطعم الكاسي
وقلت لما خلث منه مجالسه لا يُبعد الله عنا قرب شماس

فرثاء نعم هذا رثاء جاهلي غير محتسب ، أو هو رثاء والهة أذهلتها المصيبة في زوجها عن كل تعزية فيه ، غير أن أخاها أبا الحكم بن سعيد تدارك ما فرط منها ، فعزاها عزاء إسلامياً ، يذكرها فيه بالصبر واحتساب الأجر عند الله ؛ لأنه أودى في طاعته ، وجهاداً في سبيله ، وما زوجها إلا مسلم استشهد كغيره من المسلمين ، وليكن لها في استشهاد حمزة ليث الله عزاء وتسلية :

أقنئ حياءك في ستر وفي كرم فإنما كان شماس من الناس
لا تقتلي النفس أن حانت منيته في طاعة الله يوم الرّوع والباس
قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى فذاق يومئذ من كأس شماس

ولما سقط زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، في مؤتة ، رثاهم كعب بن مالك ، بقصيدة شجية ، صادقة

(١) السيرة ق ١٦٨/٢ . غير إبساس : تريد بلا تكلف . الأباس : الشديد الذي

يغلب غيره .

الحزن ، يقول فيها (١) :

نام العيون ودمع عينك يَهمل سحاً كما وكف الطَّبَابِ المَخْضِلِ
في ليلة وردت على همومها طوراً أحنُّ وتارةً أتمَلِّمُ
واعتادني حزنٌ فبت كأنني بينات نَعشِ والسَّماكِ موَكَّلِ
وكأنما بين الجوانح والحشَى مما تأوَّني شهابٌ مدخلِ
وجداً على النفر الذين تتابعوا يوما بمؤتة أسندوا لم يُنقلوا
صلى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمامُ المُسَبِّلِ
صبروا بمؤته للإله نفوسهم حذر الردى وخافة أن ينكلوا

يتضح من هذا الشعر الذى قدمناه لشعراء المسلمين فى الأغراض السابقة أنه يجمع بين معان جاهلية وأخرى إسلامية ، كما أن الألفاظ الإسلامية بارزة فيه - إلى حد ما - وبعضها مستمد من القرآن الكريم ، مثل (روح القدس - ميكال - أمر الله - نور الله - طاعة الله - إياك نعبد - يوم الحساب - نصر الله - دار الخلد) وغير ذلك كثير فيما مر بنا من نماذج .

وكذلك بعض المعانى مستمد من القرآن ، مثل (فإن يك موسى كلم الله) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ (٢) وأيضاً ، (وإن تك نمل البر بالوهم كلمت) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ فتبسم ضاحكاً من قولها .. (٣)

(١) ديوانه ٢٦٠ ، والسيرة ق ٣٨٥/٢ . وكف : قطر . الطباب : سير بين خرزتين فى القربة فإذا كان غير محكم وكف منه الماء .

(٢) سورة النساء : ١٦٤

(٣) سورة النمل : ١٨ ، ١٩

ولا شك أن التأثر بالإسلام في أشعار هؤلاء الصحابة مرده تأثر هؤلاء الشعراء بصحبة الرسول ، والقرب منه ، ومشاهدة أحواله ، إلى جانب أنهم كانوا بمنزل الوحي ، يتلون آيات الله المنزلة صباح ومساء .

ومع ذلك فإن هؤلاء الشعراء بعامة ، لم يوفقوا التوفيق كله في استيعاب المثل والمعاني الدينية وعرضها في شعرهم ، وإن استطاعوا أن يرددوا بعضاً من معاني الآيات القرآنية ، ويحاجوا المشركين ، ويباهوهم بفضل الدين ، وهدى رسول الله ﷺ .

ولعل السبب في تقصير الشعراء المسلمين - في هذه الفترة المبكرة من الإسلام - في تمثيل المعنى الديني بشكل واضح غلاب ، أنهم كانوا آنذاك موزعين بين عاملين كل منهما يجتذب مواهبهم الفنية ، ويحاول صبغها بصبغته ، فالعامل الموروث يجذبهم إلى التعبير عن الحاجات الجاهلية ، التي نشأوا عليها ، وألفوها واستجابوا لها فترة طويلة من حياتهم ، حتى صارت جزءاً من تكوينهم الفكري والخلقي والفني ، والعامل المحدث يجذبهم إلى حاجات الإسلام الجديدة ، التي غدت هي الأخرى جزءاً من حياتهم الجديدة ، وضرورة تملئها عليهم تعاليم الإسلام .

ولم يكن لهؤلاء الشعراء المخضرمين بد من أن يحاولوا التوفيق بين هاتين الحاجتين ؛ لأنهم لن يستطيعوا أن ينزعوا عنهم موروثات الجاهلية القريبة وآثارها ، حتى لو أرادوا ، ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا التذبذب بين القديم والحديث في شعر حسان وغير حسان من شعراء هذه الفترة ، فالرواسب الجاهلية في شاعريتهم ، تعيش جنباً إلى جنب مع النزعات الإسلامية في نفوسهم ووجداناتهم ، وهذا أمر طبيعي في هذه المرحلة ؛ لأن كل هؤلاء الشعراء قد تخرجوا في مدرسة الشعر الجاهلي .

على أن هناك لوناً آخر من الفن الشعري ، يغلب عليه - بعامة -

الطابع الجاهلى ، ويخضع لتأثير الصراع الذى دار بين شعراء المسلمين وشعراء قريش ، وهو ما كان على شكل مساجلات ، أو نقائض شعرية ، دارت - غالباً - حول الوقائع والحروب التى اشتعلت بين المسلمين وقريش ، وأنصار كل منهما ، وهذه النقائض تعد امتداداً للنقائض الجاهلية ، من حيث أصولها الفنية ، وغلبة المعانى الجاهلية فى شعر الجانبين ، واقتصارها على الأغراض الجاهلية ، وأهمها : الهجاء ، والفخر ، والثناء ، ودورانها حول الحروب والأيام .

ويحسن قبل أن نأخذ فى دراسة شعر النقائض الإسلامية فى عهد النبوة ، أن نلم إلاماً موجزاً ، بماهية هذا الفن ، وطبيعة أصوله الفنية ، وأن نلقى بعض الضوء على نشأته وتطوره فى العصر الجاهلى ؛ لتكون على بينة من ملامح التطور التى أصابها فى ظل الإسلام ، ومن خلال معاركه مع عصابة الشرك فى الفترة التى نتحدث عنها .

النقائض : جمع نقيضة ؛ ويقصد بها فى الشعر ، أن ينشئ شاعر قصيدة فى غرض من الأغراض ، الموجهة لبعض خصومه ، فينبى شاعر الخصوم للرد عليه بقصيدة ينقض فيها معانيه ، كأن يقلب فخر خصمه هجاء عليه ، وينسب الفخر لنفسه أو قبيلته ، ملتزماً الوزن الذى اختاره الشاعر الأول ، وكذا القافية التى بنى عليها قصيدته ، فتسمى القصيدة الأولى نقيضه بمعنى منقوضة ، والثانية نقيضة بمعنى ناقضة .

والنقائض بهذا المعنى ليست فناً جديداً كل الجدة فى العهد النبوى ، لم تضرب جذور نشأته وتطوره إلى ما قبل هذا العصر .

فقد اقتضى الخلاف بين القبائل فى الجاهلية أن يتعصب الشعراء لقبائلهم ، وكثيراً ما نجد شاعراً ينتصر لقومه أو أحلافهم ، فيرد عليه شاعر من القبيلة المعادية وينقض معانيه ، معتمدين على الفخر أو الهجاء أو عليهما معاً .

ولم تكن هذه الأشعار في أول أمرها تأخذ صورة النقائص بكل أصولها وعناصرها وشرائطها الفنية ، فذلك ما تأباه سنة النشوء والتطور ، بل نجد منها ما يأخذ صورة الرد الذي لا يتقيد بأصول المناقضة ، كقول امرئ القيس متوعداً بنى أسد لقتلهم أباه حجراً (١) :

والله لا يذهبُ شيخى باطلاً حتى أبيرَ مالكاً وكاهلاً
القاتلينَ الملكَ الحُلاَحِلاً خيراً معدَّ حساباً ونائلاً
يالهفُ هنداً إذْ حطَّئْ كاهلاً نحنُ جلبنا القُرحَ القوافلاً
يحملننا والأسلَ النواهِلاً مُستفِرِّماتٍ بالحصى جوافلاً
تُسْتَفِرُّ الأواخرُ الأوائلاً فصرتُ فيهم غانماً وقاتلاً

فرد عليه عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد بقوله (٢) :

يا إذا المُخَوِّفنا بقتلِ ل أبيه إذلالاً وحيناً
أزعمتُ أنك قد قتلت سرائنا كذباً وميناً
لوماً على حُجر بن أمِّ م قَطَامٌ تَبْكِي لا علينا

فهذا رد ساذج لا يلتزم العناصر الفنية للمناقضة .

ثم يتطور هذا الفن قليلاً فتحقق فيه بعض أصول المناقضة دون بعض ، من ذلك ما كان بين عامر بن الطفيل وزيد الخليل ، فقد خرج رجل من طيء (قوم زيد) اسمه دؤاب إلى صهر له في هوازن فأصيب ، فأغار زيد على بنى عامر ، ثم رجع إلى قومه ولم يشرف ، فقالوا : ما صنعت ؟ فقال ما أصبت بثأر دؤاب ولا ينوء به إلا عامر بن مالك ملاعب الأُسنة ، فأما ابن الطفيل فلا ييؤ به ، وأنشأ يقول (٣) :

(١) ديوانه ١٣٤ - ١٣٥ (دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م) الحلاحل : السيد الشريف . القرح : الخليل المستة . القوافل : الضوامر ، مستفزمات : تسرع في السير فيصل الحصى إلى فروجها ، وكذا تستنفر .

(٢) ديوانه ١٣٦ (حسين نصار - الحلبي - القاهرة ١٩٥٧ م) .

(٣) الأغاني ٥٢/١٦

لا أرى أن بالقتيل قتيلا عامريا يفى بقتل دؤاب
عامر ليس عامر بن طفيل لكن العمر رأس حي كلاب
ذاك إن ألقه أنال به الوت ر وقرت به عيون الصّحاب

فرد عليه عامر بقوله :

قل لزيد قد كنت تُؤثر بالجيل م إذا سُفّيت حلوم الرجال
ليس هذا القتل من سلف الحـ حي كلاع ويحبسب وكلال
أو بنى آكل المرار ولا صيد يد بنى جفنة الملوك الطوال
إن في قتل عامر بن طفيل لبواء لطىء الأجيال

فقد نقض عامر معاني زيد ، بالخط من شأن القتل ، وعظم نفسه بأن وضعها بإزاء طيء كلها ، والتزم وحدة البحر (بحر الخفيف) ، وأهمل وحدة القافية .

ولا ينقضى العصر الجاهلى حتى تصل النقائض إلى صورتها الكاملة ، التى تتحقق فيها كل الأصول والشروط اللازمة لفن المناقضة ، ونضرب مثلا لهذه ، الصورة المتطورة ، قول عبيد بن ناهد الأوسى فى « يوم البقيع » وكان للأوس على الخزرج (١) :

لما رأيت بنى عوف وجمعهم جاءوا وجمع بنى النجار قد حفلوا
دعوت قومي وسهلت الطريق لهم إلى المكان الذى أصحابه حبلوا
جادت بأنفسها من مالك غصب يوم اللقاء فلا خافوا ولا فشلوا
وعاوروكم كعوس الموت إذ برزوا شطر النهار وحتى أدبر الأصل

فرد عليه عبد الله بن رواحة الخزرجى بقوله :

(١) تاريخ النقائض فى الشعر العربى (الشايب) ٧٧ (مطبعة الاعتدال - القاهرة

لما رأيت بنى عوف وإخوتهم كعباً وجمع بنى النجار قد حفلوا
قوماً أباحوا حماهم بالسيوف ولم يفعل بكم أحد مثل الذى فعلوا

فالموضوع واحد وهو يوم البقيع وما كان فيه ، والثانى ينقض فخر
الأول بقومه ، ويثبت الفخر لقومه فى هذا اليوم ، مع وحدة البحر (بحر
البيسط) والقافية وحركة القافية أيضاً .

وعلى ضوء هذه النماذج وغيرها مما هو مبثوث فى ثنايا المصادر ، التى
تحدث عن أيام العرب فى الجاهلية ، وأخبارها وأشعارها ، نستطيع أن
نلخص الملامح الفنية لمرحلة نشأة النقائض وتطورها فى العصر الجاهلى على
النحو التالى :

(١) قامت أولاً على نقض المعانى ، مع عدم التزام وحدة البحر
والقافية ، ثم تطورت فقامت على الاتحاد الموضوعى والمعنوى والموسيقى ،
فتمت بذلك قواعدها المعروفة .

(٢) أهم فنونها الفخر والهجاء ، ومادتها تدور حول مقومات الحياة
الجاهلية ، كالأيام ، والأنساب والأحساب ، والاعتراف بالظلم والعدوان .
والفضائل الاجتماعية ، التى أقرتها هذه الحياة ، كالفخر بالكرم ، والشجاعة
والنجدة وكثرة العدد ، والسيادة ، والمروءة ، والهجاء بضد ذلك ، كل ذلك
فى إطار العصبية القبلية ، وفى سبيل القبيلة ؛ ولذا لم تختلف فنياً عن غيرها
من الشعر القبلى ، إلا من حيث أخذها بالأصول المقررة لفن المناقضات .

(٣) بعدها عن الأسفاف والفحش وتناول الأعراض فى الهجاء ،
فهى تقف غالباً عند صفات الجبن والبخل والفرار ، وتعف عن ذكر
العورات ، والكلمات النابية المكشوفة .

(٤) لم يشغل الجاهليون كثيراً بهذا اللون من الشكل الشعرى ، ولم
يلتزموه فى منازعاتهم الشعرية القبلية ، بل كانوا يقبلون عليه من حين إلى

آخر ، وفي الفترة بعد الفترة ، فلم يكن التباعد بين القبائل والشعراء ليتيح الفرصة لانتظام هذا الفن بين شعرائهم ، ومن هنا ، لا نغتر بهذا اللون من الشعر إلا قليلا ، وعقب الأيام والحروب ، فوراء كل يوم وكل حرب نجد قطعاً متبادلة (قصيرة غالباً) بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تُزَمُّ الألسنة ، كما تزم السيوف ، وكأن شيئاً لم يحدث » (١) .

وجاء الإسلام ، فوجد هذا الفن كامل الأداة ، فاعتمد عليه شعراؤه ، وبخاصة فيما جاء من نزاع بين شعراء المدينة وشعراء مكة في عهد النبي ﷺ ، وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول تعد امتداداً للنقائض الجاهلية - كما ذكرنا - فإن تغيراً غير يسير قد أصابها في عهد النبوة ، على ألسنة شعراء المسلمين ؛ خاصة من حيث الغاية ، والأسلوب ، وبعض المعاني والألفاظ .

فمن حيث الغاية : كانت النقائض الإسلامية لعهد الرسول دفاعاً عن عقيدة عامة ، ومبادئ إنسانية ، ونهضة شاملة من جانب شعراء المسلمين ، بعد أن كانت تعبيراً عن أغراض قبلية ضيقة الأفق في الشعر الجاهلي .

ومن حيث المعاني : تسربت بعض المعاني والألفاظ الإسلامية إلى نماذج منها ، تدور حول الكفر والإسلام والهدى والضلال ، والبعث والثواب والجنة والنار وغيرها ، ونجد هذه المعاني والألفاظ بارزة في نقائض عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك خاصة ، كما ظلت المعاني الجاهلية خالصة في نقائض شعراء قريش ومن والاهم وظهرت المعاني الجاهلية في نقائض الإسلاميين أيضاً ، خالية من الفحش (٢) .

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي (شوقي ضيف) ١٧٨ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٢ م) .

(٢) انظر : تاريخ النقائض (الشايب) ١٥٦/١٥٥

ومن حيث الأسلوب : لم تكن هذه النقائص على مستوى واحد من الجودة في الأساليب ، فمنها ما يتمتع بأسلوب قوى جزل يحكى أسلوب الشعر الجاهلى فى اللفظ والعبارة والتركيب ، ومنها ما يتسم أسلوبه بالضعف والاضطراب ؛ إذ كانت الشاعرية القرشية حديثة -- كما ذكرنا من قبل -- كما أن شعراء الفريقين كانوا يقتحمون مجالا جديدا ، بالانتصار لدعوة جديدة ، أو مناهضتها ، مما يحوجهم إلى درية ومران طويلين .

كانت الحروب الدائرة بين جبهة الإيمان فى المدينة ، وجبهة الشرك فى مكة عنيفة ضارية ، وكان الشعر قد نزل إلى الميدان سلاحا قويا فى حرب كلامية ، تتطايير سهامها من الجانبين ، وحرص الرسول من جانبه على توجيه شعراء المسلمين ليلبوا بلاءهم فى هذه الحرب ، وليردوا على دعاوى قريش ويزيفوها ، كما حرصت قريش على هجاء المسلمين ، والنيل من تماسك جبهتهم ، ومن روحهم المعنوية العالية ، وبالتركيز على وصفهم بالضعف ، وقلة العدد ، وفساد الرأى .

فى مثل هذه الأجواء يزدهر فن النقائص الشعرية ، ويقبل عليه الشعراء ؛ إذ كان من شأن النقائص أن تزدهر فى ظل الحروب الشديدة الدامية ، ومن ثم أخذ شعراء الجهتين يترادون بقصائدهم طوال عشر سنوات تقريبا ، أى منذ هاجر الرسول إلى المدينة حتى أواخر العهد النبوى .

وما دام المسلمون ينظرون للحرب على أنها جهاد فى سبيل الله ، ووسيلة لنشر الدين ، ودحر لقوى الضلال والشرك ، وما دام المشركون ينظرون إليها على أنها صراع فى سبيل الزعامة والرئاسة والسيطرة القبلية ، والدفاع عن عقائدهم الجاهلية الموروثة ، فقد كان طبيعيا أن تبرز - إلى حد ما - العناصر الإسلامية فى نقائص المسلمين ، وأن تصطبغ النقائص القرشية بصبغة جاهلية خالصة .

وتأييدا لكل ما ذكرنا عن فن النقائض الشعرية في العهد النبوى ،
نسوق طائفة من نماذجه ، يظهر فيها طابع النقائض القرشية والإسلامية ،
كما ندرك على ضوءها ما حقق هذا الفن من تطور في المضمون والأسلوب ،
والغاية .

قال ضرار بن الخطاب الفهرى يوم بدر من قصيدة (١) : (طويل)

عجبتُ لفخرِ الأوسِ والحِمْيَرِ دائِرُ عليهم غداً والدمُ فيه بصائرُ
وفخرِ بنى النجارِ أن كان معشرُ أصيبوا ببدرِ كلُّهم ثم صابرُ
فإن ثكُّ قتلى عُودرتْ من رجالنا فإننا رجالٌ بعدهم سُنْغادرُ
وتردى بنا الجُرْدُ العناجيجِ وسطُكم بنى الأوسِ حتى يشفى النفسَ ثائرُ
ووسطَ بنى النجارِ سوف نُكرُّها لها بالقنا والدَّارعين زوافِرُ
فترك صرعى تعصبُ الطيرِ حولهم وليس لهم إلا الأمانى ناصرُ
وتبكيهم من أهلِ يثربِ نسوةٌ لهنَّ بها ليلٌ عن النومِ ساهرُ
فإن تظفروا في يومِ بدرٍ فإنما بأحمدِ أمسى جدُّكم وهو ظاهرُ

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة منها (٢) : (طويل)

عجبتُ لأمرِ الله والله قادرُ على ما أراد ليس لله قاهرُ
قضى يومَ بدرٍ أن تُلاقى معشراً بغواً وسبيلُ البغي بالناسِ جائرُ
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من الناسِ حتى جمَّعهم مُتكاثرُ
وسارتْ إلينا لا تحاولِ غيرنا بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامرُ

(١) السيرة ق ١٣/٢ . العناجيج : الطوال السراع . النائر : الطالب بئاره .

(٢) ديوانه ٢٠٠ والسيرة ق ١٤/٢ . الماذى : الدروع البيض اللينة . أقبلوا : يريد

دعا قريشاً إلى الإسلام .

وفينا رسول الله والأوس حوله له مَعْقِل منهم عزيز وناصر
وجمع بنى النجار تحت لوائه يُمشون في الماذى والنقع ثائر
فلما لَقِينَاهُمْ وكلَّ مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأنَّ الله لا ربَّ غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر

إلى أن يقول :

وكا رسول الله قد قال أقبلوا فولّوا وقالوا إنما أنت ساجر
لأمرٍ أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمرٍ حمّه الله زاجر

فضرار بن الخطاب صرف همه إلى إبراز نواحي القوة وشدة البأس في
قومه ، والتهوين من فخر الأوس وبنى النجار في هذا اليوم ، وتوعدهم بثأر
قريب قادم .

أما كعب فقد حول الفخر الجاهلي إلى إيمان بقدر الله وقضائه الذي
لا يرد ، ووصف أعداء المسلمين بالبغي والعدوان والتأليب على الشر ، كما
وصف المسلمين بالصبر على الجهاد ، والاستبسال في سبيل الله ، وأن
رسول الله بينهم عزيز منتصر بقوة إيمانهم ، وحسن بلائهم ، ثم هو يشهد
شهادة الإسلام بوحداية الله ، ورسالة رسوله الظاهر بالحق ، لا بالحظ كما
قال ضرار في البيت الأخير .

وقال حسان بن ثابت في بدر الآخرة (٤ هـ) (١) : (طويل)

دَعُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قد حال دونها جلال كَأَفْوَاهِ المَخَاضِ الأَوَارِكِ
بَأْيْدِي رِجَالٍ هَاجَرُوا نحو رَهِمِ وَأَنْصَارُهُ حَقًّا وَأَيْدِي المَلَايِكِ

(١) ديوانه ٢٩٤ ، والسيرة ق ٢١١/١٢ . الفلجيات : الأودية ، أو الأنهار
الصغيرة . الأوارك : التي ترعى الأراك . وهن هالك : أى يهلك جنباً وضعفاً . فرات بن حيان :
هو دليل غير قريش إلى الشام . قيس : هو قيس بن امرئ القيس العجلي كان يجر غير قريش .

إذا سلكت للغور من رمل عاليج
فإن نلق في تطوافنا والتماسنا
وإن نلق قيس بن امرئ القيس بعده
فأبلغ أبا سفيان عني رسالة
فأجابه أبو سفيان بن الحارث^(١) : (طويل)

أحسانُ إنا يا ابن آكلة الفغا
إذا ما انبعثنا من مُناخِ حسبتِه
أقمت على الرأسِ النزيعَ تريدُنا
حسبُتم جِلاَد القومِ عند قباهم
فلا تبعثِ الخيلَ الجيادَ وقل لها
شقيتم بها وغيركم كان أهلها
فإنك لا في هجرةٍ إن ذكرتها
وجدك نغثال الخروق كذلك
مدمن أهل الموسم المتعارك
وتتركنا في النخل عند المدارك
كما أخذكم بالعين أرتال أنك
على نحو قول المعصم التماسك
فوارس من أبناء فهير بن مالك
ولا حرمت الدين أنت بناسك

فقد تتبع الحارث دعاوى حسان بالنقض ، كما نرى في رده على قول حسان :

(رجال هاجروا نحو رهم) ، إذ يقول : (فإنك لا في هجرة إن
ذكرتها) ، يعني أنك لست من المهاجرين ، فليس لك فضل الهجرة ، وزاد
بأنه نفى عنه ادعاء التقوى ، ولما افتخر حسان بمقدرة جيش المسلمين على
اغتنام عير قريش عنوة ؛ ودحر حراسها والضامين لها من العرب ، نقض
أبو سفيان هذا المعنى وادعى أن من دون ذلك أهوال ، ونصح المسلمين
بألا يغامروا هذه المغامرة ؛ لأنها سيئة العاقبة ، وألا يبعثوا الخيل لاعتراض عير
قريش ، وإلا كانوا كمن يشقى نفسه في الغرس ثم يأتي غيره فيجنى الثمر .
ومما قيل حول غزوة أحد ، التي انتصرت فيها قريش ، وقتل حمزة عم النبي ،
قول أبي سفيان بن حرب قائد المشركين ، مشتبهاً بمن قتل من المسلمين^(٢) :

(١) السيرة ق ٢١٢/٢ . الفغا : غيرة تعلو التمر قبل أن ينضج .

(٢) السيرة ق ٧٦/٢ . الجلايب : المسلمون وكان المشركون يلقبونهم بذلك =

وسلى الذى قد كان فى النفس أننى
ومن هاشم قرماً كريماً ومُصعباً
ولو أننى لم أشف نفسي منهم
فأبوا وقد أودى الجلايبُ منهم
أصاب بهم من لم يكن لدمائهم

فأجابه حسان بن ثابت ، قائلا (١) :

ذكرت القروم الصيّد من آل هاشم
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم
ألم يقتلوا عمرًا وعُتبةً وابنه
غداة دعا العاصي علياً فراعهُ
ولست لزور قلته بمصيب
نجيباً وقد سمّيته بنجيب
وشئيه والحجاج وابن حبيب
بضربة غضب بله بخضيب

فأبو سفيان يفخر بأنه انتقم من بنى هاشم ، ومن بنى النجار
أخوال الرسول من الخزرج ، ويعير المسلمين بهزيمتهم ، وغلبة معسكر مكة
إياهم ، وقد رد عليه حسان بأن حمزة لم يضع دمه هدراً ؛ فقد سبق أن قتل
المسلمون فى بدر جماعة من عظماء قريش ، والشاعران يتحدثان بمعان
جاهلية .

وقال عمرو بن العاص - قبل إسلامه - فى يوم أحد (٢) :

= قالوا كان المنافقون يسمون المهاجرين : الجلايب ، فلما قال حسان :
أمسى الجلايب قد عزوا وقد كثروا وابن الفرعة أمسى بيضه البلد
اعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف ، قال ابن الأنبارى هم العبيد ويقال
السفلة ، وقال السهيلي : الغرباء (سمط اللآلى ٥٤٩/١) . الخدب : الطعن النافذ . المعطب :
الذى يسيل دمه . الكتيب : الحزين . والنقيضتان من الطويل .
(١) ديوانه ٦٦ ، والسيرة ق ٧٦/٢ . أقصدت : أصبت . الخضيب : الدم الطرى .
(٢) السيرة ق ١٤٣/٢ . الفيفا : القفر . الحبيك : الذى فيه طرائق . سلع : جبل فى
ظاهر المدينة . الكراديس : جماعات الخيل . تمرق : تخرج . البروق : نبات له أصول تشبه
أصول البصل ، والنقيضتان من الطويل .

مخرجنا من الفَيْفَا عليهم كأننا
تمنّت بنو النجّار جهلاً لقاءنا
فما راعهم بالشرّ إلّا فجاءة
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
كأنّ رعوسَ الخزر جيّين غدوةً
وأيمانهم بالمشرفة برّوق
فأجابه كعب بن مالك (١) :

ألا أبلعاً فهِراً على نأى دارها
بأنّا غداة السفح من بطن يثرب
صبرنا لهم والصبر منا سجيّة
على عادةٍ تلکم جرّنا بصبرنا
لنا حومة لا تستطاع يقودها
ألا هل أتى أفناءً فهِر بن مالك
وعندهم من علمنا اليوم مصدّق
صبرنا ورايات المنيّة تحفّق
إذا صارت الأبرام تسمو وترتق
وقدماً لدى الغايات نجري فنسبق
نبيّ أتى بالحق عَف مصدّق
مقطّع أطراف وهام مفلّق

فإذا استثنينا قول كعب : (نبيّ أتى بالحق عَف مصدق) كان
شعره وشعر عمرو جاهلي الشكل والمضمون .

فعمرو يصور خروج قومه للقتال في جيوش مترابطة ، ويسخر من
سفاهة بنى النجار في تمنى لقاءهم ، ومن عجز المسلمين دون النصر ، وكان
نقض كعب يصور صبر المسلمين ، ويذكر عادة الأنصار في السبق ، ويذكر
المشركين بما فعل بهم المسلمون في وقعة سابقة .

ولم يكن فن النقائض قاصراً على الشعراء في هذه المعارك بل أسهمت
فيه الشواعر من الفريقين أيضاً ، فها هي ذى هند بنت عتبة بعد أن مثلت

(١) ديوانه ٢٤٢ ، والسيرة ق ١٤٤/٢ . فهر : قریش . أفناء القبائل : المختلط منها .
الأبرام : اللغام .

بجثمان حمزة بعد وقعة أحد ، تصعد على صخرة مشرفة ، وتصرخ بأعلا صوتها ، تشفياً بجمزة (١) :

نحنُ جزيناكم بيوم بدرٍ والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعرٍ
ما كان عن عُتْبة لي من صَبْرٍ ولا أخى وعمه وبَكَرٍ
شفيتُ نفسي وقضيتُ نَذْرِي شفيتُ وحشِي غليلَ صدرِي
فشكّرُ وحشِي علىَّ عمرِي حتى ترمَّ أعظمي في قبرِي

فانبرت لها من شواغر المسلمين هند بنت أئانة بن عبّاد ، فقالت (٢) :

خزيت في بدر وبعد بدرٍ يابنت وقّاع عظيم الكفر
صبحك الله غداة الفجر ملهاشمين الطوال الزهر
بكل قطاع حُسام يقرى حمزة لئشى وعلى صقرى
إذ رام شيب وأبوك غدرى فخضبا منه ضواحي النحر
ونذرك السوء فشر نذر

أما هند بنت عتبة ، فتبدى فرحتها بقتل حمزة ، وترى فيه شفاء لصدرها مما أصابها يوم بدر ، وأنها ما كانت تصبر على لذعات الألم طويلا حتى يؤخذ لها بالثأر ، وقد ثأر لها وحشى - الذى نذرت له مكافأة سخية إن قتل حمزة - وأنها لن تنسى هذا الجميل لوحشى ما عاشت ، وستفى له بما نذرت .

وأما هند بنت أئانة ، فتدعو لها بالخزى في كل معارك قومها مع المسلمين ، وتسب أباهها هذا الذى تفخر بأخذ ثأره ، فما كان إلا شيخاً هالكا ، وكافراً عنيداً ، ولن يسكت الهاشميون على مصابهم في حمزة ، فلتوقع هند قدومهم عما قريب للأخذ بثأره ، والانتقام له ؛ لأن عمها شيبه وأباهها

(١) السيرة ق ٩١/٢

(٢) المرجع نفسه . شيب : تريد شيبه عم هند .

عتبة كانا غادرين ، قتلا لغدرهما ، أما حمزة فكان أسدا شجاعا ، ظاهره على قتل الغادرين على صقر بنى هاشم ، واللمحات الإسلامية واضحة في أبيات الشاعرة المسلمة ، وإن كانت قليلة ، لا ترتفع إلى مستوى الحدث .

وقد كثرت النقائض التي تدور حول حرب أحد ؛ إذ أثلج نصر قريش فيها صدور شعرائها ، وعدوها انتقاماً شافياً لهزيمتهم ببدر ، فراحوا يرسلون القوافي في التغنى بهذا النصر ، والشماتة بالمسلمين ، وكان شعراء المدينة لهم بالمرصاد ، فأجابوهم ونقضوا شعرهم ، وحاولوا تبرير الهزيمة ، مؤكدين أنها لن تنال من قوتهم وإصرارهم على دحر الشرك ؛ ومن ذلك قول عبد الله بن الزعبري يخاطب حسناً^(١) : (خفيف)

يا غرابَ البين أسمعَتْ فُقلْ	إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدى	وكلا ذلك وجه وقبل
أُبلغن حسان عني آيةً	فقرِضُ الشعر يشفى ذا الغُلل
كم ترى بالجر من جمجمة	وأكف قد أثرت ورجل
وسرايل حسان سريت	من كإهتيكوا في المنزل
كم قتلنا من كريم سيد	ماجد الجددين مقدم بطل
صادق النجدة قرم بارع	غير ملثا لَدَى وقع الأسل
ليت أشياخي ببدر شهّدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكّ بقباء بركها	واستحرّ القتل في عبد الأشل
فقتلنا الضعف من أشرافهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل

(١) السيرة ق ١٣٦/٢ . الجر : أصل الجبل . أثرت : قطعت . السرايل هنا : الدروع . سريت : جردت . المنزل : موضع النزال . البرك : الصدر . عبد الأشل : يريد عبد الأشهل .

فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدة منها (١) :

ذهب بابين الزبيرى وقعة	كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ولننا منكم	وكذاك الحرب أحياناً دُول
نضع الأسياف في أكتافكم	حيث تهوى غللاً بعد نهل
إذ تولون على أعقابكم	هرباً في الشعب أشباه الرسل
إذ شددنا شدة صادقة	فاجأناكم إلى سفح الجبل
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه	وملأنا الفرط منه والرجل
برجال لستم أمثالهم	أيدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقى	طاعة الله وتصديق الرسل
وتركنا في قريش عورة	يوم بدر وأحاديث المثل
ورسول الله حقاً شاهد	يوم بدر والتنايل الهبل

فابن الزبيرى يذكر بقتلى المسلمين في أحد ، وكثرة ما أصيب من كبارهم ، ويتشفى بذلك ؛ لأنه يرضى أشياخه الذين قتلوا ببدر .

ويرد حسان بأن ابن الزبيرى غير منصف في هذا الزهو ؛ لأن النصر لم يكن خالصاً لجهته ، فقد أبلى فيها المسلمون بلاء حسناً ، وألجئوا قومه إلى الفرار ، والانحياز إلى الجبل ، كما يفخر حسان بكثرة جند المسلمين ، وينصر المسلمين ببدر ؛ ويرد هذا النصر إلى أن المسلمين خرجوا يومئذ طاعة لله وتصديقاً لرسوله ، وقد ترك المسلمون قريشاً في بدر يضرب بها المثل في الخذلان والعار ، والأبيات الأخيرة لحسان إسلامية يمتاز بها حسان عن صاحبه ، أما أبياته الأولى فلا تكاد تفترق في شيء عن شعر ابن الزبيرى الجاهلى .

(١) ديوانه ٣٠٢ ، والسيرة ق ١٣٧/٢ . الرسل : الإبل المرسلة بعضها في إثر بعض . نجزعه : نقطعه عرضاً . الفرط : ماعلاً من الأرض ، والرجل : ما انخفض منها . التنايل : القصار الجبناء . الهبل : الكثير اللحم .

ولابن الزبيرى نقائص كثيرة مع حسان وكعب ، منها هذه النقيضة
التي قالها يوم الخندق (١) :

حَتَّى الدِيَارِ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا	طُولُ الْبِلَا وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ
فَكَأَنَّمَا كَتَبَ الْيَهُودُ رَسُومَهَا	إِلَّا الْكَنْيَفَ وَمَعْقَدَ الْأَطْنَابِ
قَفْرًا كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَلْهُوُ بِهَا	فِي نَعْمَةٍ بِأَوَانِسِ أَثْرَابِ
فَاتَّرَكَ تَذَكُّرَ مَا مَضَى مِنْ عَيْشَةٍ	وَمَحَلَّةَ تَخْلُقِ الْمُقَامِ يَبَابِ
وَإِذَا ذَكَرَ بِلَاءَ مَعَاشِرٍ وَاشْكُرَهُمْ	سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الْأَنْصَابِ
أَنْصَابِ مَكَّةَ عَامِدِينَ لِيُثْرِبَ	فِي ذِي غَيَاطِلٍ جَحْفَلِ جَبْجَابِ
جَيْشٍ عَيْنِيَّةٍ قَاصِدٍ بِلَوَائِهِ	فِيهِ وَصَحْرٌ قَائِدُ الْأَحْزَابِ
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَدُّوا	لِلْمَوْتِ كُلِّ مُجَرَّبٍ قَضَابِ
شَهْرًا وَعَشْرًا قَاهِرِينَ مُحَمَّدًا	وَصَحَابُهُ فِي الْحَرْبِ خَيْرُ صُحَابِ
نَادَوْا بِرَحْلَتِهِمْ صَبِيحَةَ قَلْتَمِ	كَدْنَا نَكُونُ بِهَا مَعَ الْبُحْيَابِ
لَوْلَا الْخَنَادِقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ	قَتَلَى لَطِيرٍ سَعْبٍ وَذُنَابِ

فابن الزبيرى يقص خروج قريش وأحلافها من مكة ، في جيش
كثيف على رأسه قائدان عظيمان : عيينة بن حصن الفزاري على رأس
الأحلاف ، وأبو سفيان بن حرب القائد الأعلى للأحزاب ، وكيف حاصرت
الأحزاب المدينة أربعين يوماً ، وأنزلت الرعب في قلوب أهلها ؛ وأنه لولا
الخندق لألحقوا الهزيمة الكاملة بالمسلمين .

(١) السيرة ق ٢٥٧/٢ . الكنيف : حظيرة الإبل . معقد الأطناب : الأوتاد .
الأنصاب : حجارة كان المشركون يعظمونها ويذبحون عندها ، يريد : أنهم ساروا من مكة .
ذى غياطل : جيش كثير الأصوات . جبجباب : كثير . قضاب : قاطع . سغب : جائعة .
عيينة : هو ابن حصن الفزاري كان على غطفان يوم الخندق . صخر : يريد أبا سفيان بن
حرب قائد الأحزاب .

فنهض حسان للرد عليه بقصيدة ، منها قوله (١) :

هل رسمُ دارسة المقام يباب	متكلم لمُحاور بجواب
قفر عفا رَهِمُ السحاب رسومه	وهبوب كل مُطِلَّة مِرْباب
ولقد رأيتُ بها الحُلُول يزِينهم	بيض الوجوه ثواقبُ الأحساب
فَدَع الدِيَارَ وذكر كلَّ خريدة	بيضاء آنسة الحديث كعاب
واشك الهوم إلى الإله وما ترى	من معشر ظلموا الرسول غصاب
ساروا بأجمعهم إليه وألبوا	أهل القرى وبوادي الأعراب
جيشُ عَيْنُهُ وابنُ حَرْبٍ فيهم	متخمطين بحلية الأحزاب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا	قتل النبي ومَعْنَم الأسلاب
وَعَدُوا علينا قادرين بأيديهم	رُدُّوا بغِيظهم على الأعقاب

فكان حسان بن ثابت ينظم آيات من سورة الأحزاب ، ومع ذلك فهو جاهلي المطلع ، كما هو واضح .

ويطول بنا المقام لو تتبعنا ما قيل بين شعراء مكة والمدينة من مناقضات ، فهي كثيرة ، فلنكتف منها بما ذكرنا ، دليلاً على ما لم نذكر ، وشاهداً على أن هذا الصراع العنيف قد اقتضى نهضة أدبية تسايه ، وتسنده ، وتؤرخ له ، وجذب كثيراً من الشعراء إليه ، فأثرى الشعر ، ومهد له بيئة تكاد تكون جديدة في مكة ، بالنسبة للشعر الجزل القوى الأسلوب ، الذي يقرب - أحياناً - من شعر الفحول الجاهليين ، في الألفاظ والعبارات والمعاني والموضوعات بعامة .

(١) ديوانه ١١ ، والسيرة ق ٢٥٨/٢ . رهم السحاب : المطر . الحلول : البيوت المجتمعة ، ثواقب : مشرقة . مرباب : ثابتة دائمة . الكعاب : التي نهد ثديها . متخمطون : مختلطون على شكل أحزاب . الأيد : القوة . الخريدة : البكر .

وليس معنى صدور مثل هذا الشعر الذى رأينا لشعراء المسلمين ، أن الرسول كان يقره ، عن اعتقاد بأنه لا ينافى تعاليم رسالته ، وإنما هو شعر لا يخلو من الروح الجاهلية التى يرفضها الإسلام ، واضطر الرسول إلى السكوت عنه ، بل تشجيعه ، إمعاناً هؤلاء النفر من شعراء قريش ومن واكلهم فى هجائه ، والنيل من أعراض المسلمين ، ونخابة الإسلام فى شعرهم ، والرسول ﷺ عرى يعلم تمام العلم مبلغ احتفال العرب بالشعر ، وتأثرهم به ، ومن ثم ، فهو يدرك أن هذه الألسنة المسمومة ، والأنفس المحمومة ، لن يسكتها عن هجائه ، والنيل من صحابته ، والتهجم على رسالته ، إلا أن يكال لها بالكيل نفسه ، وأن ترمى بسهام القول من جنس ما كانت تتناوله فى التهجم عليه وعلى دعوته وأصحابه ؛ ولذا كان هجاء حسد وكعب أشد على قريش وشعرائها من هجاء ابن رواحة - كما ذكرنا من قبل .

فتلك إذن حالة ضرورة لرد الاعتداء والظلم ، هى حرب والحرب يحل فيها القتل المحرم دفاعاً عن النفس ، وقد قدر شعراء المسلمين هذه الضرورة بقدرها ، فلم يتعرضوا لغير من ناوأهم من شعراء القبائل الذين لم يدخلوا فيما دخل فيه شعراء قريش .

وما إن دخلت قريش فى الإسلام ، وقفت على آثارها القبائل العربية الأخرى حتى خمدت هذه الحرب الكلامية ، واضمحل أمر الشعر فى الحضر ، وسكت صوت النقائض الشعرية تماماً ، حتى انبعث مرة أخرى فى عصر بنى أمية .

وهكذا كان الصراع بين الجبهة الإسلامية فى المدينة ، والجبهة المشتركة فى مكة ، ذا أثر فعال فى ازدهار الشعر ، وتطور فن النقائض الحربية ، وفن الرثاء الذى تثيره الحرب ، بما يسقط فى أتونها من صرعى ، ثم فن الحماسة

الذى ينظمه كل من الغالبيين والمغلوبيين ، حيث يعدون العدة دائماً لجولة جديدة ، يكون الشعر ممهداً لها ، ومثيراً لنارها ، ومخلداً أحداثها ، ومعلنأ مفاخر فرسانها من الأحياء والأموات .

آية هذا كله : أن الشعر كان مزدهراً ، على القدر فى البادية والحضر جميعاً فى العهد النبوى ، للأسباب التى ذكرنا .

* * *

الفصل الثاني

الشعر في عهد الراشدين

(أ) الراشدون والشعر :

رأينا كيف كان الشعر مزدهراً في العهد السابق بعامة ؛ لكثرة ما توفر له من دواعي الشعر ، وعوامل ازدهاره وقوته .

أما في البداية فقد ظلت دواعي الشعر وعوامل ازدهاره كما كانت عليه في الجاهلية ، وبذا عد امتداداً للشعر الجاهلي ، يسلك طريقه ، ويحمل طابعه وخصائصه .

وأما في الحضر - ونعني به حضر الحجاز خاصة - فقد أتيح له أن يكون سلاحاً فعالاً في ملحمة حربية عنيفة قامت بين معسكرين سياسيين ، أو قل دينيين ، يمثل أحدهما الرسول وصحبه بالمدينة ، ومن انضم إليهم قريباً منها ، حاملاً لواء دعوة جديدة ، متحمساً لها ، مخلصاً في الذود عنها ، ومثل الآخر قريش مكة ومن لف لفها من اليهود وغيرهم ، مدافعاً عن قديمهم ، مشحوناً بالغيظ ، مدفوعاً بالعنجهية والحقد ، حريصاً على تقويم دعائم هذا الدين الجديد ، الذي يسخر بعقولهم والتهتم وتقاليد آبائهم .

وكان شعر هؤلاء وأولئك قويا حماسيا في جملته ؛ لأنه شعر العواطف المتعارضة ، التي تتصادم حول الحياة ، بل حول أعز ما في الحياة ، الدين والحرية والسيادة ، ومثل هذا اللون من الشعر يكون - عادة - صاحباً أشبه بالخطابة ؛ لأنه يكون من واديهما في مثل هذه الظروف ، يقوم بوظائفها ، ويعتمد مثلها على قوة الشعور ، وصدق العقيدة ، فكيف به إذا اختلط

يقتين الاقتناع من جانب معسكر المدينة ، ويحميه العصبية الجاهلية من جانب معسكر مكة ؟؟ .

يبد أن نار الصراع بين المعسكرين خمدت بمجرد دخول العرب في دين الله أفواجا ، ولم تعد هناك حاجة لمثل هذا النوع من الشعر ، فلا بد له أن يذهب بذهاب الضرورة التي اقتضته ، والموقف الذي أملاه ، وقد صار أعداء الأمس في جملة المسلمين .

لذا أصبح ولاية الأمور في الدولة الإسلامية بعد الرسول - وهم ممثلو السلطة الدينية والدنيوية من بعده - ينظرون إليه بعين السخط ، ويحرصون على تناسيه ، ويحرمون روايته .

من ذلك ما يروى من أن حسان بن ثابت كان لا يفتأ يتغنى بانتصار الأنصار - قومه - على القرشيين ، من حين لآخر بعد وفاة الرسول ، فمر عليه عمر بن الخطاب يوماً - وهو خليفة - فسمعه ينشد من ذلك في المسجد بعض ما كان يقوله أيام الرسول ، فأخذ بأذنه وقال : « أرغاء كرجاء البكر ؟ فقال حسان : دعنى عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير على ذلك » (١) .

وعمر إنما أنب حسان ووبخه ، ليشعره بأن هذا اللون من الشعر لم يعد مرغوباً فيه ، ويجب إهداره وتناسيه ، لنزعته التي تشبه النزعة الجاهلية ، المثيرة لأحقاد الماضي وذكرياته الدامية « ويريد أن يكون ملك المسلمين موطداً ، بحيث لا تعصف به الأهواء والعصبيات ، وينبش الماضي الذي واره الإسلام » (٢) .

(١) العمدة ١٠/١

(٢) الإسلام والشعر (جبورى) ١٠٤

وكان المسلمون على وعى بضرورة المحافظة على الوحدة الإسلامية في هذه المرحلة ؛ ليجابها أعداء الدين خارج الجزيرة صفا واحدا ، وكلمة مجتمعة ، ولذا لم يقبلوا على حسان ، وهو ينشد شعر العهد الماضي في الصراع بين مكة والمدينة ، مما اضطر الزبير بن العوام يوماً إلى أن يهيب بهم أن يستمعوا له (١) ؛ إكراماً لمكانه من الرسول ، وحرصاً على إرضائه .

ولم يقف ولاة الأمور عند حد النهي عن رواية شعر الماضي في الصراع ، بل راحوا يضربون بقوة على يد من يحاول بعثه وإثارتة ، حفاظاً على وحدة المسلمين ، ورفضاً لإحياء العصبية الذميمة ، ونبش الأحقاد التي مسح الإسلام عليها بالعمو والتسامح ، والحاجة الدعوة الماسة إلى تضافر جهود العرب جميعاً ؛ ليحملوها إلى الأمم الأخرى ، في صفوف مترصة كأنها البنيان المرصوص .

نعم ، كان من الطبيعي ، تحقيقاً لهذه الأهداف ، أن يضيق العهد الجديد (عهد الراشدين) بكل شعر ينبعث عن عصبية جاهلية ، أو يأخذ في سبيل أغراضها ومعانيها التي رفضها الإسلام ، وجاء حرباً عليها ؛ ولذا أخذ خلفاء هذه الفترة ، يضربون على أيدي الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين ، بالهجو المقذع ، والنسيب الفاحش ، والمديح الكاذب ... وكل ما هو محرم ، كنعت الخمر ، والدعوة بدعاء الجاهلية ..

ولا ينبغي أن نتطرق في تصوير موقف ولاة الأمور في هذا العهد من الشعر والشعراء ، فندعى أنهم كانوا يضيقون بالشعر عامة ، بحجة ضعف الحاجة إليه ، ونهوض الخطابة بما تحتاج إليه الدولة الإسلامية النامية ، والدعوة المنتشرة ؛ إذ كانت الخطابة في هذا المقام أجدى من الشعر ، وأرحب مجالاً ،

وأكثر إقناعاً ووفاء ، نقول : لا ينبغي أن نذهب في التطرف إلى هذا الحد ، مهما كانت ظواهر الحال تدل عليه ، فالظواهر كثيراً ما تخدع عن الحقائق ، وتضرب حولها حجاباً كثيفاً من الغموض والخفاء ، فلقد كان ولاية الأمور هؤلاء عرباً خلصاً ، يتذوقون الشعر ، ويعرفون قيمته في تمثيل العواطف الإنسانية ، ويضطربون لسماعه ، ويقبلون على حفظه وإنشاده واستنشاده ، والإثابة عليه ، والشواهد على ذلك كثيرة في جمهرة أشعار العرب ، والعمدة ، والعقد الفريد ، والبيان والتبيين ، والأغاني ، وغيرها من كتب التراث في اللغة والأدب والتاريخ .

فتدل بعض الروايات على أن أبا بكر كان يكثر من حفظ الشعر ، كثير التمثل بأشعار الجاهلية ، يروى منها في مواقفه وخطبه (١) ، وقد مرت بنا خطبته في الأنصار ، لما طلبوا أن يفضلهم فيما قسم من فيء البحرين ، والتي ختمها بأبيات من الشعر للشاعر الجاهلي طفيل الغنوي ، متمثلاً بها . وروى الجاحظ : « كتب عمر بن الخطاب إلى ساكني الأمصار : أما بعد فعلموا أولادكم العوم والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وحسن من الشعر » (٢) .

وروى المفضل الضبي عن أبيه : « قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنه عبد الرحمن : يا بني : أنسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر ، يحسن أدبك ، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر ، لم يؤد حقاً ، ولم يقترب أدباً » (٣) .

(١) انظر مثلاً : الأمالي والنوادر للقالى ٢٤١/١ ، وأدب الكاتب للصولى ١٩٠

(طبعة السلفية ١٣٤١ هـ) ، وزهر الآداب للحصرى ٣٩/١

(٢) البيان والتبيين ١٨٠/٢

(٣) جمهرة أشعار العرب (القرشى) ١٨

ولقد عرف عن عمر أنه كان يوجه الفن الشعري كثيراً وجهة إسلامية ، لخدمة الدين ، وتربية الخلق ، فإذا كان قد نهى عن رواية شعر النقائص في العهد النبوي ، وطارد شعراء الهجاء ، فإنه من جهة أخرى كان يأمر عماله أن يدعوا الناس إلى تعلم الشعر - كما مر - كقوله لأبي موسى الأشعري فيما كتب به إليه : « مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب » (١) .

وهل أدل على تقدير عمر للشعر ، ومعرفته تأثيره في النفوس ، من قوله : « أفضل صناعات الرجل الآيات من الشعر ، يقدمها في حاجاته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم » (٢) .

كما أن عمر رضى الله عنه كان مشهوراً بأنه أنقذ أهل زمانه للشعر ، وأنفذهم فيه معرفة ، وأحكامه فيه تعد من القواعد الموضوعية الأولى في تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٣) .

أما الإمام على كرم الله وجهه ، فكان كثير الحفظ للشعر ، وكثيراً ما تمثل به في حروبه ، فضلاً عن أنه كان يثيب الشعراء على الشعر الجيد الحسن ، وينفعل له .

روى أن أعرابياً وفد على علي بن أبي طالب فقال : إن لى إليك حاجة ، رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له على : خط حاجتك في الأرض فإننى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابي على

(١) العملة ١٠١

(٢) العقد الفريد ٢٧٣/٣

(٣) انظر : العملة ١٣/١ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٢

الأرض إني فقير ، فقال علي : يا قنبر : ادفع إليه حلتى الفلانية ، فلما أخذها
مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه كالغيث يحيى بداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عُرف بدأت به فكل عبد سيُجزى بالذى فعلا

فقال علي : يا قنبر : اعطه خمسين دينارا ، ثم قال له : أما الحلة
فلمسألتك ، وأما الدنانير ، فلا أدبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا
الناس منازلهم (١) .

هكذا كان اعتداد الراشدين بالشعر ، ولم يكن غيرهم من صحابة
رسول الله أقل منهم تقديراً له واحتفاء به ، وإقبالا عليه .

سئل الحسن البصري يوماً : « أكان أصحاب رسول الله ﷺ
يمزحون ؟ قال : نعم ، ويتقارضون من القريض ، وهو الشعر » (٢) .

ويروى عن أبي سلمة قوله : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ
متحزقين ، ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ، ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا
أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون » (٣) .

من هذا نرى أن الراشدين وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ لم
يتزمتوا في موقفهم من الشعر ، ولم يرفضوه جملة ، بل نظروا إليه على أنه فن من
القول رفيع ، فيه متعة للحس والقلب ، لا يأخذها عليهم الإسلام ،

(١) العمدة ١٠/١ ، ١١

(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر للزخشرى ٣/٣٣٩ (بتحقيق أبي الفضل والبحاوى

-- طبعة الحلبي ١٩٤٥ م) .

(٣) المرجع السابق ٢٧٥/١

ولا يحول بينهم وبينها في آداب معاصريهم أو سابقهم ، وكيف يتخرجون من الشعر ، وقد أوضح لهم الرسول ما يأخذون منه ، وما يدعون !؟

وطبيعي أن يكون الشعر الذي حظى بهذه المنزلة عندهم مختلفاً من الشعر الذي كان سائداً قبل عهدهم ، وبخاصة في البيئات الجاهلية ، وما كان امتداداً لها ، فلقد كان للإسلام أثر محقق في شعر هذه الفترة (عهد الراشدين) وشعرائها ؛ إذ لم يعد مضطراً إلى التغاضي عن روح العصبية الجاهلية وصيغتها - كما رأينا في العهد النبوي - كما أنه شديد الاهتمام في حاضره ، بتثبيت العادات والمعتقدات والأخلاق الإسلامية ، ونشرها ؛ لتحل محل العادات والمعتقدات والأخلاق الجاهلية الفاسدة ، تطهيراً للمجتمع العربي مما كان ينخر في عظامه من سوس الفساد العقدي ، والجفوة الخلقية ، والعدوان والظلم .

وهكذا كان الإسلام يتخذ من الشعر مواقف ، تتلاءم وطبيعة كل مرحلة من مراحل الدعوة وظروفها ، فهو يوجه الشعر ويشجعه حين أتيح للمسلمين أن يتخذوا الشعر سلاحاً من أسلحة الصراع بين الدعوة وأعدائها في عهد النبوة ، ثم يزور عن هذا الشعر نفسه بعد فتح مكة حين رأى فيه خطراً على وحدة المسلمين ، ومن ثم « لا يصح أن يقال : إن الدين قد غرض من الشعر ونهى عنه ، كما لا يصح أن يقال : إنه شجع الشعر دون توجيه وتهذيب » (١) .

(ب) الضعف والازدهار في ألوان من شعر العهد الراشدى

- ١ -

تطلع الإسلام إلى ما ذكرنا ، وامتد بصره إلى ما وراء الجزيرة العربية من أمم وممالك ، واقتضاه هذا خوض غمار معارك كثيرة ، وليست بين القبائل العربية - باستثناء حروب الردة (١) - هذه المرة ، بل بينهم وبين

(١) لم نعثر في حروب الردة على شعر كثير ، وما وجدناه من شعرها قيل أكثره على ألسنة شعراء مرتدين ، يتحدثون فيه عن العصبية القبلية ، ويفخرون بها ، وكأنهم يتحدثون عن حروب جاهلية ، وليس في هذا الشعر شيء من معارضة الإسلام ، أو الطعن في مبادئه . والشعر القليل الذى قاله المسلمون في هذه الحروب ، لم يشارك فيه أحد من فحول شعرائهم ، اللهم إلا حسان بن ثابت ، ومع ذلك فشعره الذى قيل في هذه المعارك ضعيف ، سواء من حيث الطبقة الفنية ، أو ظهور الطابع الإسلامى ، والروح الدينية فيه (انظر ديوان حسان ٢٠٩ مثلاً) .

أما شعراء البادية الذين ثبتوا على إسلامهم وقالوا شعرا قليلا في تحريض المسلمين على قتال المرتدين ، فإننا نلمح تأثيرات إسلامية واضحة في أشعارهم ، كالفتخر بثباتهم على الدين ، واعتزازهم به ، والاعتراف بفضل الله عليهم . كما صورت هذه المعارك بروح إسلامية ظاهرة اليقين بالإسلام (انظر شعر المخضرمين ٢١٣ - ٣١٥) . من ذلك قول أحد شعراء كندة من السكون ، حينما ارتدت كندة ، وكان عليها زياد بن ليلى البياضى والياً ، وثبتت السكون منهم على الإسلام :

ونحن نصرنا الدين إذ ضل قومنا شفاء وشايعة ابن أم زياد

ولم نبغ عن حق البياضى مذحلاً وكان تقى الرحمن أفضل زاد

فالشاعر يكاد ينظم في عجز البيت الثانى قول الله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد

التقوى ﴾ ويبدو أن قصر مدة هذه الحروب ، وعودة العرب المرتدين إلى الإسلام سريعاً ، ثم اتجاههم إلى الفتح الإسلامى ، هو التعليل الصحيح لقلة الشعر الذى قيل في حروب الردة ، وبخاصة الإسلامى منه .

شعوب أخرى ، وممالك وحضارات مختلفة ، وكثيرة من هذه المجالات يطلب الشعر ، ليس أى شعر ، بل شعراً يعبر عن روح إسلامية ، وأغراض إسلامية .

واستجابت طائفة من شعراء المسلمين الذين تأثروا بالإسلام ، وانفعلوا له ، إلى نداء دعوتهم ، فقصروا جانباً من شعرهم على ما يطابق روح القرآن ، كالحث على العمل الصالح ، والموعظة الحسنة ، والنهي عن انتهاك حدود الدين ومحارمه ، وما يطابق أهداف الإسلام ، كمدح رجالاته ، ورثاء قادته ، ونشر دعوته ، والحض على الجهاد في سبيله ، ووصف معاركه ... ونحو ذلك مما ترويه كتب الأدب والسير والفتوح .

من ذلك قول عبدة بن الطبيب ، يوصي أبناءه بتقوى الله ، وبر الوالدين ، والحذر من التمام ، الذى يث الضغائن ، حتى بين الإخوة ، فيقول (١) :

أوصيكم بتقى الإله فإنه	يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
ويبر والدكم وطاعة أمره	إن الأبر من البنين الأطوع
ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم	إن الضغائن للقرابة توضع
واعصوا الذى يزجى التمام بينكم	متنصّحاً ذاك السّمَام المنقّع
يزجى عقاريه ليعث بينكم	حرباً كما بعث العروق الأندع

فالشاعر هنا يستمد معانيه من القرآن الكريم ، وينظم وصيته من الهدى الإسلامى ، وليس من العسير علينا أن نلاحظ الارتباط بين هذه المعانى التى طرقها الشاعر فى : التقوى ، وبر الوالدين وطاعتهم ، وخلق التمام

(١) المفضليات ١٤٦ (الطبعة الثانية - شاعر وهارون - دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م) . وانظر : الشعر والشعراء ٤٥٦ . الأندع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته بقية العروق .

المنافق ، وبين الآيات القرآنية التي تعالج هذه المعاني ويكفي أن نشير إلى بعضها هنا ، قوله تعالى في التقوى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (سورة الطلاق ٤/٦٥) وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ (الطلاق ٥/٦٥) وقوله في بر الوالدين والإحسان إليهما : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ (سورة الإسراء ٢٣/١٧) وقوله : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ (سورة مريم ١٤/١٩) وقوله في المنافقين : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ﴾ (سورة الأحزاب ٤٨/٣٣) .

وعلى الرغم من ارتفاع هذا الشعر في ميزان الأخلاق والدين ، فهو في ميدان الفن الشعري ليس بشيء ؛ لأنه أقرب إلى النظم المصنوع منه إلى الشعر المطبوع .

ولأمية بن حُرثان بن الأسكر أبيات رقيقة ، تشع بالحنان والعاطفة ، وفيها مع ذلك أثر من هدى الإسلام ، يناشد فيها ابنه كلاب أن يتدبر ما في كتاب الله من وصايا بالوالدين ، رعاية وبراً وإحساناً ، يقول فيها (١) :

لمن شيخان قد نشدا كِلابا	كتاب الله إن حفظ الكتابا
إذا هبث حمامة بطن وج	على بيضاتها ذكرًا كِلابا
تركت أباك مُرْعَشَةً يداه	وأملك ما تسيغ لها شرابا ؟

وكان كلاب ابنه قد هاجر إلى البصرة في خلافة عمر ، فلما سمع عمر هذه الأبيات المؤثرة ، كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه عليها ، أن يشخصه إلى أبيه ، فأشخصه .

(١) طبقات ابن سلام ١٩٠/١ - ١٩١

وهذا أبو محجن الثقفي يتوب عن الشراب توبة نصوحاً ، ويعاهد الله على ألا يعاوده ، ويشهده على ذلك ، فيقول (١) :

أتوبُ إلى الله الرحيم فإنه غفورٌ لذنب المرء ما لم يعاودِ
ولستُ إلى الصهباء يوماً بعائدٍ ولا تابع قول السفية المعانِدِ
وكيف وقد أعطيتُ ربِّي موثقاً أعودُ لها والله ذو العرش شاهِدِ

كذلك وردت معان وأفكار وألفاظ قرآنية في أبيات الحُصَيْن بن الحُمَام المري ، يقول فيها (٢) :

فلم يبق من ذاك إلا التقي ونفسٌ تُعالج آجالها
أمورٌ من الله فوق السما ء مقادير تنزل إنزالها
أعوذُ بربِّي من الخزيّا ت يوم ترى النفس أعمالها
وَحَف الموازن بالكافرين وزلزلت الأرض زلزالها
ونادى منادٍ بأهل القبو ر فهبوا لتبرز أثقالها
وسعرت النار فيها العدا ب وكان السلاسل أغلالها

فلم تكن هذه المعاني والأفكار في القضاء والقدر والآجال والحساب والبعث والعذاب لتتفق للشاعر ، لو لم يكن قد قرأ سورة القارعة ، والزلزلة ، والغاشية ، وغيرها ، أو تليت عليه .

وأمثال هذه الأشعار التي تنم عن روح إسلامية ، وتنظم في معان قرآنية ، كثير في شعر هذه الفترة ، وهي وإن كانت من الشعر الحسن من الناحية الدينية ، فإنها ضعيفة النسيج ، ركيكة الأسلوب فنياً ، في مجموعها .

وقريب من هذا الشعر تأثراً بالإسلام وضعفاً في الفن الشعري - على درجات متفاوتة - ما قيل في رثاء قادة الإسلام في عهد الراشدين .

(١) ديوانه ١٢

(٢) الأغاني ١٣٢/١٢

من ذلك رثاء أبا محجن الثقفي أبا بكر الصديق ، وفيه يقول (١) :
وسميت صديقاً وكل مهاجرٍ سواك يسمى باسمه غير منكر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحباً وكنت رفيقاً للنبي المطهر
سبقت إلى الإسلام والله شاهدٌ وكنت جليساً بالعريش المشهر

فهو ينظر في البيت الثاني إلى قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ ﴾ (٢) .

ونلمس ما في هذه الأبيات من ضعف فني في تكرار كلمة (بالغار) في شطر واحد ، دون مزية في المعنى أو حاجة للتكرار ، اللهم إلا تكملة الوزن ، وفي استخدام كلمتي (المطهر - المشهر) استيفاء للقافية لا غير .

ولما قتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي ، رثاه جزء بن ضرار - أخو الشماخ - وذكر قاتله ، ووصفه بأنه عدو (أزرق العين) لقيم ، خبيث ، وأثنى على عمر ، وأشاد بأياديه على الإسلام ، وتوقع الشر بعد وفاته ، فقال (٣) :

جزى الله خيراً من إمامٍ وبارك	يدُ الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعامٍ	ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها	بوائج في أكمامها لم تُفتق
أبعد قتيل بالمدينة أظلمت	له الأرض تهتز العضاء بأسوق

(١) الأغاني ٢١/١٤٣

(٢) سورة التوبة : ٤٠

(٣) ينسب هذا الشعر خطأ للشماخ ، وهو لجزء أخيه في كثير من المصادر . انظر : ديوان الشماخ (بتحقيقنا) ٤٤٨ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م) . بوائج : دواهي . العضاء : شجر ضخمة . نثي خبر : يقال نثا الخبر إذا شاع . السبتي : الثمر الخبيث .

تظل الحصانُ البكرُ يُلقى جنينها نثى خبر فوق المطى معلق
وما كنتُ أخشى أن تكون رفائه بكفى سببتي أزرق العين مُطرق

فهو يدعو لعمر أن يجزيه الله أحسن الجزاء ، على ما قدمت يداه
للإسلام والمسلمين ، وأن يبارك أديمه الممزق بسلاح القاتل ، كما يتحدث
الشاعر عن سيرة عمر في المسلمين ، ورعايته التامة لشئونهم ، وأنه أحكم
أمرهم ؛ ولذا فإن موته كارثة ، تخفى بعدها دواهي لا تزال مستورة ، وهو
بهذا يصور مبلغ الكارثة بفقده .

وهذا الرثاء تمليه روح إسلامية ، فالشاعر لا يرثى عمر لشخصه ، وإنما
يرثى فيه العدل ، ورعاية مصالح المسلمين ، وهو إلى جانب هذا جيد الطبقة
فنياً ، لا نرى فيه ما لاحظناه في شعر أبي محجن السابق ، من ضعف وتفكك .
كذلك نجد في رثاء حسان بن ثابت عثمان بن عفان ، طابعاً إسلامياً ،
وإن لم يبلغ من الجودة مبلغ أبيات جزء بن ضرار في عمر ، يقول حسان (١) :

يا للرجال لدمع هاج بالسنن إني عجبْتُ لمن ييكي على الدمن
إني رأيتُ أميرَ الله مضطهداً عثمانَ رهنا لدى الأحداث والكفن
يا قاتل الله قوماً كان شأنهم قتل الإمام الأمين المسلم الفطين
ما قاتلوه على ذنب ألم به إلا الذي نطقوا بوقاً ولم يكن
إذا تذكّرتُه فاضتُ بأربعة عيني بدمع على الحدين محتين

والحق أن شعر حسان بعد وفاة الرسول تكاد تخمد جذوة الشاعرية
فيه ، فقد كان في شغل باجتراح ماضيه الشعري أيام الرسول ، عن الانفعال
بأحداث حاضره أيام الراشدين فيما يبدو .

(١) ديوانه ٤/١ . بوقا : باطلا . محتن : متابع .

ومما رثى به الإمام على ، قول أبي زيد الطائي (١) :

رَهْطُ امْرِئٍ خَارُهُ لِلدِّينِ مُخْتَارُ	إِنَّ الْكِرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خَلْقٍ
يُعْدَلُ بِحَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ أَحْبَابُ	طَبَّ بَصِيرٍ بِأَضْغَانِ الرِّجَالِ وَلَمْ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَقْتُ وَمِقْدَارُ	وَقَطْرَةٍ قَطُرَتْ إِذْ حَانَ مَوْعِدُهَا
عَلَى إِمَامٍ هُدَى إِنْ مَعَشَرَ جَارُوا	حَتَّى تَنْصَلَهَا فِي مَسْجِدِ طُهُرٍ
وَأَوْجِبَتْ بَعْدَهُ لِلْقَاتِلِ النَّارُ	حُمْتُ لِيَدْخُلَ جَنَاتِ أَبُو حَسَنِ

وفي هذا الشعر من التأثير بالإسلام ، ومن التهافت الفني ما لا يخفى . والملاحظ على رثاء الراشدين بعامة ، أنه قصير النفس ، فأكثره مقطعات قصيرة ، أو أبيات قليلة ، لا ترتفع إلى مستوى المرثى ، ومكانته الإسلامية ، باعتباره خليفة رسول الله ، وراعى شئون الدعوة الإسلامية ، والمنفذ لأحكام الإسلام فيما يصلح العباد والبلاد ، بل إن من هذا الرثاء ما يصلح لأن يرثى به زعيم جاهلي ، أو شيخ من شيوخ العشائر في الجاهلية ، إذا تجاوزنا عما فيه من بعض الألفاظ والمعاني الإسلامية .

هذه أمثلة من الشعر المتأثر بروح الإسلام ، أو المتحدث عن رجالاته ، ولعل هذا الشعر - بخاصة - هو الذي يقصده بعض مؤرخي الأدب ، عندما يقولون بضعف الشعر في صدر الإسلام .

فلقد تضافرت عوامل عدة (أشرنا إلى أهمها في صدر هذا الحديث) جعلت الشعر يتعد عن دواعيه الموروثة ، التي تثير الشر في النفوس ، وتشعل الأحقاد ، والتي كانت تقوم ، كما يقول أبو هلال : « على الكذب والاستحالة الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات ، والألفاظ الكاذبة ، من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان » (٢) .

(١) الكامل للمبرد ١٢٩/٢ . تنصلها : استخرجها . حمت : قدرت .

(٢) الصناعتين ١٠٣

ولعل هذا هو ما قصده الأصمعي بقوله : « الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف » (١) .

ويؤيد هذا ما رواه ابن قتيبة : « قال عبد الله بن مروان لأرطاة بن سُهَيْبَة : هل تقول الآن شعراً ، فقال : ما أشرب ، ولا أطرب ، ولا أغضب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه » (٢) .

ومهما يكن موقفنا من هذه الروايات ، ومدى صدق ما تذهب إليه ، فما لا شك فيه ، أن هذه الألوان السابقة من الشعر في عهد الراشدين ، لا ترتفع إلى المستوى الفني ، الذي يتيح لنا أن نقف من هذه الآراء موقف الرفض التام .

- ٢ -

الشعر في ظل الفتوح الإسلامية :

كان العهد النبوي قد استغرقه كفاح مرير من النبي ﷺ وصحابته ضد قوى الشرك ، وكان من أهم نتائج هذا الكفاح أن سقطت مكة معقل الوثنية ، وأقبلت وفود القبائل العربية من أنحاء الجزيرة تباعب النبي على الإسلام ، وتدخل في دين الله أفواجاً ، وبذا حقق الإسلام المرحلة الأولى الضرورية ، لانطلاقه إلى العالم الخارجي ، حيث الأمم والممالك المجاورة لجزيرة العرب ، ومن كان خاضعاً لسلطانها من القبائل على تخوم الشام والعراق ، والأمم والممالك البعيدة عنها ، والتي كان الإسلام يتطلع إليها باعتباره ديناً للناس كافة من لم يعتنقه منهم فهو كافر .

(١) الشعر والشعراء ١٧٠

(٢) عيون الأخبار ١٨٤/٢ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ - ١٩٢٨ م) .

ولم ينقض العهد النبوي حتى كان الرسول ﷺ قد اتخذ بعض الخطوات الأولى لتأكيد عالمية الإسلام ، ووجوب إشراقه على جميع الأمم ، أسودها وأحمرها ، فوجه جيشاً إسلامياً لغزو تخوم المستعمرات الرومية في الشام فيما يعرف بغزوة مؤتة ^(١) عام ٨ هـ ، وفي العام التالي توجه بنفسه على رأس جيش آخر للغرض نفسه في غزوة تبوك ^(٢) ، وقبيل وفاته أمر أسامة بن زيد على حملة للتوجه إلى فلسطين التي كانت من مستعمرات الروم أيضاً ، ولكنه توفي قبل أن تسير هذه الحملة ^(٣) .

وأغلب الظن أن الرسول ﷺ لم يقصد بهذه الحملات المحدودة العدد والعدة غزو بلاد الروم وإخضاعها لسلطان الإسلام ، بقدر ما أراد أن يثبت لأولياء الأمر من بعده والمسلمين ، أن نشر الدعوة خارج الجزيرة واجب مقدس ، يجب أن يحرصوا عليه ، ويعملوا جاهدين على تنفيذه .

وهكذا كان نشر الدعوة وانفتاحها على العالم أقدس واجب ألقاه الرسول على عاتق خلفائه من بعده ؛ ولذا أصر الخليفة الأول أبو بكر على إنفاذ جيش أسامة ، عقب توليه الأمر ، على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت الدولة الإسلامية تمر بها آنذاك .

وقد تجلّى أثر الإسلام عقيدة وإيماناً وفكراً في حمل العرب على البذل والتضحية والفداء ، في سبيل نشر دينهم الذي ارتضوه ، اعتقاداً بأنه خير دين ارتضاه الله لهم ، وأن نبيهم الذي بعث فيهم إنما بعث إلى الناس كافة ، وأنهم هم ورثته في هداية الأمم الضالة إلى طريق الحق ، فاندفعوا في حماس

(١) انظر خبرها في السيرة ق ٣٧٣/٢ وما بعدها .

(٢) انظر خبرها في السيرة ق ٥١٥/٢ وما بعدها .

(٣) انظر : السيرة ق ٦٤١/٢

بالغ ينتشرون بهذا الاعتقاد والشعور خارج حدود بلادهم إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الشمال ، لا يابهون بقوة في الأرض ، واثقين الثقة كلها بنصر الله ، آمليين كل الأمل في إحدى الحسينيين : الشهادة ، أو النصر (١) .

اندفع الجند الإسلامي إلى ميادين الجهاد في وحدة رائعة ، شعارها : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (٢) .

بنعمة الله هذه استطاع المسلمون هدم إمبراطوريتين عريقتين قويتين ؛ ليرفعوا على أنقاضهما أسس إمبراطورية إسلامية عظيمة في مدة وجيزة أذهلت التاريخ ، وأن يقهروا جحافل جيوشهما ، التي كان العرب قبل الإسلام يحسبونها قوة لا تقهر ، ودك حصونهما التي توهموها منيعة لا تؤخذ ، وضربوا في كل ذلك أمثلة عليا من البطولة مازالت أنشودة في فم التاريخ ، وأسوة حسنة لكل أمة تريد أن تحفظ على نفسها عزتها وكرامتها .

فماذا كان من وراء هؤلاء القوم يدفعهم إلى هذه البطولات الخارقة ، ويحبب إليهم التضحية بالدعة والراحة ، وإلف الوطن ، وقرب الأهل والأحباب ، بل بذل النفس عن رضى ولهفة واستبشار ؟؟

يقول الدكتور طه حسين : « ولا شك في أن القرآن هو المؤثر الأول في هذا كله ، كانوا يقرءونه ، أو يقرأ عليهم ، فيملأ نفوسهم روعة ، وقلوبهم إيماناً ؛ ويدفعهم هذا كله إلى أن يفعلوا الأعاجيب ، وإلى أن يتيحوا لقائد من قوادهم - هو خالد بن الوليد - أن يكتب إلى بعض محاربيه حين

(١) شعر الفتوح الإسلامية (النعمان القاضي) الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

١٩٦٥ م .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣

دعاهم إلى الإسلام ، أو إلى الخضوع وأداء الجزية ، ثم قال لهم بعد ذلك :
فإن أبيتم فإنني قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

واقراً إن شئت حديث الفتح في كتب التاريخ ... فسترى فيما تقرأ
من العبر والعظات والأعاجيب ما يقنعك بأن بلاء المسلمين في تلك
الحروب ، وما أتيج لهم من الظفر ، إنما كان نتيجة لأثر الإسلام والقرآن
خاصة في نفوس أولئك المجاهدين ، وانظر إليهم حين يتلو عليهم القاص
الذي كان يطوف على الجنود فيعظهم ، ويحمسهم للحرب ، حين يتهيأوا
للقاء العدو ، انظر إليهم حين يتلو عليهم هذه الآية الكريمة ... مثلاً :
﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ، وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ،
وَلَا نَصَبٌ ، وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ ،
وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ ثِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فأى غرابة في أن تملأهم هذه الآية وأمثالها من آيات القرآن الكريم
ثقة وأمناً ، وأملاً واطمئناناً إلى أنهم من غير شك ظافرون بإحدى
الحسينين ، فإما الانتصار على العدو ، والفوز بما في أيديهم من الملك وزهرة
الحياة الدنيا ، مع الأجر العظيم عند الله ، وهو خير من كل ما ظفروا به ،
وإما الفوز بنعمة الشهادة والحياة عند الله ، « فرحين بما آتاهم الله من
فضله ، ومستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم
ولا هم يحزنون » (٢) .

ونحسب أن هؤلاء العرب المسلمين ، الضارين في ممالك الفرس

(١) سورة التوبة : ١٢٠

(٢) مرآة الإسلام ٢٤٨ ، ٢٤٩

والروم وغيرهما ، شرقا حيث العراق ، وفارس إلى حدود الصين ، وشمالا حيث الشام إلى بحر قزوين ، وغربا حيث مصر وتونس ، نحسب أن هؤلاء قد تأثروا نفسيا وحضاريا بما شاهدوه في هذه النواحي المفتوحة ، من طبيعة جديدة عليهم ، فيها الأنهار والخصب والحضارة العريقة ، وفرق بين نفسية وخيال عربى لم ير إلا الصحراء ، ونفسية وخيال عربى رأى ما لم يسبق له رؤيته أثناء الفتوح من ممالك الفرس ، ومستعمرات الروم ، فضلا عما استشعره العرب المسلمون الفاتحون من ثقة واعتداد بأنفسهم ، واعتزاز بدينهم ، وهم يرون هذه الممالك العريقة في الحضارة ، تنهار تحت ضربات سيوفهم ، بعد أن كانوا « يسمعون بالرومى أو الفارسى ، فيعظمون قدره ، ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى » (١) .

والآن ، ما مكانة الشعر خلال هذه الملاحم البطولية ؟ هل عايشها ، وسار في ركابها ، وانطلق معها إلى البيئات الجديدة ، فرأى وسجل ، وأحس فعبر ؟ أم ضل طريقه إليها ، وتخلف دون أحداثها .

لقد شغلت هذه الفتوح طاقة الأمة العربية المسلمة كلها ، وانتظم في ميادينها كل قادر على حمل السلاح من شباب المسلمين وشيوخهم ، وفيهم من الشعراء ، ومن كمننت فيه موهبة الشعر عدد غير قليل ، غير أن أحداث المعارك المتلاحقة السريعة ، وحركات الجيوش التي لا تهدأ في انتفاها من معركة إلى معركة ، ومن جهة إلى أخرى قد أوجت إلى بعض المؤرخين والباحثين ، بأن المواهب الشعرية قد ألهتها هذه الأحداث والحركات عن قول الشعر ، وكان ذلك - عندهم - عاملا من عوامل انكماش الشعر وضعفه في صدر الإسلام (٢) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ٢١٥/١
(٢) انظر مثلا طبقات ابن سلام ٢٥/١ ، والإسلام والشعر ٣١ ، وشعر المخضرمين

ولقد يبدو لنا الأمر على خلاف ما زعم هؤلاء ، فما كان للفتوح وما رافقها من حركات وهجرات وصراع أن تذهب بالمواهب الفنية للنفس العربية ، فتشغلها عن الشعر الذى ألفته ومرنت عليه ، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنرى أن الفتوح الإسلامية كانت خيرا وبركة على الشعر فى هذه الفترة ، لأنها أذكت جذوة الشعر العربية ، وأطلقت الألسن من عقالها ، بما فتحت أمام الشعر من مجالات واسعة ، وبما وضعت أمام الشعراء من مواقف شبيهة بالمواقف التى ألفوها ، وألفها الشعر فى الجاهلية ، مع اختلاف الهدف اختلافا كبيرا ، نعى أنها أزال حرج الشعراء فى طرق أبواب من الشعر ، كان محظورا عليهم تناولها ، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ، ما داموا جميعاً يذودون عن العقيدة ، ويبدلون الأرواح رخيصة فى سبيلها ، أما قبل الفتوح فإن الفخر بذلك كان يعد انحرافا عن حدود المهمة التى نيّطت بالشعر ، إلى إثارة النعرات والعصبية التى يحاربها الإسلام ، ويطارد مشيرها .

نعم ، لا ضير على المسلم إن شعر بما لقبيلته من بلاء عظيم فى سبيل العقيدة ، كما فعل نافع بن الأسود بن قطية التميمى حين افتخر بصدق جهاد قومه بنى تميم فى القادسية (١) :

وقال القضاة من معدّ وغيرها	تميمك أكفاء الملوك الأعاضيم
هم أهل عز ثابت وأرومة	وهم من معدّ فى الذرا والغلاصم
وهم يضمّنون المال للجار مأثوى	وهم يطعمون الدهر ضربة لازم
لذلك كان الله شرف فر	سانها فى الزمان الأول المتقاديم
وحين أتى الإسلام كانوا أئمة	وبادؤا معدا كلها بالجرائم
إلى هجرة كانت سناء ورفعة	لباقهم فيهم وخير مُراغم

(١) الإصابة ٦/٢٦٢ (المطبعة الشرفية - القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

فجاءت بهم في الكتائب نصرة فكانوا حماة الناس عند العظام
فصفوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم

فهل كان شاعر يستطيع قول مثل هذا الشعر في المسجد - مثلاً -
وعمر بن الخطاب يمسك بأذن حسان بن ثابت ؛ ليعنفه على ما قال من
شعر شبهه بأنه رغاء كرعاء البكر ؟؟

ولا يقف الأمر عند حد هذه البجوحة الشعرية ، إذ ينبغي ألا ننسى
ما خاضه الشعراء خلال الفتوح من تجارب طريفة ، تعرضوا لها في ظروف
جديدة عن حياتهم السابقة تمام الجدة ، فصاغوها بما تأتي لهم من مشاعر .
إلى جانب هذا ، هناك حقيقة في تاريخ الشعر العربي يجب ألا تغيب
عن أذهاننا ، فلقد كان هذا الشعر شديد الالتصاق بالحركات الحربية في
تاريخه كله ، في الجاهلية والإسلام ، يواكبها ، ويزدهر في ظلها ، ولسنا نرى
شعر الفتوح الإسلامية استثناء من هذه القاعدة .

بل لقد تمتاز حروب الجهاد هذه بأنها أبرزت شاعرية كثير من
الشعراء المغمورين ، الذين لم يدع لهم شعر قبل اشتراكهم فيها ، فسارت
بأشعارهم الركبان ، وسجلت أسماءهم في أذهان العرب ، من هؤلاء على
سبيل المثال : نافع بن الأسود بن قطبة التميمي السابق الذكر ، وعمرو بن
مالك الزهري ، والأعور الشنئ ، وحسان بن المنذر الضبي ، وكثير بن
الغريزة النهشلي ، وزهير بن عبد شمس البجلي وغيرهم ، كما أنها أنطقت قوما
بالشعر ، ولم تكن لهم سابقة في ميدانه ، لكنهم لما حملوا السلاح ، وخاضوا
المعارك الدينية ، بإحساس المجاهدين الصادقين ، فاضت نفوسهم بالأبيات
أو المقطعات القصيرة ، تسرية وتنفيساً ، وحثاً لنفوسهم وتحميساً ، وهؤلاء
يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين ، وإن الإنسان ليدش حقاً أمام هذه
الكثرة من الشعراء ، حتى ليخيل إليه أن الفاتحين جميعاً قد استحالوا شعراء

في الفتوح ، وخير نموذج هؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر لأول مرة ، وذاعت شهرتهم فيها مرتبطة بالشعر : القعقاع بن عمرو التميمي (١) .

والحق أن هذه الفتوح هيأت عديدا من الظروف ، التي تعمل على بعث الشعر وازدهاره ، فخلفت ثروة شعرية في شتى الأغراض ، تعد بمثابة وثائق تاريخية ونفسية هامة في تاريخ الأدب العربي ؛ من حيث كونها تمثل مرحلة حية من مراحلها ، طالما تجافى عنها الدارسون ، أو مروا بها مرورا عابرا ، دون أن يكلفوا أنفسهم أكثر من أن يرجعوا إليها احتضار الشعر ، أو خموله وضعفه .

اضطلع شعر الفتوح الإسلامية بكثير من المهام ، التي تكون في مجموعها صورة مشرقة للوثبة الهائلة الواسعة ، التي انطلقت بالعربى من حيزه الضيق ، لتطوف به في أرجاء ممتدة بعيدة لم يستشرفها من قبل ، فقدم صورا عديدة للفروسية العربية في إطارها الإسلامى ، وعبر - أحيانا - عن نفحات الإيمان القوية ، والتصديق العميق بما وعد الله به المجاهدين من عباده ، وسجل معارك المسلمين ونتائجها ، وصداها في تلك النفوس العربية ، وما استحدثته من ظروف الاغتراب والبعد عن الأوطان ، وما يستتبعه من حنين إليها ، وإلى الأهل والأحباب فيها ، وقد يعرج الشعر على بعض المشاهد الغربية التي عاينها المسلمون لأول عهدهم بها ، في مناطق نائية ، فيصور انطباعات الشعراء بها ، وانعكاساتها على أنفسهم ، أو ينهض برثاء الذين فازوا بالشهادة في ميادين الجهاد .. إلى غير ذلك مما عاجله هذا الشعر ، ونجده ماثولا في المراجع العديدة ، التي تؤرخ للفتوح ، أو تروى شيئا عنها .

(١) انظر : شعر الفتوح الإسلامية ٢٢٩ - ٢٣٤

ويحسن هنا أن نستعرض بعض النماذج من شعر الفتوح الإسلامية في مختلف أغراضه ، محاولين على ضوء دراستها تقديم بعض الدلالة على ما سبق أن ذكرنا ، من أن هذه الفتوح قد هيأت ظروفًا عديدة لبعث الشعر وازدهاره ، على أن نحرص من خلال هذه الدراسة على التماس ما فيه من هدى الإسلام ، أو تمثل لروحه ، ونزعاته ، أو تأثر بمعاني القرآن وعباراته .

أكثر شعراء الفتوح الإسلامية من الإشادة ببطولات المجاهدين خلال هذه الملاحم ، وما كان فيها من إقدام وبسالة ، وصور رائعة للتضحية والفداء ، وهم يصورون أيضا من خلال ذلك ، قسوة المعارك ، وضراوة القتال ، وشدة اللقاء ، في شعر حماسي ، تعلو فيه نغمة الفخر بالجماعة الإسلامية ، أو بالنفس ، أو بالغير .

من ذلك قول خليل بن المنذر في معركة (طاووس) بأطراف فارس ، مشيدا ببلاء جماعة المسلمين ، وبسالتهم ، وإيقاعهم بالعدو (١) :

بطاؤوس ناهبنا الملوك وخيلنا عشية شيراك علون الرواسيا
أطاحت جموع الفرس من رأس حالق تراه كموار السحاب مُناغيا
فلا يبعدن الله قوماً تتابعوا فقد خضبوا ، يوم اللقاء العواليا

وفي موقعة (نهاوند) بين المسلمين والفرس بقيادة الفيرزان ، يقول القعقاع بن عمرو ، مصوراً بطولة الجند الإسلامي ، وتنكيلهم بالعدو (٢) :

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا لشر ليال أنتجت للأعاجم
ملأنا شعباً في نهاوند منهم رجالاً وخيلاً أضمرت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا فلم يُنْجِه منها انفساح المحارم

وقد يمزج الشاعر بين الإحساس الجماعي والفخر الشخصي ، معبرا من خلال ذلك ، عن البطولة الجماعية والفردية في لقاء العدو ومجالدته .

(١) معجم البلدان (ياقوت الحموي) ٢/٢٩٤ (طبعة ليزج ١٨٦٦ م) .

(٢) المرجع السابق ٨٣٨/٤

من ذلك قول نُعَيْم بن مقرن قائد جند المسلمين في موقعة (واج روذ)
بهمذان ، حيث تصدوا لقائد الفرس (موتا) ونكلوا به تنكيلا شديداً (١) :

ولما أتاني أن موتا ورهطه	بنى باسل جرّوا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالحديد كأننا	جبال تراءى من فروع القلاسم
صدمناهم في واج روذ بجمعنا	غداة رَمِيناهم بإحدى العظام
فما صبروا في حومة الموت ساعة	لحد الرماح والسيوف الصوارم
أصبنا بها « موتا » ومن لفّ جمعه	وفيها نهاب قسمة غير عاتم
تبعناهم حتى أروا في شعابهم	نقتلهم قتل الكلاب الجواجم

فقد اتخذ الشاعر من وصف المعركة وما دار فيها ، وسيلة إلى الفخر
بصدق جهاد جنده الإسلامي ، والإشادة بنفسه .

أما الشماخ بن ضرار الديباني فقد عرج على وصف بلاء قائد
سريته ، بُكَيْر بن الشداخ ، في موقعة (موقان بأذربيجان) ، وأثنى على
بطولته ، وعظيم تضحيته ، ولم ينس إلى جانب ذلك أن يفخر بنفسه
واقدامه ، وبسالته (٢) :

لقد غادرت خيل بموقان أسلمت	بُكَيْر بنى الشداخ فارس أطلال
فتى كان يروى سيفه وسنانه من	العلق الآتي لدى المُجَحَّر التالي
وقد علمت خيل بموقان أننى	أنا الفارس الحامي لدى الموت نزال

ونستطيع أن نقرأ أبيات الشماخ كاملة في ديوانه ، ولن نجد فيها تمثلا
واضحاً لفكرة الجهاد الدينى ، أو تأثراً بمعنى إسلامى ، شأنه في ذلك شأن

(١) المرجع السابق ٨٧٢/٢

(٢) ديوانه ٤٥٦ . أطلال : اسم فرس بكير . العلق الآتى : الدم الشديد الحمرة .

المجحر : المضيق .

غيره من الشعراء الذين مرت بنا أشعارهم ، مع أن المواقف كانت جديدة بأن تبرز فكرة الجهاد واضحة في أشعارهم ، ولو لم نعرف أن هذه الأشعار قيلت في معارك إسلامية لظنناها لبعض الشعراء الجاهليين ، في ذكر مواقع جاهلية ، مع استبدال أسماء ما بها من أماكن بغيرها من مواضع البادية . على أن شعراء الفتوح كثيراً ما يعمدون إلى الفخر الشخصي مباشرة ، ويقصرون شعرهم على التمدح ببطولتهم ، وإقدامهم ، وفعلهم في العدو .

من ذلك قول قيس بن المكشوح المرادى ، يصف قيادته الخيل من صنعاء إلى (القادسية) ويفخر بأنه قتل (رسم) قائد الجيوش الفارسية (١) :

جلبت الخيل من صنعاء تردى	بكل مدجج كالليث سام
إلى وادى القرى فديار كلب	إلى اليرموك فالبلد الشام
وجئن القادسية بعد شهر	مُسومة دوابرها دَوامى
فناهضنا هناك جموع كسرى	وأبناء المرازنة الكرام
فلما أن رأيتُ الخيل جالت	قصدتُ لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعاً	بسيف لا أفل ولا كهام
وقد أبلى الإله هناك خيراً	وفعل الخير عند الله تامى

ففى هذا الشعر مسحة دينية ، ولكنها خافتة ضعيفة ؛ إذا لم يوفق الشاعر فى إبراز الجانب الدينى من الجهاد فى سبيل الله إلا فى البيت الأخير ، وبشكل عام ، بينما شغل عن المعانى الدينية ، بوصف المعركة ، والتهيو لها ، وبالحديث عن رحلته من صنعاء إلى القادسية ، والفخر بشجاعته وبطولته .

(١) فتوح البلدان (البلاذرى) ٣٣/٢ . تردى : تضرب الأرض بحوافرها لقوتها وسرعتها . الدوابر : العراقيب . دوامى : ملطخة بالدماء : والمرازبة : رؤساء الفرس : أفل : مثلم . كهام : لاغناء فيه ، وأصله : السحاب الذى لا مطر فيه .

والواقع أن شعر الحماسة في الفتوح الإسلامية ، تقل فيه الآثار الدينية ، والملاحم الإسلامية ، فنحن نقرأ في هذا الشعر باحثين عن هذه الآثار والملاحم فلا نكاد نصيبها إلا الحين بعد الحين ، وإنما أكثرهم الشاعر أن يتغنى بشجاعته ، وصدق لقائه ، ولا يكاد يصرح بفكرة الجهاد الديني إلا قليلا ، مع أن هذه الفكرة كانت بارزة عند شعراء الرسول في العهد النبوي ، في شعرهم الذي يتحدث عن الغزوات خاصة ، نلمسها في شعر حسان وصاحبيه ، كعب وابن رواحة (١) .

على هذا النحو كان أكثر شعر الفتوح ، فاللمسات الدينية فيه ضعيفة - إلى حد ما - مع كون هذه الحروب جهاداً في سبيل الله ونشر دينه ، وقد حث الإسلام عليها ، وجعل الجنة جزاء لشهادتها ، فالشعراء لا يعرجون على هذه المعاني الدينية إلا في ذكر عارض ، يتناثر خلال شعرهم في المعارك الإسلامية لهذا العهد .

ولست أرى تعليلاً معقولاً لضعف فكرة الجهاد في شعر الفتوح ، إلا أن يكون اندفاع المسلمين إلى الفتح تحت تأثير هذه الفكرة - كما قدمنا - قد أغناهم عن التصريح بها في أشعارهم .

ومع ذلك فقد استطاع بعض شعراء الفتوح أن يصور في وضوح إيمانه بقضية الجهاد ، فاكتسى شعره صبغة إسلامية بارزة .

من ذلك قول عروة بن زيد الخيل الطائي ، في معركة (نهاوند) (٢) :

(١) انظر مثلاً : ديوان كعب ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ وديوان حسان ١٥٠ ، ١٥١ ،

١٧٩ - ١٨١

(٢) الأخبار الطوال (أبو حنيفة الدينوري) ١٣٨ (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد

القومي - القاهرة ١٩٦٠ م) .

ألا طرقت رحلى وقد نام صحبتى بياوان شبرين المزخرف خلتى
ولو شهدت يومئى جلواء حربنا ويوم نهاؤند المهول استهلت
إذن لرأث ضرب امرىء غير حامل مجد بطعن أروع مصلت
ولما دعوا ياعروة بن مهلهل ضربت جموع الفرس حتى تولت
دفعت عليهم رجلى وفوارسى وجردت سيفى فيهم ثم آلتى
وكم من عدو أشوس متمرد عليه بخيل فى الهياج أظلت
وكم كربة فرجتها وكربة شددت لها أزرى إلى أن تجلت
وقد أضحت الدنيا لدى ذميمة وسليت عنها النفس حتى تسلت
وأصبح همى فى الجهاد ونيتى فلله نفسى أدبرت وتولت
فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابها ألا إنها عن وفرا قد تجلت

ففكرة الجهاد الدينى هى النعمة البارزة فى هذا الشعر ، حيث يفخر
الشاعر بتفريج كرب المجاهدين فى هذه الحرب ، وكشف الأهوال عنهم ،
ويعلن فى صدق وصراحة ووضوح أنه ارتضى الجهاد سبيلا ، دون أن تكون
له رغبة فى زينة الدنيا وزخرفها ، فقد باع كل شىء فيها بثواب الله ، برغم
ما تدفعه الدنيا إليه وإلى غيره من كنوز ، فلا يغريهم كل هذا ؛ لأنهم
خرجوا فى سبيل الله وحده .

كذلك ألم شاعر آخر بفكرة الجهاد ، فهناك أبيات قليلة عن
القادسية ، تصور بلاء الشاعر وقومه فيها ، وتشيد بأحد القواد الذى اندفع
عقب القادسية لغزو قرى السواد وفارس ، فى حماس رائع ، ولا هم له
إلا الجهاد وطاعة الرحمن (١) :

والقادسية حين زاجم رستم كنا الحماة بهن كالأشطان
الضارين بكل أبيض مخدّم والطاعنين مجامع الأضغان

(١) ذيل الأمالى والنوادر للقالى ١٤٥/١ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م) .

ومضى ربيع بالجنود مشرقاً ينوى الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قرى السواد وفارس والسهل والأجبال من مكران
وهذا أوس بن بجير الطائي يرى في جهاد المسلمين سوط عذاب ،
سلطه الله على رقاب أعداء دينه ، فيقول (١) :
ليت أبا بكر يرى من سيوفنا وما نجتلى من أذرع ورقاب
ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصبُّ على الكفار سوطَ عذاب
والشاعر ينظر في البيت الثاني إلى قوله تعالى : ﴿ فصب عليهم ربك
سوط عذاب ﴾ (٢) .

ولئن كان الطابع الغالب على شعر الحماسة في الفتوح الإسلامية ،
هو الفخر والمدح ، فإن هذين الفنين يختلفان في هذا الشعر عنهما في
الجاهلية .

إذ كان أساسهما عند الجاهليين الإشادة - غالباً - بالانتماء القبلي ،
والخصائص القبلية ، وما تتمثل فيها من عصبية الدم والنسب ، أما هنا
فالأساس هو الوجدان الجماعي لجماعة المسلمين ، والانطلاق من فكرة
الجهاد في سبيل نصره الدين لا نصره القبيلة والانتقام لها ، حتى ولو لم
يصرح الشاعر بالباعث الديني في شعره .

ولما كانت هذه الفتوح قد انتزعت المسلمين المجاهدين من أوطانهم ،
وباعدت بينهم وبين ذويهم ، وأحبابهم ، فإننا نجد شعراً غير قليل يعبر فيه
بعض الشعراء المجاهدين عن حنينهم للأوطان والأهل ، فيتشوقون إلى مرابعهم
الأولى ، ويحنون إلى أهلهم الذين فارقوهم ، ويشكون البعد والاعتراب .

(١) الإصابة ١١٧/١

(٢) سورة الفجر : ١٣

فهذا شاعر يستبد به الحنين إلى ديار الأهل والأحبة في نجد ، فيتجه بنظره ناحيتها ، ومع أنه لا يرى شيئاً ، فإنه يتخيلها بعين الحنين ، يتخيل خيامها ، ومزابعها وترابها ، وزهورها ، ثم تجرى عبراته غزيرة على خديه ، وهو على هذه الحال كل يوم ، لا يستريح قلبه ، فإما مجاهد في غزاة ، أو ناء يتذكر (١) :

أكرر طَرْفِي نحو نجد وإنني برغمي وإن لم يُدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها إذا أمطرت عودٌ ومسكٌ وعنبرٌ
بلادٌ كأن الأقحوان بروضيه ونور الأقاليم وشئ بُردٍ مُحبرٌ
أحنُّ إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرف يقصُر
وما نظري من نحو نجد بنافع أجل لا ولكني إلى ذاك أنظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبْرَ لعينك مجرى مائها يتحدّر ؟
متى يستريح القلب إماً مجاوز بحرب وإما نازح يتذكر ؟

ويتذكر شاعر آخر صاحبه بنجد ، فتهيج الذكرى دموعه ، وجداً على نجد ومن بنجد ، ويتنسم برد رياح دياره ، وطيب مناخها ، ضائقاً بغرته بين أناس ليسوا من قومه ، ولا من عشيرته ، ولا من لسانه ، فيقول (٢) :

أتبكي على نجد ورثاً ولن ترى بعينك رثاً ما حييت ولا نجداً
ولا مشرفاً ما عشت أقفار وجرة ولا واطناً من ترهين ثرى جعداً
ولا واجداً ربح الخزامى تسوقها رياح الصبا تعلق دكادك أو وهدا
تبدلت من رثاً وجارات بيتها قري نبطيات يسميني مژداً
ألا أيها البرق الذي بات يرتقى ويجلو دجى الظلماء ذكرتنى نجداً

(١) معجم البلدان ٤/٤٤٧

(٢) المرجع السابق ٤/٩٠٦

وهناك العديد من نماذج هذا الحنين في شعر الفتوح الإسلامية ، وهو على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامي ، ذلك أنه يلتف في نطاق وجداني رقيق ، تنسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية في تدفق وحرارة وصدق .
ثم هو ضرب من الشعر راج وازدهر ، في ظل حياة الفاتحين في بيئات جديدة عليهم ، بعيدة عن أوطانهم ، ونظيره بكاء الأطلال الذي ذاع وازدهر في العصر الجاهلي ، وإن امتاز الحنين هنا ، بجيشان العاطفة وتدفعها وحرارتها في كل نماذجه .

وعلى الرغم من قلة التفات شعراء الفتوح إلى وصف طبيعة المناطق البعيدة التي كانوا يشاهدونها لأول مرة ، وهي مناطق تختلف في وجوها وطبيعتها ، ومظاهر حياتها ، اختلافاً بينا عما عهدوا في ديارهم بالجزيرة العربية ، نقول ، على الرغم من ذلك ، فإننا نصادف نماذج قليلة ، ألم فيها الشعراء إلماً سريعاً مقتضبا ، ببعض مظاهر الطبيعة ، أو الحياة في هذه البيئات .

يقول زياد بن حنظلة عن سقوط الشام في يد القائد المسلم ، مصوراً من خلال ذلك خصب هذه البلاد ، وكثرة خيراتها (١) :

وَأَلَقْتُ إِلَيْهِ الشَّامَ أَفْلاذَ بطنها وعيشاً خصيباً ما تُعد ما آكله
أَبَاحَ لَنَا ما بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرَبٍ مَوَارِيثَ أَعْقَابٍ بَتْنَهَا قَرَامِلَه
وَكَمْ مَثْقَلٌ لَمْ يَضْطَلْعْ بِاحْتِمَالِه تَحْمَلُ عِبْثًا حِينَ شَالَتْ شَوَائِلُه

أما نافع بن الأسود بن قطبة التميمي ، فيعجبه ريف الرّي ، وطيب عيشه ، ومباهجه (٢) :

(١) تاريخ الطبري ٢٣٠/٤

(٢) معجم البلدان ٨٩٥/٢

رضينا بريف الرى والرى بلدة لها زينة من عيشها المتواتر
لها نشر في كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكابر

ويضيق أحد الشعراء الفاتحين بجو (مرو) الشديد البرودة ، وكثرة
الثلوج المتساقطة ، ويعجب لتكرار الأرض التى تتابع ثلجها ، ويشفق على
أهلها الذين يقضون الشتاء مقرورين ، فهم يحتمون دائماً بأثواب غليظة ،
يدسون أيديهم فيها التماساً للدفء ، فيبدون على هذه الهيئة وكأنهم أسرى (١) :
وأرى يَمُرُّ الشاهجان تَنَكَّرَتْ أَرْضُ تَتَابَعِ ثَلْجُهَا الْمَذْرُورُ
إِذْ لَا تَرَى ذَا بَرَّةٍ مَشْهُورَةٍ إِلَّا تَخَالُ كَأَنَّهُ مَقْرُورُ
كَلَّمَا يَدِيهِ لَا تَزَايِلُ ثَوْبَهُ كُلُّ الشِّتَاءِ كَأَنَّهُ مَأْسُورُ

ومن شعراء الفتوح من لفتت نظره كنائس الروم وبيعهم بالشام
وفلسطين ومصر ، وما فيها من صور وزخارف ونقوش بديعة ، فأشاروا
إشارات عابرة إلى هذه المشاهدات في أشعارهم .

من هؤلاء حارثة بن النمر ، الذى شهد (اليرموك) ورأى بعض
كنائس الروم فى الشام فقال (٢) :

لِلَّهِ بِالْيَرْمُوكِ قَوْمٌ طَحَّطَحُوا أَحْسَابَ عَائِي الرُّومِ بِالْأَقْدَامِ
فَتَعَطَّلَتْ مِنْهُمْ كَنَائِسُ زُخْرِفَتْ بِالشَّامِ ذَاتَ فُسَافِسٍ وَرُخَامِ

وكان جديراً بهؤلاء الشعراء أن يتأثروا بالمشاهد الجديدة فى البلاد
المفتوحة ، تأثراً يفتح عيونهم على مدى غرابتها عما ألفوه فى ديارهم ، ويحرك
شاعريتهم ، فيصفونها ، ويكثرون من هذا الوصف .

(١) معجم البلدان ٥١٠/٤

(٢) الإصابة ٥٦/٢

ومن الغريب حقاً أن شعر الفتوح لم يتخلف عن تسجيل أحداثها ،
ووصف معاركها ، وانتصارات المسلمين فيها ... فكان مرآة عكست كل
ما يتصل بهذه الفتوح إلا طبيعة البلاد المفتوحة وحياتها ، في هذه المرحلة
المبكرة من حياة المسلمين فيها !!

وقبل أن ننهي هذه الدراسة الموجزة لحياة الشعر في ظل الفتوح
الإسلامية ، نخرج على فن هام من فنون الشعر ، أصاب بعض التطور تحت
تأثير أحداث هذه الفتوح ، ونعني به فن الرثاء .

والرثاء فن شعري قديم صاحب الحروب منذ أن عرف شعر للسان
العربي فيها ، فما دام هناك حروب ، هناك صرعى في ميادينها ، وضحايا
لآلاتها ، وهناك تبعاً لذلك شعر يرثى هؤلاء الضحايا ، ويشيعهم إلى
أجداثهم ، بعد أن يسبغ عليهم من التكريم ما استحقوه ؛ لتضحيتهم
بالحياة ، أعز نعمة وهبها الإنسان .

إذن ، كان للحروب الإسلامية في البلاد المفتوحة ضحايا عديدين ،
هم شهداء هذا الجهاد المقدس في سبيل الإسلام ، ولم يقصر الشعر في حق
هؤلاء الشهداء فبكاهم ، ومجد بطولاتهم ، وأشاد بمواقفهم ، وعبر عن الأسى
والحزن لفقدهم .

وهذا الرثاء الذي صاحب الفتوح يجرى مع الرثاء الإسلامي ، الذي
عرفناه في العهد النبوي مواكباً للصراع بين مكة والمدينة في فلك واحد ،
فكلاهما يعرب عن حزن صابر محتسب ، مؤمن بقضاء الله وقدره ، ممثلاً
لإرادته ، واثق بما وعد الله الشهداء من عظيم المنزلة والأجر ؛ ولذا لا نرى فيه
الجزع الواله الذي نراه في الرثاء الجاهلي ، وما هو امتداد له من رثاء
القرشيين قتلاهم في العهد النبوي ؛ لثقة المسلمين بأن قتلاهم شهداء ،
يحشرون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والصالحين ،

وحسن أولئك رفيقاً ، ومن هنا قالت الخنساء بعد إسلامها : « كنت أبكى لصخر من القتل فأنا أبكى له اليوم من النار » (١) .

فمن الرثاء الذى تتجلى فيه الروح الإسلامية التى أشرنا إليها قول الشاعر ، يرثى شهداء المسلمين فى القادسية ، الذين دفنوا إلى جنب مشرق (٢) :

جزى الله أقواماً بجنب مشرق غداة دعا الرحمن من كان داعياً
جناناً من الفردوس والمنزل الذى يحل به الخير من كان باقياً

كما نلمح التأثير القرآنى فى بعض ما رثى به شهداء الفتوح ، من ذلك قول أبى عامر بن غيلان يرثى ولده الذى خرج غازياً ، ومات فى طاعون عمواس (٣) :

عنى تجود بدمعها الهتان سحاً وتبكى فارس الفرسان
لو أستطيع جعلت منى عامراً تحت الضلوع وكل حى فانى

فهو ينظم فى البيت الثانى قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ (٤) .

وليس من الضرورى أن يصرح الشاعر فى الرثاء بالتسليم لقضاء الله ، واحتساب الشهيد عند الله ، فقد لا نجد هذه المعانى منصوباً عليها فيما يقول الشاعر ، ومع ذلك نحس بالروح الإسلامية تسرى فى هذا الرثاء :

ولعل من أروع ما يصور هذا الاتجاه ، قول أبى ذؤيب الهذلى يرثى بنيه الخمس الذين اشتركوا فى فتوح مصر ، ثم ماتوا فى طاعون انتشر بها (٥) :

(١) الشعر والشعراء ٢٠٠

(٢) معجم البلدان ٥٣٩/٤

(٣) الإصابة ١٤/٣

(٤) سورة الرحمن : ٢٦

(٥) ديوان الهذليين ٤/١ - ١٠ (مطبعة المدنى - القاهرة ١٩٦٥ م) .

أَمِنَ المنونَ ورِيئِهِ تتوجع والدهر ليس بمعقب من يجزع
أودى بِنِيٍّ وأعقبوني حسرةً بعد الرقاد وعبرةً لا تقلع
فغَبَرْتُ بعدهم بعيشٍ ناصبٍ وإِخَالُ أُنِّي لاحقٌ مستبِعُ
ولقد حَرَصْتُ بأن أدافع عنهم فإذا المنيَةُ أقبلت لا تُدفعُ
وإذا المنيَةُ أنشَبَتْ أظفارها أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تنفعُ
ولقد أرى أن البكاءَ سفاهةً ولسوف يُولعُ بالبكاء مَنْ يُفجعُ
وليأتينَّ عليكِ يومَ مَرَّةٍ يُيكى عليكِ مُقَنَّعاً لا تسمعُ

فهذا رثاء صابر مستسلم للقضاء ، والشاعر فيه على يقين من عدم جدوى الجزع ، فالقضاء إذا حم لا يدفع ، ولم الجزع وهو صائر إلى المصير نفسه ؟ نعم ، إنه ييكى فقد بنيه ، ويستشعر الحسرة عليهم ، كلما انفرد بنفسه في سكون الليل ، وويل للمحزون من الليل !! ولكنه حين يتعمق التجربة يجد أن البكاء في هذا الموقف سفاهة أيضاً ، ولكن أُنِّي له أن يحبس دموعه ، فسوف يظل المفجوع مولعاً بالبكاء .

هذا وقد ألحنا من قبل إلى أن هذا الفن قد أصاب تطوراً وتجديداً في ظل الفتوح الإسلامية ، ويبدو هذا التطور والتجديد في ظهور لون جديد من الرثاء ، نحسب أن الشعر العربي لم يعرفه من قبل ، فقد راح بعض المجاهدين يرثون أعضاء وأشلاء فقدوها خلال المعارك ، ويبدو من التجلد في هذا الرثاء ما يثير الإعجاب ، بل قد يفخر بعضهم بهذه الجراحات ، ويستهن بها ؛ لأنها في سبيل الله ، وهم بذلك يقدمون صوراً طريفة من الرثاء ، من مثل ما نرى في قول عبد الله بن سبرة الحرشي ، يحتسب يده عند الله ، مشيداً بما فعلته هذه اليد في سبيل نصرته دينه ، فهي البتى أطاحت برأس أرطوبون الروم في مبارزة يوم (فلتاس) (١) :

(١) الإصابة ٦٠/٥ . جار : يريد كفه .

وَيْلُ ام جَارِ غَدَاةِ الرُّوعِ فَارَقْنِي
يُمْنِي يَدِيْ غَدْتُ مَنِّي مَفَارِقَةً
وَمَا ضَنْنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أَصَاحِبَهَا
وَقَائِلِ غَابَ عَنْ شَأْنِي وَقَائِلَةٍ
وَكَيْفَ أَتْرَكُهُ يَسْعَى بِمَنْصُلِهِ
مَا كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الرُّوعِ مِنْ حُلُقِيْ
يَمِشِي إِلَى مُسْتَهْمِيَّتِ مِثْلِهِ بَظَلِ
وَأِنْ يَكُنْ أَرْطُبُونَ الرُّومَ قَطْعَهَا
بَنَاتَيْنِ وَجَرْمُوزًا أَقِيمُ بِهَا
أَهْوَنُ عَلَيَّ بِهِ إِذْ بَانَ فَاِنْقَطَعَا
لَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ فَلْطَاسٍ لَهَا تَبْعَا
وَلَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ نَسْتَرِيحَ مَعَا
هَلَّا اجْتَنَبْتَ عَدُوَّ اللَّهِ إِذْ صَرَعَا
نَحْوِيْ وَأَعْجَزُ عَنْهُ بَعْدَ مَا وَقَعَا
وَلَوْ تَقَارَبَ مَنِّي الْمَوْتُ فَافْكُنْعَا
حَتَّى إِذَا أَمَكْنَا سَيْفِيَهُمَا قَطْعَا
فَإِنَّ فِيهَا بِسْعِدِ اللَّهِ مُنْتَفَعَا
صَدَّرَ الْقَنَاةَ إِذَا مَا آنَسُوا فَرَعَا

فانظر إلى هذا الشاعر يرثى يده بروح هادئة مؤمنة محتسبة ، ويتمنى لو أنه لحق بها ، وفارق الحياة معها ، ويشهد بأنه ما قصر في سبيل هذه الغاية ، فلقد جاهد مخلصا ، وقاتل غير هباب وحرص على الموت فوهب الحياة ، وأنه لينكر على هؤلاء الذين لاموه على التعرض للفرار الرومي ملامتهم ؛ لأنه شجاع بطل ؛ لا يهاب الأقران ، ثم علام الملام وقد نال من خصمه ما ابتغى ، وتركه مقطع الأوصال ، ولم يفقد إلا يده ! وقد لطف الله به فأبقى له من هذه اليد ما يمكنه من استئناف الجهاد ، وحماية الإسلام والمسلمين عند الفزع .

وبعد ، فهذا قليل من كثير من الأشعار التي دارت حول الفتوح الإسلامية ، أحداثها ، ونتائجها ، ولئن كان لهذا القليل دلالة ، فهي أن هذه الحروب المقدسة لم تقف حائلا بين العرب والشعر ، بل أطلقت ملكاتهم ، وألهبت شاعريتهم ، فجادت بشعر غزير متعدد الاهتمامات والأغراض ، متفاوت الحظ من الملاحم الإسلامية ، والنفحات الدينية ، ولكنه في مجموعه متميز الشخصية مثل لفرته إلى حد بعيد .

شعر البادية في عهد الراشدين :

هذه الألوان من الشعر التي قدمناها لا تمثل كل حصيلة الشعر في عهد الراشدين ولا ينبغي أن ننظر إليها وحدها في الحكم على شعر هذه الفترة كله بالضعف أو القوة ، والانكماش أو الازدهار - كما فعل بعض الباحثين الذين أشرنا إليهم من قبل .

فقد كان هناك شعراء بالبادية ، من أعراب نجد ، واليمامة ، والبوادي الضاربة إلى حدود العراق والشام ، وهؤلاء نشأوا في الجاهلية ، وتطبعوا بطبائع أهلها ، ولم يتأثروا كثيرا بالإسلام ؛ لجفائهم ، وشدة تبديهم ، وغلظ طباعهم ، ثم إنهم لم يتعرضوا كثيرا لإفحام القرآن والانبهار به ، وهؤلاء ظلوا يقولون الشعر في إسلامهم ، كما كان يقول أسلافهم في جاهليتهم ؛ ولذا كان شعرهم قويا متينا كالشعر الجاهلي ، مما جعل بعض من ألفوا في طبقات الشعراء يسلكهم في زمرة طبقات شعراء الجاهلية (١) .

من هؤلاء - مثلا - أعشى قيس ، والحطيئة ، ومعن بن أوس ، والنابغة الجعدي ، ومتمم بن نويرة اليربوعي ، وأبو زيد الطائي ، والخبيل السعدي ، والشماخ بن ضرار الذبياني وأخواه جزء ومزرد ، والربيع بن علباء السلمي .. وغيرهم من شعراء البادية ، أو من كان متبديا في شعره ، وإن سكن الحضر . ومن أجل أشعار هؤلاء وأمثالهم ذهب بعض مؤرخي الأدب ، إلى القول بأن الشعر في صدر الإسلام ظل مزدهرا كما كان في الجاهلية ، ومن أشهر من ذهب إلى هذا المستشرق الإيطالي (كارلوناينو) (٢) .

(١) من هؤلاء ابن سلام في طبقاته ، وتابعه من المحدثين جورجى زيدان في كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية .

(٢) انظر كتابه : تاريخ الآداب العربية (ط دار المعارف ١٩٥٤ م) .

لم يخرج شعراء البادية في معظم أشعارهم عن دائرة الشعر الجاهلي ،
في طريقته ، وخياله ، ونسجه ، وأيضاً في أغراضه ، حيث ظل شعرهم
يحكى آثار النزاع القبلي ، والافتخار بالعصية ، والمباهاة بالأحساب ،
والمجاهرة بشرب الخمر ، كما يعكس صور الأخلاق والعادات والتقاليد
الجاهلية .

من ذلك قول الخطيئة يهجو أمه وزوجها (١) :

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني وأبا بنيك فسأني في المجلس
إنّ الذليل لمن يزور ركبته رهط ابن جحش في الخطوب الحوس
قبح الإله قبيلة لم يمنعوا يوم المجير جارهم من قعس
أبلغ بنى جحش بأن نجارهم لوم وأن أباهم كالهجرس

فالهجاء بلوم الأصل ، وضعة النسب ، وقلة الغناء في الحرب ، وفقد
المروءة والقعود عن حماية الجار ، كل ذلك من سمات الهجاء الجاهلي الهامة ،
التي جاء الإسلام بإبطال كثير منها ، وطارد الخلفاء الراشدون كثيراً من
شعراء البادية المنحرفين إليها .

وقال أيضاً (٢) :

تنحني فاقعدني مني بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أوضح لك البغضاء مني ولكن لا أخالك تعقلينا
جزاك الله شراً من عجوز ولقائك العقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

(١) ديوانه ٢٧٣ (بتحقيق نعمان أمين - طبعة الحلبي ١٩٥٨ م) . المجير : أرض

لبنى فزارة . الهجرس : الثعلب أو القرد . نجارهم : أصلهم .

(٢) الشعر والشعراء ١٨٢

وله هجاء في أبيه ، يقول فيه (١) :

لَحَاكَ اللَّهُ ثُمَّ لَحَاكَ حَقًّا أَبَا لَحَاكَ مِنْ عَمٍّ وَخَالٍ
فَنِعَمَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْخَازِي وَعَسَى الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَعَالِي
جَمَعْتَ اللَّوْمَ لَا حَيَّاكَ رُبِّي وَأَبْوَابَ السَّفَاهَةِ وَالضَّلَالِ

وفي هذا الشعر من عقوق الوالدين ما يأباه الإسلام ، ويعاقب عليه .

ويقول الشماخ بن ضرار مفتخرا بانتسابه إلى ذبيان ، منوها
بمجدها ، وشدة سطوتها ، منددا بشاعر كان يهاجيه ويقومه ، يدعى الربيع
ابن علماء السلمي (٢) :

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ بَنِي ذُبْيَانَ قَدْ عَلِمُوا أَحْمِي شَرِيعَةَ مَجْدٍ غَيْرِ مَوْرُودٍ
مَعِيَ رُذَيْنِي أَقْوَامِ أَدُوْدُ بِهِ عَنْ حَوْضِهِمْ وَفَرِيصِي غَيْرُ مَرْعُودٍ
لَا تَحْسِبْنِي وَإِنْ كُنْتُ امْرَأً غَيْرًا كَحَيَّةِ الْمَاءِ بَيْنَ الطِّيِّ وَالشَّيْدِ
لَوْلَا ابْنُ عَفَانَ وَالسُّلْطَانُ مَرْتَقِبٌ أَوْرَدَتْ فَجًّا مِنَ اللَّعْبَاءِ جَلْمُودٍ
فَالْحَقُّ يَبْجَلُهُ نَاسِبُهُمْ وَكُنْ مَعَهُمْ حَتَّى يُعِيرُوكَ مَجْدًا غَيْرَ مَوْطُودٍ
وَاتَّرَكَ ثَرَاثَ خُفَافٍ إِنَّهُمْ هَلَكُوا أَوْ أَتَيْتَ حَيًّا إِلَى رِغْلٍ وَمَطْرُودٍ

فالعصبية القبلية تطل برأسها من هذه الأبيات ، ومع أن الشاعر
يخشى سلطان الإسلام ، وبطش الخليفة عثمان ، فإن ذلك لم يمنعه من هذا
الفخر والهجاء القبليين .

(١) الشعر والشعراء ١٨٢

(٢) ديوانه : ١١٩ . وانظر في أسباب هذا الهجاء كتابنا : الشماخ بن ضرار الذبياني
١٢٢ . الفريص : لحمه بين الثدي ومرجع الكتف . وهما فريصتان على ناحيتي الجسم .
الغمر : الغر الجاهل . حية الماء : لاسم لها ، ولا ضرر منها . الطي : البئر . الشيد : الجص
الذي يبنى به جدار البئر . اللعباء : أرض لبنى سليم .

وها هو ذا أبو محجن الثقفي يجاهر في شعره بذكر الخمر ، وإدمان شربها ، ويصف بعض ما يدور في مجالسها من غناء ومجون ، مع اعترافه الصريح بأن ذلك حرام محرم في الإسلام ، وفكره كما يقول هو عن نفسه : « كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر ، يدب الشعر على لساني ، فينفثه أحيانا » (١) ، أى أنه كان من الصعب على هذا الشاعر الحضري المتبدى في شعره ، وأمثاله من شعراء البادية ، أن يدعو ما تعودوا عليه فترة طويلة من حياتهم في الجاهلية ، فلا بد إذن من مرور فترة من الزمن ، حتى ينقرض أمثال هؤلاء الشعراء ، الذين أوقعهم الإسلام في حرج بين ما يدعو إليه ، وما تعودوا هم عليه ، وتأصل في خلقهم وسلوكهم ، وفنهم أيضا .

ومن شعر أبى محجن في الخمر قوله (٢) :

إِنْ كَانَتْ الْخَمْرُ قَدْ عَزَّتْ وَقَدْ مُنِعَتْ وَحَالَ مِنْ دُونِهَا الْإِسْلَامُ وَالْحَرَجُ
فَقَدْ أَبَاكَرَهَا صِرْفًا وَأَمْرَجَهَا رِيًّا وَأَطْرَبَ أَحْيَانًا وَأَمْتَرَجُ
وَقَدْ تَقَوَّمُ عَلَى رَأْسِي مُنْعَمَةٌ فِيهَا إِذَا رَفَعْتُ مِنْ صَوْتِهَا غَنْجُ

ويقول أيضاً ، مستهترا بشربها ، مستهينا بعذاب النار في سبيلها ،

فهو يشربها صرفا ، زيادة في الإثم ، وإيغالا في المعصية (٣) :

أَلَا فَاسْقِنِي يَا صَاحِبَ خَمْرٍ فَإِنِّي بِمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي الْخَمْرِ عَالِمُ
وَجُدْ لِي بِهَا صِرْفًا لِأَزْدَادٍ مَائِمًا فَفِي شُرْبِهَا صِرْفًا تَتِمُّ الْمَائِمُ
هِيَ النَّارُ إِلَّا أَنِّي نَلْتُ لَذَّةَ وَقَضَيْتُ أَوْطَارِي وَإِنْ لَأَمَ لَأَائِمُ

(١) الأغاني ١٤٠/٢١

(٢) المرجع السابق ١٤١/٢١

(٣) ديوانه ١٥

ولما أحرق الخليفة عمر بن الخطاب حانات الطائف تحسر
أبو محجن ، وبكاها بقوله (١) :

رَمَاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحُتْفِهَا فَخِلَالُهَا يَبْكُونَ حَوْلَ الْمَعَاصِرِ

وهو القائل مبالغا في التعبير عن إدمانه الخمر (٢) :

إِذَا مِتُّ فَأَذْفِنْنِي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي غُرُوقَهَا

وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَمْتُ أَلَّا أَذُوقَهَا

ولا ننسى في هذا المقام شاعرا إسلاميا آخر ، عاقر الخمر ، وذكرها
في شعره ونادم عليها أمير الكوفة (في عهد عثمان) الوليد بن عقبة ، ذلكم
هو الشاعر أبو زيد الطائي (٣) .

ومع ذلك فقد تأثر شعر البادية بالإسلام ، من حيث الكم
لا الكيف ؛ إذ لم يكن شعراؤه ممتعين بالحرية نفسها التي كان يتمتع بها
شعراء الجاهلية ، في تناول أغراض الشعر الجاهلي ، فقد ضيق عليهم بعض
وجوه القول ما كانوا يجدون من الخلفاء الراشدين من التهديد والوعيد
والعقاب ، كنعيت الخمر ، والإفداع في الهجو ، والفحش في القول ،
والكذب في المديح ، والتفاخر بالأحساب والأنساب .. ونحوها ، ومن تهادى
منهم في تجاهل سلطان الإسلام تعرض للعقاب الصارم .

فأبو محجن الثقفي لما استهتر بشرب الخمر ، والحديث عنها في شعره
كما رأينا ، أقام عليه عمر بن الخطاب الحد مرارا ، ولما لم يرتدع نفاه ، فهرب

(١) ديوانه ١٥

(٢) ديوانه ١ ، والأغاني ١٤٢/٢١

(٣) انظر شعراء النصرانية بعد الإسلام (لويس شيخو) ٧٥ ، ٧٦ الطبعة الثانية

بيروت ١٩٦٧ م .

ولحق بسعد بن أبى وقاص بالقادسية ، فحبسه سعد فى قصره (١) ، وقد
تاب عن شربها منذ ذلك الحين توبة نصوحا ، وقال فى ذلك (٢) :
أتوب إلى الله الرحيم فإنه غفورٌ لذنب المرء مالم يُعاودِ
ولستُ إلى الصهباء يوماً بعائدٍ ولا تابع قول السفية المعانِدِ

أما الخطيئة فقد حبسه عمر بن الخطاب ، وهدده بقطع لسانه ، لما
هجا الزبرقان بن بدر وقومه ، وذلك فى قصيدته ، التى يقول فيها (٣) :
لقد مرّيتكم لو أن درّتكم يوماً يجىء بها مسجى وإبساسى
وقد مدحتكم عمداً لإرشدكم كيما يكون لكم متجى وإمراسى
حتى إذا ما بدأ إلى عيب أنفسكم ولم يكن لجراحى فيكم آسى
أزمتُ يأساً مبيناً من نوالكم ولن ترى طارداً للحر كاللياس
جارّ لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مُقيماً بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس

ثم يقول مخاطباً الزبرقان :

دع المكابم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فشكاه الزبرقان إلى عمر ، فقال عمر : ما أسمع هجاء ، ولكنها معاتبة ،
فقال الزبرقان : أو ما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس ؟ فقال عمر : على بحسان
ابن ثابت ، فجىء به فسأله ، فقال : لم يهجه ولكن سلح عليه (٤) ،

(١) انظر الأغاني ١٣٨/٢١ ، ونهاية الأرب للنويرى ٨٨/٤

(٢) ديوانه ١٢

(٣) ديوانه ٢٨٣ ، والأغاني ٥٢/٢ . المرى : مسح الضرع للحلب ، الدرة : اللبن .
الإبساس : تسكين الناقة عند حلب . الإمراس : أن يقع الحبل فى جانب البكرة التى
على البئر فيخرجه . المتح . إخراج الماء من البئر . الأرماس : جمع رمس ، وهو القبر . هرنه
الكلاب : جرحته ، والمراد أنهم آذوه وأساءوا ضيافته .

(٤) الأغاني ٥٣/٢ والشعر والشعراء ١٨٦

فحبسه عمر ، ثم استعطفه الحطيئة بأبيات مؤثرة يقول فيها (١) :

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَج زُغِبِ الحَوَاصِلُ لا ماءٌ ولا شجرُ
أَلْقَيْتَ كَاسِيَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ الله ياعمرُ
أَنْتَ الإِمامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ التَّهْيِ الْبَشَرُ
فَاْمُنْ عَلَيَّ صَبِيَّةٍ بِالرَّمْلِ مَسْكَنِهِ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ تَغْشَاهُمْ بِهَا الْقِرْرُ

فأخرجه من الحبس ، وقال له : إياك وهجاء الناس ، قال : إذن يموت عيالي جوعاً ، فهذا مكسبي ، ومنه معاشي ، قال : فإياك والمقذع من القول ، قال : وما المقذع ؟ قال : أن تخاير بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان ، قال : فأنت والله أهجى مني ، ثم قال (يعني عمر) : والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك ، ويقال إن عمر اشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ، فقال الحطيئة (٢) :

وَمَنْعَتْنِي شَتَمَ الْبَخِيلِ فَلَمْ يَخَفْ شَتَمِي فَأَصْبَحَ آمِنًا لَا يَفْزَعُ
وَأَخَذْتَ أَطْرَارَ الْكَلَامِ فَلَمْ تَدْعُ شَتْمًا يَضُرُّ وَلَا مَدِيحًا يَنْفَعُ

وروى ابن رشيقي قال (٣) : كان بنو العجلان يفتخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قري الأضياف ، إلى أن هجاهم به النجاشي (أحد بني الحارث بن كعب) فضجروا منه ، واستعدوا عمر بن الخطاب عليه ، وقالوا : هجانا ، فقال عمر : وما قال ؟ فأنشدوه :

إِذَا اللهُ عَادَى أَهْلَ لُؤْمٍ وَرَقَةٍ فَعَادَى بَنِي الْعَجْلَانِ رَهْطَ ابْنِ مُقْبِلٍ

(١) ديوانه ٢٠٨ ، ٢١٠ ، والأغاني ٥٢/٢ - ٥٤ ذو مرخ : واد قرب فذك .

القرر : جمع قره وهي البرد .

(٢) الأغاني ٥٣/٢ - ٥٤ وديوانه ٢١٠ . أطرار الكلام : نواحيه جمع طرة .

(٣) العمدة ٢٧/١ ، ٢٨

فقال عمر : إنما دعا عليكم ، ولعله لا يجاب ؛ فقالوا : إنه قال :
 قبيلة لا يغدرون بذيمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
 فقال عمر : ليتني من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ،
 قالوا : فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشيّة إذا صدر الرأد عن كل منهل
 فقال عمر : ذلك أقل للسكاك ، يعنى الزحام ، قالوا : فإنه قال :
 تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
 فقال عمر : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه ، قالوا :
 وما سُمّي العجلان إلا لقولهم نخذ القعب واحلب أيها العبد وأعجل
 فقال عمر ؛ كلنا عبد ، وخير القوم خادهم ، فقالوا : يا أمير
 المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع ذلك ، فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت ؛
 فسأله فقال : ما هجاهم ولكن سلح عليهم ، وكان عمر أبصر الناس بما قال
 النجاشي ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات ؛ فسجن عمر النجاشي ؛
 وقيل : أنه حده .

فعمر إنما أراد من وراء مناهضة هذا الشعر وأمثاله ، أن يتطور هذا
 الفن ، فيرتفع إلى مستوى أحداث عصره ، وأهداف مجتمعه ، ولقد كانت
 أمة العرب المسلمة أحوج ما تكون في هذا العصر إلى الألفة والترابط ،
 للنهوض بواجبها المقدس في نشر ألوية الإسلام خارج حدود جزيرتها ؛ هذا
 فضلا عن أن عمر كان « يحرص على خلق الأمة ، والتزامها بمكارم
 أخلاقها ، واتباع الحكمة في بليغ القول » (١) .

(١) الإسلام والشعر (جبري ٩٣) .

ومثل هذا الأخذ الشديد ؛ كان عثمان بن عفان يسير مع أمثال هذين الشاعرين (الحطيئة والنجاشي) فحبس ضائب بن الحارث البرجمي ؛ لأنه هجا بني نهشل هجاء فاحشاً ، لما طالبوه بكلب كان لهم عنده يدعى (قرحان) استعاره منهم للصيد ثم حبسه عنهم ، عاما ، قال ضائب (١) :

تَجِسُّمٌ دُونِي وَفَدُ قَرْحَانَ شُقَّةً تَظَلُّ بِهَا الْوَجَنَاءُ وَهِيَ تَسِيرُ
فَأَرْدَفْتُهُمْ كَلْباً فَرَاخُوا كَأَتَمَّا حَبَاهُمْ بَتَاجِ الْمُرْمَزَانِ أَمِيرُ
فِيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ ثُمَامَةً عَنِّي وَالْأُمُورُ تَدُورُ
فَأُتْمَكُمُ لَا تَتْرَكُوها وَكَلْبِكُمْ فَإِنْ عَقُوقَ الْوَالِدَاتِ كَبِيرُ
فَإِنَّكَ كَلْبٌ قَدْ ضَرَيْتَ بِمَا تَرَى سَمِيعٌ بِمَا فَوْقَ الْفِرَاشِ خَبِيرُ

وقال عثمان لما سمع هذا الهجاء : « والله لو أن رسول الله ﷺ حي لأحسبته نزل فيك قرآن ، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك » .

وقد استمر ضائب في حبس عثمان إلى أن مات .
كذلك هدد عثمان الشماخ بن ضرار لما عرف به من تناول أعراض الناس في هجائه ، من مثل قوله مخاطباً امرأة من بني سليم ، تدعى (أسماء) كان قد تزوجها فأساءت إليه (٢) :

وَإِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ تَحْنُ نِسَاؤُهُمْ إِلَى الْجَانِبِ الْأَقْصَى حَنِينَ الْمَنَائِحِ
وهذا من التعريض المؤلم بسلب العفة عن نساء بني سليم ، حيث لإنهن دائمات الحنين إلى الغزباء ، ولا يقنعن بأزواجهن . .
ولم يكف الشماخ عن مثل هذا الهجاء إلا بعد أن أغلظ له عثمان

(١) الشعر والشعراء ٢٠٢ - ٢٠٣

(٢) ديوانه ١٠٨ ، الجانب الأقصى : يريد الرجل الغريب ، أى غير الزوج . المنائح : جمع منيحة ، وهى الناقة التى أعيرت للانتفاع بلبها .

في القول ، وتوعده فترك الهجاء ، واكتفى بتهديد أعدائه به ، فهو يقول لأحدهم وهو من بنى سليم أيضاً^(١) :
 لولا ابنُ عفانَ والسلطانَ مرتقبُ أوردت فجاً من اللُّبَاءِ جلمودِ
 يعنى أنه لا يمنعه من هجائه هجاء ممضا جارحاً إلا خوفه من سلطان الإسلام ، ممثلاً في الخليفة عثمان .

وإذن ، فشعر البادية في عهد الراشدين شعر جاهلي ، يعكس ما في الشعر الجاهلي من خصائص ومقومات وصفات ، وتكثر فيه القصائد الطوال ، على خلاف ما رأينا في الشعر الإسلامي للفتوح مثلاً ، إذ أكثره مقطوعات قصيرة ، أو أبيات قليلة ، ثم هو شعر خصب قوى جزل العبارة والأسلوب ، ويمثل في أكثره عواطف القبيلة ، ويتغنى بأبجائها ، ويعدد أحسابها ، كما كان وصفاً أميناً للبيئة التي ترعرع فيها وازدهر .

نخلص من هذا إلى أن شعر البادية في عهد الراشدين ظل ممتعاً بحظ غير قليل من الازدهار ، وأكثر ما كان للإسلام فيه ، إنما كان من جهة كنهه ، لا كيفه ، كما بينا .

✽ ملامح إسلامية في شعر البادية :

رأينا كيف وقف الإسلام موقفاً عدائياً من شعر البادية ، الذي ظل سادراً في تياره الجاهلي ، وأن هذا العداء قد حد من نشاط بعض شعراء البادية خوفاً من بطش ولاية الأمور في الدولة الإسلامية ، ولكنهم مع ذلك لم يتوقفوا عن قول الشعر المعبر عن مثل جاهلية اعتادوا تصويرها ، والتحدث عنها ، فجاء شعرهم صورة تعكس قوة هذا الفن في العصر الجاهلي ومثاته ، وقوابله التي مرنت الشاعرية العربية عليها دهرًا طويلاً .

(١) ديوانه ١٢٢ . جلمود : أى ذو صخور ، وهذا كناية عن الهجاء .

وليس معنى تنكب شعراء البادية جادة الإسلام في أشعارهم ، أن كل هذه الأشعار قد خلت تماماً من كل أثر للإسلام ، وبخاصة في ألفاظها ومعانيها ، فإننا نلمح شيئاً يسيراً من تأثير الإسلام بعامة ، والقرآن بخاصة ، في ثنايا هذه الأشعار .

وبين أيدينا طائفة من نماذج أشعار البادية ، التي تتضح فيها بعض مظاهر هذا الأثر ، في الأغراض والمعاني والألفاظ :

قال كعب بن زهير (١) :

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سعيَ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمرٍ ليس يُدرِكها والنفسُ واحدةٌ والهَمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أملٌ لا ينتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ

فهو يصور قضية القضاء والقدر ، وتسليطهما على مقادير الناس ، وحفظهم في الحياة ، وهذا موضوع أكدته الإسلام ، وتحدث عنه القرآن .

وقال كعب أيضاً (٢) :

فأقسمتُ بالرحمن لا شيءٍ غيره يمينُ امرئٍ برٌّ ولا أتحلُّ
لأستشعرنُ أعلى دريسٍ مسلماً لوجهِ الذى يُحيى الأنام ويقتلُ
هو الحافظُ الوسنانُ بالليل مبيتاً على أنه حَيٌّ من النوم مثقلُ
من الأسودِ السارى وإن كان نائراً على حدِّ نايته السمام المُمَلُّ

(١) ديوانه ٢٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية . ١٩٥٠ م) .

(٢) ديوانه ٥٦ - ٥٧ . دريسى : تننية دريس : وهو الثوب الخلق ، يريد : لألبس
ثوبى على الإسلام . الأسود : الحية . نائراً : طالب ثار ، يريد : وهو هنا غير طالب ثار ، بل ظالم لا يبالي من أصاب .

فالشاعر يقسم بالرحمن ، وهو قسم إسلامي خالص لم يعرفه العرب في الجاهلية ، ويصف الله سبحانه بأنه يحيى ويميت ، وهذا معنى قرآني ، ولو لم يعبر الشاعر بلفظه (يقتل) التي اضطرته إليها القافية لكانت العبارة قرآنية أيضاً ، وفي القرآن ﴿ وهو الذي يحفظكم بالليل ﴾ وقد تحدث كعب عن هذا المعنى في البيت الثالث .

ومن شعر كعب الذي يتحدث بمعان وألفاظ إسلامية (١) :

رحلتُ إلى قومي لأدعو جُلَّهم إلى أمرٍ حزمٍ أحكمته الجوامعُ
ليُوفوا بما كانوا عليه تعاقَدوا بخيفٍ مِنِّي والله راءٍ وسامعُ
سأدعوهم جهدي إلى البر والتقوى وأمرِ العُلا ما شايَعتني الأصابعُ
فكونوا جميعاً ما استطعتم فإنه سيلبسكم ثوب من الله واسعُ

فكعب هنا فضلاً عن كونه يقيم من نفسه داعية إلى قومه للتمسك بالإسلام ، وفاء بما بايعوا عليه الرسول بمنى ، فإنه يذكر بعض صفات الله التي أوردها القرآن (الله راءٍ وسامع) كما يتحدث عن البر والتقوى ، وهي معان وألفاظ إسلامية قرآنية .

وقبل أن يسلم كعب بن زهير ، سبقه أخوه بجير إلى الإسلام ، ودعاه إليه في قوله (٢) :

مَنْ مُبْلَغٌ كعباً فهل لك في التي تلومُ عليها باطلاً وهى أَحْزَمُ
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلي من النار إلا طاهر القلب مسلم

فهذه دعوة إلى عقيدة التوحيد ، التي تنجى من عذاب يوم القيامة ،

(١) ديوانه ١١٢ . الجوامع : الأمور ، وجوامع الأمور : وثائقها .

(٢) ديوان كعب ٤ والسيرة ق ٥٠٢/٢

الذى أعده الله للكافرين ، والشاعر ينظر في البيت الثانى إلى قوله تعالى :
﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (١) .

ويقول أبو ذؤيب الهذلى (٢) :

أبا عبيد رُفِعَ الكتابُ واقتربَ الموعدُ والحسابُ

فرفع الكتاب ، واقترب الساعة ، التى يحاسب فيها المرء على ما قدمت
يداه من المعانى المستمدة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف .

أما ما جاء به الإسلام ، وردده القرآن فى كثير من آياته من ربط
ثواب الإنسان وعقابه ، بما يقدم من خير أو شر فى حياته الدنيا ، فإن من
شعراء البادية من عبر عن هذا المبدأ الإسلامى .

فقد روى أن أعرابيا وقف على على بن طالب ، وشكا فقره ،
فكساه حلة ، فلما أخذها ، مثل بين يديه قائلا (٣) :

كسوتنى حلةً ثبلى محاسنها فسوف أكسوك من حُسن الثنا حُللا
إنَّ الثناء ليحيى ذكرَ صاحبه كالغيث يُحيى نَداه السَّهْلَ والجَبَلَا
لا تزهد الدهرَ فى عُرف بدأت به فكلُّ عبد سيُجزى بالذى فعلا

ألا ترى كيف عبر هذا الأعرابى عن هذا المبدأ الإسلامى فى البيت

الثالث ؟؟

ولأنى لىلى النابغة الجعدى شعر حافل بالمعانى الدينية ، منه قوله (٤) :

(١) سورة الشعراء : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) ديوان الهذليين ١٣٠٦/٣ : ومعاهد التنصيص للعباسى ١٧٠/٢ (مطبعة السعادة

القاهرة ١٣٦٧ هـ) .

(٣) العمدة ١٢/٤

(٤) الشعر والشعراء ١٦٢ ، وانظر الأغاني ١٣٠/٤

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار وفي الليل ل نهاراً يُفرج الظلما
الخافض الرافع السماء على الـ أرضي ولم يئن تحتها دِعما
الخالق الباريء المصور في الـ أرحام ماءً حتى يصير دما
من نطفة قدّها مقدّرها يخلق منها الأبرار والنسما
ثم عظاماً أقامها عصب ثمت لحماً كساه فالتأما
ثم كسا الريش والعقاق أب شاراً وجلداً تخالّه أدا
والصوت واللون والمعاش والـ أخلاق شتى وفرّق الكلمـا
ثمت لا بد أن سيجمعكم والله جهراً شهادة قسما

فالألفاظ والمعاني كلها إسلامية ، مستمدة من القرآن الكريم ، ففي البيت الثاني يكاد الشاعر ينظم الآية الكرّمة : ﴿ يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ﴾ (١) .

وكذلك رفع السماء بغير عمد ، وتصوير مراحل الخلق ، واختلاف الناس في الألسنة والألوان والمعاش ، وجمعهم للحساب يوم القيامة ، كلها تحدث عنها القرآن في كثير من آياته (٢) ، فتأثر بها الشاعر في نظمه . وهذا الشعر الذي يكاد ينظم آيات من القرآن ، لا يمكن إلا أن يكون قد قيل في الإسلام - لا في الجاهلية - كما قيل ، إلا أن تكون نسبته إلى النابغة الجعدي ، غير صحيحة (٣) .

(١) سورة الحج : ٦١

(٢) انظر مثلاً : سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤

(٣) هناك شك في نسبة هذا الشعر للجعدي .

انظر : الأغاني ١٣٠/٤ ، وانظر : شعر المخضرمين ٢٢٨

ومع ذلك فهناك شعر صادق النسبة إلى النابغة الجعدي ، تتضح فيه هذه الروح الدينية الإسلامية ، قال النابغة (١) :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرّة نيراً
وجاهدت حتى ما أحس ومن معي سهيلاً إذا ملاح ثمت غوراً
أقيم على التقوى وأرضى بفعله وكنت من النار المخوفة أوجراً

ويقال إن الجعدي أنشد القصيدة التي منها هذه الأبيات بين يدي الرسول ، فأعجب بها وأثنى عليه من أجلها ، ودعا له ، قائلاً (لا يفضض الله فاك) (٢) .

ولبيد بن ربيعة هو الآخر شاعر بدوي ، جاهلي الشعر ، ولكنه على ذلك كان متأثراً بالإسلام في غير قليل من شعره .

ففي ديوانه نماذج عدة تشهد بالأثر الديني في شعره ، من ذلك قوله (٣) :

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريشى وعجل
أحمد الله فلا ندد له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبيل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلّ

فليبد لم ينظم هذا الشعر إلا بعد أن قرأ أو سمع هذه الآيات : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ و ﴿ بيده الخير وهو على كل شيء قدير ﴾ و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ و ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ ، وأمثال هذه المعاني في القرآن كثير ، وقوله (٤) :

(١) الأغاني ١٣٠/٤ ، وانظر : الشعر والشعراء ١٥٨

(٢) الشعر والشعراء ١٥٨ والأغاني ١٣٠/٤

(٣) ديوانه ١٧٤ و الأغاني ٩٥/١٤

(٤) ديوانه ٢٤٦

تلوم على الإهلاك في غير ضلّة وهل لى ما أمسكت إن كنت باخلا
رأيت التقى والحمد خير تجارة رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً
فالتقى والحمد ألفاظ إسلامية ، والبيت الثانى كله يعيد في الأذهان
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب
أليم * تؤمنون بالله ورسوله .. ﴾ (١) .

وقوله : (٢)

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا كُشفت عند الإله المحاصيل
وفي البيت الأخير يتضح أثر قوله تعالى : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في
القبور * وحُصِّل ما في الصدور ﴾ (٣) .

ويبدو تأثيره الشديد بالمعاني القرآنية في قوله (٤) :

فواعجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
ولله في كل تحريك وتسكين أبدأ شاهد

ونستطيع أن نورد في معنى كل شطر من هذه الأبيات آية أو آيات
من كتاب الله ، وفي هذا دلالة على أن لبدا قرأ وفهم وتدبر كثيراً من آيات
القرآن - على الأقل - وتأثر بها في هذا الشعر وأمثاله .

(١) سورة الصف : ١٠ - ١١

(٢) ديوانه ٢٥٦

(٣) سورة العاديات : ٩ - ١٠

(٤) ديوانه (ذيل الديوان) ٣٦٣

وللعباس بن مرداس السلمى شعر يدل على تفهمه تعاليم الإسلام ،
واطلاعه على آيات من القرآن - إلى حد ما - من ذلك قوله (١) :

فَأَمَنْتُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنَا عَبْدُهُ	وخالفتُ مَنْ أَمْسَى يُرِيدُ الْمَمَالِكَا
وَوَجَّهْتُ وَجْهِي لِحُجَّةِ مَكَّةَ قَاصِداً	وتابعْتُ بين الأُخْشَبَيْنِ المَبَارِكَا
نَبِيٍّ أَتَانَا بَعْدَ عَيْسَى بِنَاطِقٍ	من الحق فيه الفصلُ منه كذلكا
أَمِيناً عَلَى الْفُرْقَانِ أَوَّلِ شَافِعٍ	وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكَا
تَلَانِي عُرَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ انْفِصَامِهَا	فأحكمها حتى أقام المَنَاسِكَا

وقوله (٢) :

بَلَغَ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ مُحَمَّدًا	رَسُولُ الْإِلَهِ رَاشِدٌ أَيْنَ يَمَّمَا
دَعَا قَوْمَهُ وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ رَبَّهُ	فَأَصْبَحَ قَدْ وَافَى الْإِلَهِ وَأُنْعَمَا
عَشِيَّةً وَاعْدُنَا قَدِيداً مُحَمَّدًا	يَوْمَ بَنَا أُمراً مِنَ اللَّهِ مُحْكَمَا

وكذلك جاءت معان وألفاظ قرآنية في شعر للحُصَيْنِ بن الحُمام
المرى ، يقول فيه (٣) :

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا التُّقَى	ونفس تعالجُ آجالها
أَمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ	مقادير تنزلُ إثرَها
أَعُوذُ بِرَبِّى مِنَ الْخُزْيَا	ت يوم ترى النفسُ أعمالها
وَخَفَ الْمَوَازِينَ بِالْكَافِرِينَ	وزُلزلت الأرضُ زلزالها
وَنَادَى مُنَادٍ بِأَهْلِ الْقُبُورِ	ر فهبوا لِتَبَرَّرَ أثقالها
وَسُعِّرَتِ النَّارُ فِيهَا الْعَقَا	بُ وكان السلاسلُ أغلالها

(١) الأغاني ٦٣/٣ . الأخشبان : جبلان محيطان بمكة هما أبو قبيس والأحمر .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الأغاني ١٢٣/١٢

فلم تكن هذه المعاني في القضاء والقدر ، والآجال والحساب ،
والبعث والعذاب ، لتتفق للحصين ، لو لم يكن قد قرأ أو سمع سور :
القارعة ، والزلزلة ، والغاشية وغيرها .

وفي معنى أن الإيمان عزة وفوز ، والكفر ذل وخسران ، يقول بحير
ابن زهير (١) :

والله أكرمنا وأظهر ديننا وأذلهم بعبادة الشيطان
فضلا عن أن الألفاظ في جملتها إسلامية كما نرى .

وها هو ذا الخطيئة ، على ما عرف به من فساد الدين ، حيث دخل
في زمرة المرتدين ، بعد وفاة النبي ، وقال شعراً في الردة ، يحرض فيه على قتال
المسلمين ، ويسخر من الخليفة أبي بكر (٣) :

فَدَى لَبْنَى ذِيانَ أُمِّي وَخَالَتِي	عَشِيَّةَ يُحْدِي بِالرِّمَاحِ أَبُو بَكْرٍ
أَبُوًا غَيْرَ ضَرْبِ يَحِطِّمُ الْهَامَ رَأْسَهُ	وَطَعْنَ كَأَفْوَاهِ الْمَرْقَعَةِ الْحُمْرِ
فَقُومُوا وَلَا تَعْطُوا اللَّغَامَ مَقَادَةً	وَقُومُوا وَإِنْ كَانَ الْقِيَامُ عَلَى الْجَمْرِ
أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ صَادِقًا	فِيَا عَجَبًا مَا بِالْ دِينَ أَبِي بَكْرٍ
أُيُورِثُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ	وَتِلْكَ وَبَيْتَ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ (٤)

هذا الخطيئة نراه يلم في بعض شعره بالألفاظ والمعاني الإسلامية ،
فيقول (٥) :

(١) السيرة ق ٤٥٩/٢

(٢) ديوانه ٣٢٩

(٣) ديوانه ٣٩٣

(٤) ديوانه ٢٩٣

(٥) ديوانه ٢٢٩

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكنَّ التقى هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزادِ ذخراً وعند الله للأتقى مزيدُ

فهذا من المعاني الإسلامية الجليلة ، وواضح تأثر الحطيئة في البيت
الثاني بالآية الكريمة : « وَتَزِدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » .

وقد مرت بنا أبيات لعبدة بن الطبيب يوصي فيها أبنائه بتقوى الله ،
وبر الوالدين ، والحذر من النمام ، متأثرا في كل ذلك بآيات قرآنية أوردها ،
ومن معانيه الإسلامية أيضا قوله (١) :

نُرجوا فواضِلَ رب سَيِّئه حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبول
ربُّ حباناً بأموالٍ مخوِّلةٍ وكل شيءٍ حباه الله تحوِيلُ
والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدرِكه والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وكان الخبل السعدى قد هجا الزبرقان بن بدر ، وتعرض لأخته
(خليدة) في هذا الهجاء ، ثم مر بها بعد حين ، وقد أصابه كسر ، وهو
لا يعرفها ، فأوته وجبرت كسره ، فلما عرفها قال (٢) :

لقد ضلَّ حلمي في خليدة ضِلَّةً سأعتبُ نفس بعدَها وأتوبُ
وأشهدُ والمُسْتَغْفِرُ الله أننى كذبتُ عليها والهجاءُ كذوبُ

فالندم والتوبة ، وطلب الغفران من الله ، معان إسلامية عاجلها القرآن

كثيرا .

✱ وهناك أمثلة أخرى من هذا الضرب في شعر البادية المتأثر بالإسلام ،
يمكن التقاطها من شعر شعرائها في عهد الراشدين ، والملاحظ أن المعاني
الدينية الواردة فيه تمتاز بالبساطة والوضوح والإيجاز ؛ إذ كان الشعر البدوي

(١) الفضليات ١٤٢

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٥٣٦/٢ (طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ) .

بعامة لا يميل إلى التعليل والتحليل والتعمق ، فالشاعر البدوي ، سواء المتأثر بالإسلام تأثراً واضحاً ، أم الذي كان أثر الإسلام فيه ضعيفاً ، لا يطيل الوقوف عند المعاني الدينية ، ولا يعالجها إلا في أبيات قليلة ، تأتي ضمن القصيدة ، وتتناول في الوقت نفسه المعاني البسيطة الظاهرة في غير عمق ، أو تأمل دقيق بشكل عام ، ومهما يكن من أمر الشعر المتأثر بالإسلام في البادية ، فإنه لا يمثل إلا جزءاً ضئيلاً من نتاج البادية الشعرى في هذا العصر .

وأين هذا الشعر من قول حسان بن ثابت - مثلاً - في رثاء الرسول ﷺ (١) :

لقد غَيَّبُوا جِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً	عَشِيَّةَ عَلْوَةِ الثَّرَى لَا يُوسَدُ
يُبْكُونَ مِنْ تَبْكِي السَّمَوَاتِ يَوْمَهُ	وَمَنْ قَدْ بَكَتِ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ	وَيَنْقُذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
عَفْوٍ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عَذْرَهُمْ	وَإِنْ يُحَسِّنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهَدَى	حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
وَلَيْسَ هَوَايَ نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ	لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَتُخَلَّدُ

وقوله في مدح الرسول ﷺ والابتهاال إلى الله (٢) :

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفْتَرَةٍ	مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَوْتَانِ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ
فَأَمْسَى سَرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا	يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنْدُ
وَأُنْذَرْنَا نَارًا وَيُبَشِّرُ جَنَّةَ	وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ
وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رُبِّي وَخَالِقِي	بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتَ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ

(١) ديوانه ٩١ والسيرة ق ٦٦٧/٢

(٢) ديوانه ٧٨

تعاليتَ ربَّ الناس عن قول من دَعَا سواكَ إلهاً أَنْتَ أَعْلَى وَأَمَجُّدُ
لَكَ الخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ
لَأَنَّ ثَوَابَ اللَّهِ كُلَّ مُوَحِّدٍ جَنَّاتٍ مِنْ الْفَرْدَوْسِ فِيهَا يُخْلَدُ
هنا تتجلى العاطفة الدينية الحارة ، الصادقة ، التى وجهها الإسلام ،
وهذهها القرآن ، واستولى عليها الهدى الإلهى ، ففاضت بمعان دينية عميقة
مسترسلة ، واجتذبتها بلاغة القرآن فامتاحت منها ، واستعارت بيانها ،
فالاقتباس من القرآن الكريم ، والاستمداد من معانيه واضحان فى هذا
الشعر .

انظر مثلاً إلى قوله (عزيز عليه أن يجوروا ... البيت) إنه مأخوذ من
قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، وقوله (فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ)
مأخوذ من فاتحة القرآن « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

ومثال آخر للشعر المتأثر بالقرآن تأثراً واضحاً فى معناه ومبناه ، وهو
قول نُجَيْبِ بْنِ عَدَى الصَّحَابِي ؛ لما غدرت بعض القبائل به وبنفر معه ،
كان الرسول قد أرسلهم إلى هذه القبائل ، ليفقهوهم فى الدين ، بعد أن
طلبوا منه ذلك ، فأخذوا خبيثاً ، وأعدوا لصلبه ، فقال (٢) :

وما أُرْصِدُ الْأَحْزَابُ لِيْ عِنْدَ مَصْرَعِيْ	إِلَى اللَّهِ أَشْكُوْ غَرِيْبِيْ ثُمَّ كُرْبَتِيْ
فَقَدْ بَضَّعُوا الْحَمِيَّ وَقَدْ يَاسُ مَطْمَعِيْ	فَذَا الْعَرْشُ صَبْرُنِيْ عَلَى مَا يُرَادُ بِيْ
يَبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَيْلُوْ مُمَزَّعٍ	وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ
وَقَدْ هَمَلْتُ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعٍ	وَقَدْ خَيْرُونِي الْكَفْرَ وَالْمَوْتَ دُونَهُ
عَلَى أَيْ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِيْ	فَوَاللَّهِ مَا أَرْجُوا إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا
وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى اللَّهِ مُرْجَعِيْ	فَلَسْتُ بِمَبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخْشَعًا

(١) سورة التوبة : ١٢٨

(٢) السيرة ق ١٧٦/٢

فهذا الصحابي الجليل يعبر عن تجربة قاسية ، واختبار شديد لإيمانه ؛ فآلموت يترصده ؛ ولكنه يلتمس الصبر من الله سبحانه ، والعون على استقبال الموت استقبال الشهداء الصابرين ، وهو لا يجزع مما يراد به ؛ لأنه يعلم أن ذلك في سبيل الله ، وأن الله سوف يمنحه البركة والمثوبة ، ويأبى أن يفتدى نفسه بالكفر ، حين طلب منه الأعداء أن يكفر ؛ لينجو من الموت ، فأمنيته أن يموت على الإسلام ، ويلقى الله على الشهادة ، قائلاً : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهاك مثلاً ثالثاً ، من قول كعب بن مالك ، في إجلاء بنى النضير ، وتمجيد الرسول ﷺ (١) :

لقد خزيت بغدريتها الحبور	كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برّب	عزيز أمره أمرٌ كبير
وقد أوتوا معاً علماً وفهماً	وجاءهم من الله التّذير
نذير صادق أدّى كتاباً	وآيات مبيّنة تُنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكرٍ منا جدير
فقال بلى لقد أديت حقاً	يُصدقني به الفهم الخبير
فمن يتبعه يُهد لكل رُشد	ومن يكفر به يُجز الكفور
أرى الله النّبيّ برأى صدق	وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير ..

فهذا الشعر أوضح برهان على تأثر شاعر الرسول بأسلوب القرآن في محاجة أهل الكتاب ، ولسنا هنا نحكم على جزالة الشعر أو فنيته ، فحظه

(١) ديوانه ٣٠٣ ، والسيرة ق ١٩٩/٢

الحبور : جمع حبر ، وهو العالم بالدين اليهودي ، وهذا هو المراد هنا ..

من ذلك متواضع ، ولكننا في مقام التمثيل للأثر الدينى القوى فى شعر أمثال
هذا الشاعر ، ممن قوى صلتهم بالإسلام ورسوله وكتابه .

ويستطيع القارئ لسيرة ابن هشام وغيرها ، من كتب التاريخ
والسير والمغازى ، أن يجد نماذج كثيرة لمثل ما قدمنا من الشعر ، الذى
فاضت به قلوب تعمقها الإسلام ، فجرى على ألسنة نذرها أصحابها
للاشادة بالنبي (ﷺ) ودعوته ، وإعلاء شأنهما ، والدفاع عنهما .

* * *

وبعد :

فهذه دراسة للحياة الأدبية في هذا العصر ، الذى سعد بطلعة
الرسول الكريم ، وخيرة أصحابه الأبرار ، يسرها الله ، فجاءت ملمة بأطراف
هذه الحياة الفنية ، ربما لأول مرة ، على أساس من الدراسة العلمية ، التى
تعتمد على النصوص ، وتحليلها ، واستنباط الأحكام على ضوءها ، ولم تطل
فتمل ، ولم تقصر عن الغاية فتخل ، أخليناها من الترجمة لأدباء العصر ،
اكتفاء بالإشارة إلى مصادر آثارهم ، فأكثرها يترجم لهم ، ورجونا أن ينفع
الله بها من اتقاه ، فهو القائل : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » .
والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

* * *

المراجع والمصادر

١ - القرآن الكريم

(أ)

- ٢ - الإتيقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي - مطبعة حجازي - القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- ٣ - أثر القرآن في تطور النقد : الدكتور محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر ١٩٦١ م .
- ٤ - الأخبار الطوال : أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري - مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٥ - أخبار مكة : محمد بن عبد الله الأزرق - مطبعة مكة ١٢٧٥ هـ .
- ٦ - أدب السياسة في العصر الأموي : الدكتور أحمد محمد الحوفي - مطبعة نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٧ - أدب الكاتب : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي - بعناية محمد بهجت الأثرى - السلفية ١٣٤١ هـ .
- ٨ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب : أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر - مطبعة حيدر آباد - ١٣١٨ - ١٣١٩ هـ .
- ٩ - الإسلام والشعر : يحيى الجبوري - مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٦٤ م .
- ١٠ - الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني - المطبعة الشرفية - القاهرة ١٣٢٥ هـ ومطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ .

- ١١ - الأضنام : أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
- ١٢ - إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م .
- ١٣ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٥٢ م .
- ١٤ - الأغاني : أبو الفرج الأصفاني - طبعة الساسي ؛ وطبعة دار الكتب .
- ١٥ - الأمالي والنوادر : أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .
- ١٦ - أمراء الشعر في العصر الجاهلي : الدكتور صلاح الدين الهادي : مطبعة قاصد خير - القاهرة ١٩٧٥ م .
- ١٧ - أنيس المجالس في ديوان الخنساء : أحد الآباء اليسوعيين - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٨٨٨ م .
- ١٨ - الأرائل : جلال الدين السيوطي : طبعة المدينة المنورة ١٩٦٦ م .

(ب)

- ١٩ - البداية والنهاية : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير - مطبعة السعادة القاهرة ١٩٣٢ م .
- ٢٠ - بلاغة الكتاب في العصر العباسي : الدكتور محمد نبيه حجاب - المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٢١ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : السيد محمد شكرى الألوسى - الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٤٢ هـ .
- ٢٢ - البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - طبعة السندوى - القاهرة ١٩٣٢ م .

(ت)

- ٢٣ - تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي - الطبعة الأولى - الاستقامة - القاهرة ١٩٤٠ م .
- ٢٤ - تاريخ الآداب العربية : كارلوناينو - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م .

- ٢٥ - تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان - طبعة دار الهلال بمصر ١٩٣٦ م .
- ٢٦ - تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٢٧ - تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان (ترجمة عبد الحليم النجار) - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .
- ٢٨ - تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى : السباعى يومى - الطبعة الثانية ١٩٣٥ م .
- ٢٩ - تاريخ الجاهلية : عمر فروخ - بيروت ١٩٦٤ م .
- ٣٠ - تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب - طبعة النهضة المصرية ١٩٤٥ م .
- ٣١ - تاريخ الشعر العربى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى : الدكتور محمد نجيب البهيتى - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
- ٣٢ - تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على - طبعة المجمع العراقى - بغداد بلا تاريخ .
- ٣٣ - تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) : محمد بن جرير الطبرى - المطبعة الحسينية - القاهرة بلا تاريخ .
- ٣٤ - التاريخ الكبير : ابن عساکر - طبعة الشام ١٣٢٩ هـ .
- ٣٥ - تاريخ النقائض فى الشعر العربى : أحمد الشايب - مطبعة الاعتماد - القاهرة ١٩٤٦ م .
- ٣٦ - تأويل مختلف الحديث : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - طبعة الكردى - القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- ٣٧ - التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب - طبعة بيروت بلا تاريخ .
- ٣٨ - تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى : أنيس المقدسى - طبعة بيروت ١٩٣٥ م .
- ٣٩ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى : الدكتور شوقى ضيف - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٤٠ - تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) : محمد بن جرير الطبرى - طبعة بولاق ١٣٢٥ هـ .

٤١ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول : ابن الدينغ الشيباني - مصر ١٣٣٠ هـ .

(ج)

٤٢ - جامع الأصول في أحاديث الرسول : مجد الدين بن الأثير - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٠ م .

٤٣ - الجاهلية (مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي) : يحيى الجبوري - مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٨ م .

٤٤ - جمهرة أشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي - طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .

(ح)

٤٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - طبعة السلفية بمصر .

٤٦ - حضارة العرب : جوستاف لوبون (ترجمة عادل زعير) - طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٢٥ م .

٤٧ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي : الدكتور أحمد محمد الحوفي - الطبعة الرابعة - نهضة مصر ١٩٦١ م .

٤٨ - الحيوان : الجاحظ - طبعة الحلبي ١٣٢٥ هـ .

(خ)

٤٩ - خزانة الأدب : عبد القادر بن عمر البغدادي - طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

٥٠ - الخطابة في صدر الإسلام : الدكتور طاهر درويش - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م .

(د)

٥١ - دراسات في العربية وتاريخها : الشيخ محمد الخضر حسين - طبعة دمشق ١٩٦٠ م .

٥٢ - دلائل الإعجاز : القاضي عبد القاهر الجرجاني - مطبعة المنار - القاهرة ١٣٧٢ هـ .

٥٣ - ديوان أبي محجن الثقفي - مطبعة بريل ١٨٨٧ م .

٥٤ - ديوان الإمام الشافعي - نشرة محمد عفيف الزغبى - بيروت .

٥٥ - ديوان امرئ القيس الكندي - بتحقيق أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م .

- ٥٦ - ديوان أمية بن أبي الصلت : طبعة ليبزج ١٩١١ م .
- ٥٧ - ديوان أوس بن حجر : بتحقيق الدكتور يوسف نجم - بيروت ١٩٦٠ م .
- ٥٨ - ديوان حسان بن ثابت : بعناية عبد الرحمن البرقوقي - مطبعة السعادة بمصر بلا تاريخ .
- ٥٩ - ديوان الخطيئة : بتحقيق نعمان أمين طه - الحلبي ١٩٥٨ م .
- ٦٠ - ديوان حميد بن ثور الهلالي - طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ .
- ٦١ - ديوان السموع بن عاديا - بعناية عيسى سابا - بيروت ١٩٥١ م .
- ٦٢ - ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : بتحقيق صلاح الدين الهادي - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .
- ٦٣ - ديوان عبيد بن الأبرص : بتحقيق الدكتور حسين نصار - طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٦٤ - ديوان كعب بن زهير (شرح ديوان كعب) - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
- ٦٥ - ديوان كعب بن مالك الأنصاري : بتحقيق مكي العاني - مطبعة دار المعارف ببغداد ١٩٦٦ م .
- ٦٦ - ديوان ليبد بن ربيعة : بتحقيق الدكتور إحسان عباس - الكويت ١٩٦٢ م .
- ٦٧ - ديوان المزرد بن ضرار الذبياني : بتحقيق خليل إبراهيم العطية - بغداد ١٩٦٢ م .
- ٦٨ - ديوان الهذليين : بتحقيق عبد الستار فراج ومحمود شاكر - مطبعة المدني - القاهرة ١٩٦٥ م .
- (ذ)
- ٦٩ - ذيل الأمالي والنوادر : أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .
- (ز)
- ٧٠ - زهر الآداب : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري - بعناية الدكتور زكي مبارك - المطبعة الرحمانية - القاهرة ١٩٢٥ م .
- (س)
- ٧١ - سجع القرآن فريد (مقالة للدكتور أحمد الحوفي) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - ج ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ م .

- ٧٢ - سمط اللآلى : أبو عبيد البكرى - لجنة التأليف ١٩٣٦ م .
- ٧٣ - السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) - الطبعة الثانية - الحلبي ١٩٥٥ م .
- ٧٤ - سنن أبي داود : دار إحياء السنة النبوية - بيروت .
- ٧٥ - سنن ابن ماجه - طبعة الحلبي ١٩٥٤ م .

(ش)

- ٧٦ - شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد - طبعة الحلبي : القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٧٧ - شعراء النصرانية بعد الإسلام : لويس شيخو - الطبعة الثانية - دار المشرق بيروت ١٩٦٧ م .
- ٧٨ - شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام : النعمان عبد المتعال القاضي - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٧٩ - شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه : يحيى الجبورى - دار النهضة - بغداد ١٩٦٤ م .
- ٨٠ - الشعر والشعراء : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - طبعة ليدن ١٩٠٢ م .
- ٨١ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : الحافظ تقي الدين بن أحمد الفاسى - طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٨٢ - الشماخ بن ضرار الديباني (حياته وشعره) صلاح الدين الهادى - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
- ٨٣ - الشوقيات (ديوان شوقي) مطبعة مصر بلا تاريخ .

(ص)

- ٨٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندي - بولاق - ١٩١٣ - ١٩١٩ م .
- ٨٥ - صحيح البخارى - طبعة القاهرة ١٩٣٢ م .
- ٨٦ - صحيح مسلم - بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٥٥ م ، وشرح النووي - دار الفكر - بيروت ١٩٨١ م .
- ٨٧ - صدر الإسلام - جورج غريب - دار الثقافة ببيروت بلا تاريخ .
- ٨٨ - الصناعتين : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، المطبعة التجارية - القاهرة ١٩٥٢ م .

(ط)

- ٨٩ - طبقات الأمم: صاعد بن أحمد الأندلسي - طبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩١٢ م .
 ٩٠ - طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي - بتحقيق محمود شاكر
 - مطبعة المدني - القاهرة ١٩٧٤ م .
 ٩١ - الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد - طبعة بيروت ١٩٥٧ .
 وطبعة ليدن ١٣٢٢ هـ .
 ٩٢ - الطراز : يحيى بن حمزة العلوي (طبعة المقتطف - مصر ١٩١٤ م) .

(ع)

- ٩٣ - العقد الفريد : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه - الطبعة الأولى -
 الجمالية - القاهرة ١٩١٣ م .
 ٩٤ - العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيقي القيرواني - الطبعة الأولى
 (أمين هندية) - القاهرة ١٩٢٥ م .
 ٩٥ - عيون الأخبار : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - طبعة دار الكتب
 المصرية ١٩٢٥ - ١٩٢٨ م

(ف)

- ٩٦ - الفائق في غريب الحديث والأثر : أبو القاسم محمود بن عمر الرخشي -
 بتحقيق أبو الفضل والبجاوي (الحلبي) القاهرة ١٩٤٥ م .
 ٩٧ - فتوح البلدان : أحمد بن يحيى البلاذري - دار النشر للجامعيين - القاهرة
 ١٩٥٧ م .
 ٩٨ - فجر الإسلام : أحمد أمين - الطبعة الثانية - القاهرة ١٦٣٢ م .

(ق)

- ٩٩ - القرآن والتفكير : الدكتور أحمد محمد الحوفي - نشر المجلس الأعلى للشئون
 الإسلامية - القاهرة ١٩٧٥ م .

(ك)

- ١٠٠ - الكامل في التاريخ : أبو الحسن عز الدين بن الأثير - طبعة الحلبي .
 القاهرة ١٣٠٣ هـ .
 ١٠١ - الكامل في اللغة والأدب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد - طبعة دار
 العهد الجديد بالخرنفش بلا تاريخ .

- ١٠٢ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس :
العلولوني - مكتبة التراث الإسلامى - حلب .
- ١٠٣ - اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة - جلال الدين السيوطى -
المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة بلا تاريخ .
- ١٠٤ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : محمد فؤاد عبد الباقي - طبعة
الحلبى - القاهرة ١٩٤٩ م .
- ١٠٥ - المجازات النبوية : الشريف الرضى - طبعة الحلبي - القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٠٦ - مجمع الأمثال : أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني - طبعة بولاق -
القاهرة ١٣١٠ هـ .
- ١٠٧ - مرآة الإسلام : الدكتور طه حسين - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م
- ١٠٨ - مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودى - طبعة محيى الدين عبد الحميد
القاهرة ١٩٥٨ م وطبعة المطبعة البهية - القاهرة ١٣٤٦ هـ .
- ١٠٩ - مسند الإمام أحمد بن حنبل - المطبعة الميمنية - القاهرة ١٣١٣ هـ .
وطبعة المكتب الإسلامى - بيروت .
- ١١٠ - معاهد التنصيص : عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسى - طبعة
السعادة - القاهرة ١٣٦٧ هـ .
- ١١١ - معجم البلدان : ياقوت الحموى - طبعة ليبزج ١٨٦٦ م .
- ١١٢ - المعمرن والوصايا : أبو حاتم السجستاني - طبعة ليدن ١٨٩٩ م .
- ١١٣ - المفضليات : بتحقيق شاكر وهارون - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر
١٩٦٤ م .
- ١١٤ - مقاتل الطالبين : أبو الفرج الأصفهاني - بتحقيق السيد أحمد صقر -
الحلبى - القاهرة ١٩٤٩ م .
- ١١٥ - مقدمة ابن خلدون : طبعة التقدم - القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ١١٦ - مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث : عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى
المعروف بابن الصلاح - طبعة بومباي ١٣٥٧ هـ .
- ١١٧ - مكة والمدينة : أحمد إبراهيم الشريف - الطبعة الثانية - دار الفكر العربى -
القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١١٨ - الملل والنحل : الشهرستاني - المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠ هـ .

- ١١٩ - من بلاغة القرآن : الدكتور أحمد أحمد بدوى - الطبعة الثالثة - نهضة مصر ١٩٥٠ م .
- ١٢٠ - من حديث الشعر والنثر : الدكتور طه حسين - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٣٦ م .
- ١٢١ - الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى - طبعة السلفية - القاهرة ١٩٢٩ م .
- (ن)
- ١٢٢ - النثر الفنى فى القرن الرابع : الدكتور زكى مبارك - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م .
- ١٢٣ - النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه : الدكتور عبد الحكيم بلبغ - الطبعة الأولى - القاهرة بلا تاريخ .
- ١٢٤ - نهاية الأرب فى فنون الأدب : شهاب الدين النويرى - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
- ١٢٥ - النهاية فى غريب الحديث : أبو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير - المطبعة الخيرية - القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ١٢٦ - Nicholson; A'litterary History of the arabs . London, 1907. -

فهرس الموضوعات

مقدمة

تمهيد

١ - نظرات في الحياة العربية بين الجاهلية والإسلام

(أ) العرب في جاهليتهم

البداوة سمة غالبية على العرب ١٠ لم يكن العرب في عزلة تامة عن الأمم المجاورة وبخاصة أهل الحضرة منهم ٤١ أثر البداوة في حياة العرب الروحية ١٢ أثرها في عاداتهم ومعتقداتهم ٢٧ أثرها في أخلاقهم ونظام حياتهم ومعيشتهم ١٩

(ب) الإسلام والحياة العربية

الإسلام ثورة على الحياة العربية الجاهلية ٢١ أثره في العقيدة والفكر ٢٢ أثره في التربية الأخلاقية ٢٣ أثره في الحياة السياسية ٢٤ أثره في المجال الاجتماعي ٢٥ هل استطاع الإسلام أن يغير الحياة العربية في هذا العصر ؟ ٢٦ أكثر العرب استجابة للتحويل الذي دعا إليه الإسلام ٢٧ أثر الإسلام في معيشة البدو والحضر ٣١

(ج) القرآن الكريم معجزة البيان الكبرى

القرآن يثير دهشة العرب عند سماعه ٣٤ المؤمنون والمعاندون من العرب يستوتون في الانبهار بالقرآن ٣٥ حول إعجاز القرآن ٣٩ عجز العرب عن محاكاة أسلوب القرآن ٤٠ القرآن نسيج وحده في النظم والتأليف ٤٩ ضروب من أساليب القرآن ٤٩ القصص إلى إثارة العقل والوجدان معا ٤٩ تنوع الأسلوب بتنوع الأغراض والمقامات ٥٤ تنوع الأساليب بين السور المكية والمدنية ٦٧ أسلوب القرآن يجمع بين مزايا النظم والنثر ٧٦ ظاهرة السجع في القرآن ٧٧ أسلوب الموازنة والفواصل ٨١ أسلوب التصوير البياني في النسخ القرآني - نماذج وتحليل ودراسة - ٨٤ إقبال الصحابة على القرآن تلاوة وحفظا وفهما ٩١

الباب الأول

النثر في عهد النبوة والراشدين فنونه - خصائصه

الفصل الأول : أقوال الرسول

مقدمة ٩٥ ماذا نعني بأقوال الرسول ؟ ٩٥ مشكلتان في الدراسة الأدبية
لنثر النبوي ٩٦ مكانة النثر النبوي في عالم الفصاحة والبلاغة ١٠٢ دراسة
نماذج من النثر النبوي في مختلف الأغراض ١٠٥ نظرات فنية في النثر النبوي
١١٣ الأغراض والموضوعات ١١٣ المعاني ١١٤ اللفظ والعبارة ١١٦
الصور الفنية ١٢٠ ميل البلاغة النبوية إلى الإيجاز ١٢٢ ما استحدثه
الرسول من فصيح الكلم في اللغة ١٢٥ تنوع الأساليب في البلاغة النبوية
بتنوع الأغراض والمواقف ١٢٧ تعقيب على دراسة النثر النبوي ١٢٨

الفصل الثاني : الكتابة الفنية

- ١ - الكتابة فن إسلامي نشأة
نشأة فن الكتابة بين الجاهلية والإسلام ١٣٢ العرب الجاهليون عرفوا
الكتابة الخطية ١٣٣ من المؤرخين من يزعم أن فن الكتابة جاهلي نشأة
١٣٤ الرد على ذلك ١٣٥ رأى نميل إليه في نشأة هذا الفن ١٣٥ .
- ٢ - الإسلام والكتابة (١٣٦ - ١٣٨)
حث المسلمين على العلم والمعرفة وأداتهما القراءة والكتابة ١٣٦ ظروف
جديدة تطلبت انتشار الكتابة الفنية ١٣٧
- ٣ - دراسة نماذج من الكتابة في صدر الإسلام (١٣٨ - ١٤٤)
(أ) الرسائل والعهد النبوي (١٣٨ - ١٤٤)
كتاب رسول الله إلى بني ضمرة بن بكر من كنانة ١٣٨ كتابه إلى نعيم بن
مسعود الأشجعي ١٣٩ كتابه إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة ١٣٩
كتابته إلى خالد بن الوليد ١٤٠ - تعقيب ودراسة ١٤٠ السمات الفنية
للكتابة في عهد النبوة ١٤٢ .
- (ب) الرسائل والعهد في عهد الراشدين (١٤٤ - ١٥٦) عهد أبي بكر إلى
عمر بالخلافة ١٤٥ رسالة أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر

١٤٦ التعليق عليها ١٤٦ رسالة عمر إلى أنى موسى الأشعري في القضاء
١٤٨ التعليق عليها ١٤٩ رسالة عثمان حين أحيط به إلى على بن أنى
طالب ١٥٠ التعليق عليها ١٥٠ رسالة معاوية بن أنى سفيان إلى على
برفض بيعته ورد على عليها ١٥١ التعليق على الرسالتين ١٥٢
الملاح الفنية للكتابة في عهد الراشدين (١٥٣ - ١٥٦)

الفصل الثالث : الخطابة في ظل الإسلام (١٥٧ - ١٩٨)

تمهيد : الخطابة قبل الإسلام (١٥٧ - ١٥٨)

منزلة الخطابة في العصر الجاهلى ١٥٨ دواعيها ١٥٩ دلائل إزدهارها ١٥٩
ضياح أكثر نصوصها ١٦٠ مشاهير الخطباء في الجاهلية ١٦١ نماذج من
الخطابة الجاهلية : خطبة هانيء بن قبيصة يوم ذى قار ١٦١ خطبة مرثد
الخير الحميرى في الصلح ١٦٢ خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ
١٦٢ أهم الملاح الفنية للخطابة في الجاهلية ١٦٣ - ١٦٤ .

ازدهار الخطابة في ظل الإسلام (١٦٤ - ١٧٠)

١ - اشتداد الحاجة إلى الخطابة ١٦٥ توفر دواعيها واتساع مجالاتها ١٦٦ تطور
أغراضها ١٦٧ القرآن الكريم من أهم عوامل تطور الخطابة ١٧٠ .

٢ - دراسة نماذج من خطب العصر (١٧٠ - ١٩٤)

خطبة الرسول في الجمعة الأولى بالمدينة ١٧١ التعليق عليها ١٧٢ خطبة
أخرى له بالمدينة ١٧٣ التعليق عليها ١٧٤ خطبة الرسول في حجة الوداع
١٧٥ التعليق عليها ١٧٦ خطبة ثابت بن قيس بين يدي الرسول رداً على
وفد بنى تميم ١٧٧ التعليق عليها ١٧٩ خطبة أنى بكر عقب وفاة الرسول
والتعليق عليها ١٨٠ خطبته في سقيفة بنى ساعدة ١٨١ والتعليق عليها
١٨١ خطبة أخرى له وقد جاءه مال من البحرين ١٨٢ التعليق عليها
١٨٣ خطبة عمر عقب توليه الخلافة ١٨٤ التعليق عليها ١٨٤ خطبة
أخرى له ١٨٥ التعليق عليها ١٨٥ خطبة على عقب توليه الخلافة ١٨٦
التعليق عليها ١٨٧ خطبة أخرى له وقد علم أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار
١٨٨ التعليق عليها ١٩١

٣ - الملاح الفنية للخطابة في عهد النبوة والراشدين (١٩٤ - ١٩٨) من

حيث الألفاظ ١٩٤ من حيث المعاني ١٩٥ من حيث الأساليب ١٩٥

الوحدة الموضوعية ١٩٧ مدى استيفاء خطب العصر للعناصر الأساسية
في الخطبة ١٩٧

الفصل الرابع : الوصايا والعظات في عصر النبوة والراشدين

- ١ - الوصايا والعظات في الجاهلية ١٩٩
- ٢ - الوصايا والعظات في ظل الإسلام (٢٠٠ - ٢٠٥)
- أولاً : الوصايا (٢٠٠ - ٢٠٤)

الوصايا الدينية والسياسية تشبه الخطب الدينية والسياسية ٢٠٠ الوصايا الاجتماعية تشبه نظيرتها في الجاهلية ٢٠١ نماذج من وصايا العصر : من الوصايا السياسية وصية عمر الخليفة من بعده ٢٠١ التعليق عليها ٢٠٢ من الوصايا الدينية وصية علي ابنه الحسن والحسين والتعليق عليها ٢٠٢ من الوصايا الاجتماعية وصية أبي الأسود الدؤلي ابنته ليلة زفافها ٢٠٢ التعليق عليها ٢٠٣ نموذج للوصية الاجتماعية الجاهلية للمقارنة ٢٠٣ التعليق عليها ٢٠٣

ثانياً : العظات (٢٠٤ - ٢٠٧)

العظات الإسلامية دينية غالباً ٢٠٤ هي فن إسلامي خالص ٢٠٤ العظة الإسلامية تشبه الخطبة الدينية ٢٠٥ نموذجان للعظة الإسلامية ٢٠٥

الباب الثاني

الشعر في عصر النبوة والراشدين

تمهيد

- ١ - اضطراب المؤرخين في الحكم على شعر هذا العصر ٢٠٩ ملاحظة الفروق بين البيئات الأمنية والمكانية للشعر في هذا العصر هو المنهج الصائب في دراساته ٢١٠
- ٢ - الشعر قبل الإسلام : ازدهار الشعر في العصر الجاهلي وأسبابه ٢١١ الشعر الجاهلي أكثر ازدهاراً في البداية منه في الحضر ٢١٣

الفصل الأول : الشعر في عهد النبوة

(أ) موقف الإسلام من الشعر والشعراء

تصورات خاطئة لموقف الإسلام من الشعر ٢١٦ القرآن الكريم لم ينفر من الشعر بعامة ولم يذم الشعراء أجمعين ٢١٧ الرد من زعم أن قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الفاوون ... الآية » تنفير من الشعر والشعراء بعامة ٢١٧ خطأ من استدل بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر ... الآية » على مثل ذلك ٢١٨ موقف الرسول من الشعر كموقف القرآن منه ٢١٩ روايات في تقدير الرسول الشعر الحسن ٢٢٠ .

(ب) الشعر بين البادية والحضر في العهد النبوي (٢٢٨ - ٢٣١) شعر البادية في هذا العهد جاهلي يعكس خصائص الشعر الجاهلي شكلا ومضمونا وأسباب ذلك ٢٢٨ شعراء من البادية انضموا لمعسكر الرسول بالمدينة ٢٢٩ شعر هؤلاء الشعراء البدو لا يمثل شعر البادية في هذا العهد ٢٢٩ ملامح إسلامية ضعيفة في شعر البادية في أواخر هذا العهد ٢٣٠

(ج) ازدهار الشعر في حضر الحجاز في العهد النبوي (٢٣١ - ٢٨٥) قريش تصطنع الشعر في صراعها مع الرسول ٢٣١ أشهر شعراء قريش وشواعرها في المعركة ٢٣٢ نهضة الشاعرية القرشية بسبب هذا الصراع ٢٣٣ اتجاهات الشعر القرشي في هذا الصراع ٢٣٣ التحريض على قتال المسلمين - نماذج ودراسة - ٢٣٤ الإشادة بالبطولات القرشية - نماذج ودراسة - ٢٣٨ في هجاء المسلمين ٢٣٩ ضياع أكثر الشعر الذي هجى به الرسول والمسلمون وأسباب ذلك ٢٤٠ رثاء قتلى قريش - نماذج ودراسة - ٢٤١ دوران كل هذه الألوان من الشعر حول الأغراض الجاهلية ومعالجتها بالأساليب الجاهلية ٢٤٣ ضعف النغمة الدينية فيه ٢٤٤ النشاط الشعري للمسلمين في مواجهة الشعر القرشي ٢٤٥ أشهر شعراء المسلمين وشواعرهم في هذا الصراع ٢٤٦ أهم الاتجاهات الشعرية في شعر المسلمين ضد قريش ٢٤٧ نماذج في مدح الرسول وتعقيبات عليها ٢٤٨ نماذج في الدفاع عن الدعوة وصاحبها والمسلمين تحليل ودراسة - ٢٥٢ هجاء المشركين ٢٥٢ تخذيل المشركين عن حرب المسلمين ٢٥٦ شعر المسلمين في المعارك الحربية ضد قريش ٢٥٧ رثاء شهداء المعارك الإسلامية في عهد النبوة ٢٦١ تعقيب على شعر المعسكر الإسلامي ٢٦٤ ازدهار فن النقائص الشعرية في ظل الصراع بين مكة والمدينة ومعنى النقائص ٢٦٥

النقائض في العصر الجاهلي ٢٦٦ الملاح الفنية للنقائض في العصر الجاهلي ٢٦٩
تطور النقائض في ظل الإسلام من حيث الغاية والأسلوب والعبارة ٢٧٠ نماذج
من فن النقائض في هذه الفترة - تحليل ودراسة - ٢٧٢ تعقيب ٢٨١ .

الفصل الثاني : الشعر في عهد الراشدين (٢٨٥ - ٣٢٩)

(أ) الراشدون والشعر (٢٨٥ - ٢٩٠)

مقدمة ٢٨٥ تقدير الراشدين الشعر والشعراء ٢٨٨

تعقيب ٢٩٠

(ب) الضعف والأزدهار في ألوان من شعر العهد الراشدي (٢٩٢ - ٢٩٩)

١ - الشعر الملتزم بتعاليم الإسلام وخدمة أهدافه ٢٩٣ نماذج منه مع تحليلها ودراساتها

٢٩٤ اضطراب هذا الشعر بين القوة والضعف وأسباب ذلك ٢٩٨

٢ - الشعر في ظل الفتوح الإسلامية (٢٩٩ - ٣١٩)

محاولات لنشر الدعوة خارج جزيرة العرب في العهد النبوي ٣٠٠ اندفاع

المسلمين في العهد الراشدي إلى ميادين الفتح ٣٠١ الفتوح الإسلامية لم

تشغل العرب عن الشعر وأدلة ذلك ٣٠٤ نماذج لشعر الفتوح في شتى

الأغراض مع تحليلها ودراساتها والتعليق عليها ٣٠٧ تعقيب ٣١٩

٣ - شعر البادية في عهد الراشدين (٣٢٠ - ٣٢٩)

شعر البادية في هذا العهد يعد امتدادا للشعر الجاهلي ٣٢٠

نماذج منه مع تحليلها ودراساتها والتعليق عليها ٣٢١

تعقيب ٣٢٩

٤ - ملاح إسلامية في شعر البادية (٣٢٩ - ٣٤٣)

مدى تأثير الشعر في البادية بالإسلام ٣٣٠ نماذج لمظاهر من التأثير مع

تحليلها ودراساتها ٣٣٠ ضعف الآثار الإسلامية في هذا الشعر بعامة ٣٣٨

مقارنة بين الآثار الإسلامية في هذا الشعر بعامة ٣٣٨ مقارنة بين الآثار

الإسلامية في شعر البادية والآثار الإسلامية في شعر الصحابة في العهد

النبوي ٣٣٩ خاتمة ٣٤٣

المراجع والمصادر ٣٤٥

فهرس الموضوعات ٣٥٥

الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة